دار روف منشورة
للنشر الإلكترونى

أيام داعش

رواية

مصطفي محمود عواض

الطبعة الثانية

نوع العمل: رواية

اسم العمل: أيام داعش

اسم المؤلف: مصطفى محمود عواض

الناشر: حروف منثورة للنشر الإليكترونى

الطبعة: الثانية الإلكترونية مارس 2016

تصميم الغلاف: هاجر عبد الصمد

تدقيق لغوى: زياد أبو السعود

تفضلوا بزيارة موقعنا حروف منثورة للنشر الإليكترونى من خلال الضغط على الرابط التالى:

http://herufmansoura2011.wix.com/ebook

كما يمكنكم متابعتنا من خلال صفحتنا الرسمية على الفيس بوك من خلال الضغط على الرابط التالى:

http://facebook.com/herufmansoura

كما يمكنكم مراسلاتنا بأعمالكم على الإيميل التالى:

Herufmansoura2011@gmail.com

دار حروف منثورة هي دار نشر إلكترونية لخدمات النشر الالكتروني ولا تتحمل أي مسئولية تجاه المحتوى الذي يتحمل مسئوليته الكاتب وحده فقط وله حق استغلاله كيفما يشاء

الطبعة الأولى ورقية:2015

رقم الإيداع: 2015/23762

الترقيم الدولي: 978/977/783/108/6

تصحيح لغوي: زياد أبو السعود

تصميم الغلاف: هاجر عبد الصمد

جميع حقوق الطبع و النشر محفوظة للمؤلف

الصفحة الرسمية للرواية على الفيس بوك

صفحة الرواية على موقع جود ريدز

أيام د.ا.ع.ش

نبل الغاية... وخسة الوسيلة

رواية

من تأليف
مصطفى محمود عواض

إهداء إلى

من شبت في مواطن أحرفهم بنات أفكاري

إلى الأدباء: المنفلوطي، الرافعي، عبد الرحمن رأفت الباشا، على الطنطاوي، وليد سيف، يوسف زيدان.

إشارة

الدول هي من تصنع الإرهاب، ثم تتجرع على كره علقمه، ثم تنوح الدهر لآثاره

إشارة أخرى

المحجة البيضاء قد تفرق نورها، بين الجماعات والأحزاب والأفكار..

فلن تجد بينهم أبيض نقي لا شائبة فيه

وإنما في كل حق وباطل

حتى يعتصموا بحبل الله جميعا ولا يتفرقوا

تنبيه

قد يظن البعض أن شخصيات الرواية خيالية..

وقد يظن آخرون أن شخصيات الرواية حقيقية..

والحق أنها مزيج بين واقع نحياه وخيال أحياه

الفصل الأول

بداية النهاية

المكان: صحراء ولاية الأنبار... العراق

في تلك الفلاة، كانت الشمس الحارقة تتوسط كبد السماء، وقد نفّرتْ عن وليجتها للرمال؛ بذلك اللهيب المنبعث منها، وكأني بتلك الصفحة الصفراء لم تطق أن تسرّ بنجوى خليلتها لها، ولم تضنّ من أن يشارك سرهما أحد، فكشفت عن خبيئتها لهؤلاء العصابة الملثمة؛ فلطالما قد وسعهم عطاؤها، وعمتهم نوافلها، وغمرهم نوالها، وقد أعانتهم على تحمل هذه السخونة الحارقة -مع قوة بأسهم- تلك القمصان الخفيفة القصيرة، إلا أن بعضهم كان يرتدي زيا عسكريًّا ثقيلًا، وفي أيديهم أنواع مختلفة من الأسلحة، كان الجميع يتحلق بنظام حول ذلك العمود الشاهق المنتصب في وسط الرمال، وأعينهم مترددة بين نظرة الشفقة ونظرة التشفي لهذا الرجل المصلوب على العمود، كان رجلًا مستحكم الخلقة، منكس الرأس، ممزق الثياب، لا تكاد ملامحه تظهر، وقد سلخت حرارة الشمس وجهه، واكتوى

جرحه بسخونة الرياح، وقد بدا عليه الإعياء الشديد، وجدّ به العطش، وتقرقرت بطنه من الجوع، مثل حاله قد يفزع للاستكانة بالامتهان، والرضا بالذل، لعله مهربه مما هو فيه، أو شعار لحالته التي هو عليها، إلا أنك -ورغم انتكاسة رأسه- تجد فيما تبقى من مُحيّاه، رجلًا قد خلع عن نفسه ملابس الهوان، وقد صوب للجميع نظرة تحدي وأنفة، وكأنه بتلك النظرة يشارك الشمس والصحراء في النَّيْل من هؤلاء الرجال، أو قد يكونا هم من يشاركونه في النَّيْل منهم.

- لا أكاد أصدق، أبو مسلم المصري جاسوس!!!!!

تهامس بها أحد الرجال الموجودين لمشاهدة هذا المشهد، وهو يحرص على ألا يسمعه أحد آخر غير جاره.

فأجابه جاره في صوت منخفض دون أن يلتفت إليه: سل الله الثبات، الجريمة قد ثبتت عليه، وقد انكشف خداعه للجميع.

ثم صمت وقد بدا على ملامحه الحزن وهو يردف قائلا: خمسة من قادة دولة الإسلام، خير قادتها تسبب هذا الحقير في قنصهم من قبل قوات التحالف.

- سيصيبني الجنون، كيف لقائد مثل أبي مسلم أن يخون!!!، هو أشدنا إقدامًا في الحرب، وأكثرنا عبادة، وأفضلنا خلقًا، ثم إنه صهر لأبي جندل أحد قادة الحرب الكبار، لا أصدق أنه خائن، لا...

قاطعه الآخر وهو يشير إليه بالصمت، قائلا: يا أبا حمزة، لا تتعجل ستبدأ محاكمته بعد قليل وسنرى ما هو قرار القاضي الشرعي.

- الأمر جلل، وقيادات دولة الإسلام كلها سيحضرون محاكمته، والخليفة بنفسه يتابعها، ما حدث صدمة حقًا للجميع، فهذا الجاسوس بيننا منذ خمس سنوات، والله أعلم هل هو بمفرده أم هناك آخرون؟!!!!.

- ما يستثير حيرتي، أن من أسباب امتداد وتطور دولة الإسلام هو أبو مسلم، الجميع كانوا يعتبرونه الرجل الثاني في الدولة بعد خليفتنا حفظه الله تعالى، فلقد كـ...

قاطع حديثهم ظهور تلك السيارات العسكرية التي شقت الرمال لتصل إليهم، ويعقبها سيارة سوداء فخمة لا تتناسب مع هذه الصحراء، فخرج بعض الجنود من السيارات العسكرية في تشكيلات منظمة ليحيطوا بتلك

السيارة السوداء، والتي قد خرج منها رجل أسمر نحيف البدن، قد سكن الشيب لحيته، يرتدي قميصًا قصيرًا متواضعًا، وعليه عمامة ضخمة لا تتناسب مع نحافته، ممسك بعصاه تكاد تشبهه، بمجرد خروجه من السيارة وإذ بكل الحضور وكأن على رءوسهم الطير إجلالا له ولمكانته، وما أن خرج حتى أسنده أحد الجنود وسار به قرب العمود الشاهق.

وتوالى ظهور السيارات الفخمة لذوي المناصب العليا كما يتضح من رتبهم وملابسهم وتوقير الحضور لهم.

كان كل الموجودين رجال، من كل الأطياف العمرية، إلا أنه ثمّةَ امرأة متلفحة بالسواد، تذيلت آخر الصفوف، وهي تحمل صغيرها بين يديها، لا يري من خلف نقابها شيء ولا العيون، إلا أن انتكاسة رأسها، وبكاء صغيرها وإشارته للرجل المصلوب، تدلك بما لا يدع للشك سبيلًا أنها زوجة المصلوب (أبو مسلم المصري) وهذا ولده.

علا صوت أحد الجنود مناديًا: القاضي الشرعي لدولة الإسلام.

وهنا وقف الرجل الكبير النحيف بجانب العمود، وقد أخرج من جبيه ورقة، ثم أخذ يتأمل الحضور في صمت، ثم شرع في القراءة من الورقة بصوته الهادئ:

- *الحمد لله المتفرد باسمه الأسمى، المختص بالملك الأعز الأحمى، الذي شرع في القصاص حياة لأولي النهى، والصلاة والسلام على محمد -صلى الله عليه وسلم- المبعوث بالرحمة والسيف معًا، فأقام الله به الدين، وأذل به الكافرين، ونصر به المؤمنين، صلى الله عليه وعلى آل بيته وصحبه أجمعين، اللهم آآآمين.*

وبعد:

قال تعالى:{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (51) فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَى مَا أَسَرُّوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ (52) وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ (53) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ

يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (54) إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ (55) وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ (56) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (57)}.

إنه بعد مراجعة مجلس القضاة الشرعي لدولة الإسلام لهذه القضية لمدة ثلاثة أيام، وبعد الاطلاع على الأدلة المقدمة من قبل شرطة الدولة، ومخابراتها وهي كالآتي:.....

وأخذ القاضي الشرعي يسوق الأدلة، الواحدة تعقب أختها، وفي ذلك الحين كان أبو مسلم المصلوب، تعلوه ابتسامة ساخرة كلما سمع إحداها، وشريط من الذكريات يعاوده الفينة بعد الفينة، ظلت خواطره ولعلها هلاوسه تراوده وقتها.

أين كان؟ وكيف صار إلى هنا؟ زوجته وابنه ما مآلهما؟ ألف سؤال وألف ذكرى، وما كان يزاحم ذكرياته سوى إغشاءة تلو إغشاءة، فهو على حاله هذه منذ ثلاثة أيام، لا طعام ولا ماء، إلا ما يُطعم به الموت لينتظر عنه قليلًا، فها هو الموت متربص له، ورائحته تحوم حوله من كل مكان.

أفاق أبو مسلم على صوت القاضي الشرعي للدولة وهو يقول بنبرة حادة:

وقد راجع مجلس القضاة الشرعي الأدلة، وقرر الآتي:

بعد ثبوت تورط أبي مسلم المصري بمقتل خمسة من خيرة رجال دولة الإسلام وقاداتها غدرًا، والعمل مع مخابرات دولة معادية وإفشاء أسرار عسكرية لها، فإنه يظهر بما لا يدع للشك مكانا ردة أبي مسلم المصري عن دين الإسلام، وليكون عبرة ومثلًا للآخرين، فقد قررنا تطبيق حد الحرابة عليه.

قال تعالى: {إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ}.

والحمد لله رب العالمين

وهنا شهقت المرأة بصوت مسموع، وبكى الطفل لصوتها بصوت عالٍ، فالتفت البعض لهما، إلا أن أبصارهم سرعان ما ارتدت إلى مواقعها.

وهنا ظهر رجل ضخم مقنع، يمسك في يديه سيفًا ضخمًا، أخذت الأبصار تتبع خطواته البطيئة حتى صار خلف المصلوب تمامًا، وهنا رفع المصلوب نظره لآخر الصفوف ليجد المرأة والطفل، فابتسم لهما ابتسامة تجب كل ما وجده من عذاب، وأخذ يتأملهما ويطيل النظر لعلها نظرة مودع.

وهنا رفع الرجل الضخم السيف، وشهقت المرأة بصوت عال ولم يلتفت أحد وتركزت الأبصار كلها للسياف، وهنا تمتم المصلوب بكلمات غير مسموعة، وتعالت الاصوات: الله أكبر.

وسالت الدماء.

****

المكان: كربلاء.... العراق

(إنّ عاشوراء ذكرى زلزل الأرض صداها...

قد أطلت من جديد تمسح الدمع دماها...

إن عاشوراء يوم أجج الشمس ضحاها...)

في مسجد الإمام الحسين بكربلاء، علا نخير المنشد بهذه الأبيات المشهورة، بنغمة مبكية، أبكت هذا الحضور المذهل والذي كان يصيح عند كل سكتة للمنشد بصوت جهور عالٍ: لبيك يا حسين... لبيك يا حسين.

ولم يكن صياحهم وبكاؤهم عائقًا عن تلك الضربات الموجعة التي وجهوها لظهورهم بتلك السلاسل الضخمة، ولا عائقا عن الاستلذاذ بتدفق الدماء من ظهورهم ورءوسهم، وها هو أحدهم يمسك بصغيره الذي لم يتجاوز عامه الثالث، ويجرح رأسه بخفة وسرعة بذلك السكين الحاد، ولم يعر انتباهه لصرخات الطفل الشديدة.

كان لهذا اليوم صوت ورائحة، صوت الضجيج ورائحة الدماء.

- لبيك يا حسين، لبيك يا حسين

كان يصيح بها الجميع بحماس بالغ، لا سيما أصحاب تلك الحلقات، فقد كانوا يقفزون ويهبطون رقصًا مع نغمات هذا النشيد، وانقسموا بين من يلطم خده، ومن يشق جيبه، ومن يشق جرحا برأسه مفتخرا، ومن يجلد ذاته بالسلاسل.

طقوس تبعث في النفس الحيرة الشديدة، أهو حقًّا عقاب للنفس لأن أهل كربلاء هم من خانوا الحسين، فأوقعوا على أنفسهم العذاب الأبدي بهذه الطقوس، أم هو احتفال بموت الحسين، وكيف يحتفل بموت مثل الحسين!!!!

كانت هناك منصة يعلوها كبار الأئمة المهديين، ويتوسطهم أكبرهم وكانوا يلقبونه بالإمام المرجع، الكل يعامله بتمام الذل والخضوع مع رجاء وحب وخشوع عجيب، يُسمح للقليل بالاقتراب منه، ولا يدنو حتى ينحني إجلالا لهذا الإمام، ويقبل اليد في استكانة شديدة، وبعد وابل من كلمات المدح والثناء، يطلب حاجته، فهذا يريد الانجاب، وهذا يريد إيجاد عمل، وأفضلهم طريقة يطلب الدعاء.

كان يجلس المرجع وهو مسند ظهره على كرسي ضخم، وقد وضع ساقا على ساق، في أنفة وكبرياء يستحقها من كان

على حاله، وفي يديه سيجار ضخم لتكتمل بها هيبته، ويعلو بها خيلاؤه.

كان يحيط الحرس والجنود حول الإمام المرجع من كل الاتجاهات، وهم يهتفون في عزة: لبيك يا حسين لبيك... يلهبون بهتافهم حماسة الجمع كله.

اقترب أحد الأشخاص في هدوء نحو الإمام المرجع، حتى دنا منه وصار قريبا قربا شديدا، ثم انحنى ركوعا لإمامه في خشوع تام، وتناول برفق يد المرجع الإمام ليلثمها، فابتسم المرجع الإمام، وترك يده تسير حيث وجهها الجندي قائلا: بارك الله بك يا حيدر، بركات الله ورسوله وآل بيته تحفظك من كل سوء.

ابتسم الرجل ابتسامة مفاجئة لأنها لم تكن إلا ابتسامة ساخرة قائلا: سل الله ان تنجيك هذه البركات.

اعتدل الإمام المرجع متفاجئا بقول الجندي مذهولا بما قال، وقبل أن ينطق بكلمة واحدة، قفز حيدر وقد أخرج من جيبه سكين، وبكل مهارة وسرعة، صوبها اتجاه قلب الإمام المرجع.

غرست السكين بقلب المرجع الإمام، ولم يفق من بجواره من هول المفاجأة، وظلوا يراقبون المشهد وكأنهم لا يصدقون، صاح المرجع قبل أن يلفظ أنفاسه الأخيرة بصوت موجوع: قتلني الكافر.

وهنا صُوِّبت البندقيات تجاه حيدر الذي لم تفارقه ابتسامته الساخرة، وأُطلقت الرصاصات...

(كربلاء.. أي مأساة سواها.. أي جرم أي ذنب أذنبوه في رباها.. في دماء لعليٍّ خير من داس ثراها).

****

الفصل الثاني

البداية

تأريخ:

المكان: شمال أفريقية.

الزمان: عام (433هـ/ 1040م).

في تلك الجزيرة المنقطعة بجوار الحوض الأدنى لنهر السنغال، جلس نفر ملثمين متحلقين في خيمة بدائية الصنع، وقد تقلد الجميع سيوفهم، كانوا يجلسون في سكون يستمعون لذلك الشيخ مليح القسمة والذي شرع في إلقاء كلمة قائلا: الحمد لله الذي منّ علينا بالهجرة في سبيله، والصلاة والسلام على خير المهاجرين نبينا صلى الله عليه وسلم، وبعد: فقد نما إلى سمعي ضجر البعض بما آل إليه حاله، في تلك الجزيرة المنقطعة، بعد ترك الصحب والآل، والتخلف عن طيب العيش لزهده، ومن سعة الأوطان لضيق المكان.

فإليهم أقول: لستم بأول من يجتوي المكان، فقبلكم صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم عند مكوثهم بالمدينة

اجتووها، ولم يلائم المكان أجسادهم، إلا أنهم صبروا لتحقيق الغاية، وقد علموا أن المرء لا يبتلى إلا على قدر دينه، قال تعالى: {الم (1) أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ (2) وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ (3)}.

ومن أجل الغاية نصبر على الصعاب، وغايتنا: هو أن يوحد الله في كل البلاد الإسلامية، وأن يقضى على البدع والخرافات والأهواء، ثم وحدة الأمة، فتوحيد الله وتوحيد الأمة صنوان لا يفترقان.

فما آل إليه حال أمتنا من تفرق وتحارب من ملوك الطوائف بالأندلس، ورءوس القبائل في المغرب، واستسلام للعدو الرومي، والسعي بكل الطرق لإرضائه، بل وإعانته إن طلب قتالا ضد المسلمين، وتفشي البدع والمنكرات، حتى صرنا مسلمين بلا بلاد مسلمة، وما علة علتنا هذه إلا بُعدنا عن توحيد ربنا، وتحكيم فرقانه وسنة نبينا صلى الله عليه وسلم.

هذا المكان الذي تزدريه أنفس البعض، سيصير بحول الله وقدرته خيرا من تلك المدينة الفاضلة التي تكلم عنها

الفلاسفة، فمدينتنا لها سابقة وهي مدينة رسولنا الكريم صلى الله عليه وسلم، ومدينتهم درب خيال، مدينتنا قائمة على العلم والعمل والدعوة والصبر على الأذى والقوة، مدينة يرتضيها رب العرش من فوق سبع سموات.

استأذن أحد الملثمين بالسؤال، ميزه الشيخ عن البقية فقد كان يختلف عن جميع الحضور بكونه دقيق الشبح، نحيل الظل، ولذلك قال الشيخ: تفضل يا يوسف بن تاشفين.

فقال يوسف: يا إمامنا عبد الله بن ياسين، وكيف السبيل إلى ذلك، ونحن قلة ولو سمع بنا أحدهم لجيّش الجيوش لحربنا.

لم تغادر تلك الابتسامة الحنون وجه الشيخ عبد الله بن ياسين وهو يجيب يوسف قائلا: وليس مثلك من يسأل مثل هذا السؤال، فقد عهدتك حافظا لكتاب الله وسنة رسوله طالبا للعلم مدققا، {وكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله}، الله سيكفينا ردعهم بحوله وقوته.

فقال يوسف: يا إمام، ما هذا قصدت، فمع التوكل على الله والثقة بوعده بالنصر يجب من حسن التدبير، والصنيعة

والنظر للمآلات، فهكذا تعلمنا من سنة رسولنا الكريم صلى الله عليه وسلم.

فتساءل الشيخ عبد الله قائلا: وكيف ذلك؟

أجابه يوسف: أرى أن نصنع ما صنعه رسولنا الكريم في مراحل التمكين، فنبدأ بدعوة القبائل بالمغرب لدعوتنا دعوة الإسلام الصافي توحيد الله وتوحيد الأمة، ونطالبهم بالانضمام إلينا وألا يتخلفوا عن هذه الجزيرة، فنصطفي أخيرنا دعوة وأسلمنا لسانا وأقوانا حجة، حتى إذا جاءونا صرفناهم للعلم الشرعي فيتعلمون علوم ديننا بين يديكم، في الوقت نفسه يتولى أميرنا يحيى بن إبراهيم تدريبهم على القتال، في حين يهتم البعض بالزراعة، والبعض في صناعة السيوف، وغيرها من المهن الأساسية، وبعد أن يمن الله علينا بالقوة، ننتقل للمرحلة الثانية: الدعوة بالكلمة والسيف، نسير إلى القبائل، فإما أن تلتزم بدعوة الإسلام الصحيح، وإما نجاهدها حتى نفتح البلاد، ونوحد أمة الإسلام بالمغرب، ثم ننتقل لمرحلة التمكين.

شعر يوسف بالحرج الشديد فقد وجد نفسه قد أسهب في الكلام وهذا ينافي أدب المجلس الذي يتوسطه شيخه

وأستاذه الشيخ عبد الله بن ياسين، فلاذ بالصمت، إلا أن شيخه أشار إليه بأن يكمل حديثه قائلا: اكمل يا يوسف، فإنك لم تخيب ظني قط.

فأكمل يوسف قائلا: السبيل الذي لا مناص منه للتمكين هو الإخلاص لله، وبرهانه أن نبدأ بأنفسنا فنجعل من هذه الجزيرة المنقطعة منارة للعلم والعمل، ونقيم دولتنا التي نحلم بها فيها أولا ثم لما يتعادها من القبائل.

ابتسم الشيخ قائلا: هذا هو يوسف بن تاشفين، أحسنت ووفيت يا بني، وأنت من سيكون أول سفير لبلاد المرابطين، بين قبائل المغرب.

قالها عبد الله بن ياسين، ولم تفارقه نظرات الإعجاب التي وجهها ليوسف بن تاشفين، فقد استقر في نفسه، أن مثل يوسف بن تاشفين هذا لا تُصنع به دولة بل حضارة.

****

المكان: العراق

الزمان: بعد مرور (970) عاما، من قصة المرابطين.

في عرض صحراء العراق، وفي تلك الخيمة المعدة من الخوص والخشب، بشكل بدائي، يحيطها مجموعة كبيرة من

المجندين الملثمين، وفي داخلها جلس لمة من الرجال الملتحين، حول طاولة خشبية، تتوسط الخيمة، وبدأ كل منهم يتجاذب أطراف الحديث مع جاره في تهامس، حتى دخل عليهم ذلك الشيخ الملتحي ذو العمامة السوداء والقميص الأسود، فسكن الجميع، وردوا عليه سلامه، فاتخذ لنفسه مجلسا، وأخرج أوراقا مرتبة من حقيبته الجلدية الفاخرة، ووضعها على الطاولة، كان الجميع يرقبه بتوقير شديد، وإعظام بليغ.

قطع الصمت المحيط صوت الشيخ الهادئ وهو يقول: بسم الله والحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله صلى الله عليه وعلى آل بيته وصحبه وسلم تسليما كثيرا وبعد، هذا الاجتماع الثاني، لمجلس شورى دولة العراق الإسلامية، بعد استشهاد خير قادتها وزعمائها أبو عمر البغدادي، وأبو حمزة المهاجر -رحمهما الله وتقبلهما- على يد نصارى الأمريكان عليهم لعنة الله، بتلك الوشاية من الخائنين لله ورسوله والمؤمنين عن موقعهما، وكما تعلمون فقد تم اختياري لخلافة أبي عمر البغدادي رحمه الله، واختيار الناصر لدين الله وزيرا للحرب.

قالها أبو بكر البغدادي زعيمهم، الشيخ المعمم بالسواد وهو يشير لأحد الجالسين معرفا إياه.

أكمل أبو بكر البغدادي وهو يقول: في هذا الاجتماع بإذن الله، سنتناقش في أمور محددة يجب حسمها اليوم.

أطرق أبو بكر البغدادي رأسه، متحاشيًا عيون المحيطين به ثم قال: يعلم الجميع مدى طيب علاقتي بأبي عمر البغدادي رحمه الله، وأنه من اصطفاني لدخول هذا المجلس، بعد خروجي من سجون الأمريكان والصفوية، وأيضا يعلم الجميع أنني كنت دائم الاعتراض على بعض سياسات دولتنا المباركة بحول الله.

ثم رفع رأسه فجأة وتطلع بعينيه للجميع وهو يقول في حدة: وقد حملتموني المسئولية، ووالله إني لأراها تكليفًا لا تشريفًا، لذا فأريدكم أن تعلموا أن سنتي تختلف عن سنة من سبقني، ولذلك فسأعرض بعضها عليكم مشورة، فإن قبلتموها فخير، وإلا فالجدال بالتي هي أحسن حتى يسلم أحدنا للآخر، وإلا فانظروا أمركم.

تهامس الجميع في تعجب من كلمات أبي بكر البغدادي، فقد كان وقع المفاجأة قوي عليهم، صحيح أن ظاهر كلام أبي

بكر البغدادي أنه يرجع الأمر للشورى، إلا أن باطنه إما الوفاق، وإما الفراق، والفراق تعني فراقه هو، فهم يعلمون أنه ما رغب في الإمارة وأنه أزهدهم فيها، وأنهم ما اختاروه إلا لرجاحة عقله، وبُعد نظره، ونسبه الحسيني الشريف، وتقريب أبي عمر له، صحيح أنه كان كثير الاعتراض على آرائهم في عهد أبي عمر البغدادي، وكان كثير الاعتراض على أبي عمر نفسه، ولكنه كان غالبا ما يقتنع الجميع برأيه، حتى وإن خالفوه فهم يجدون وقتها في قوله منطقا وحكمة، كانت لديه خبرة شديدة في أمور الحرب، وقد تولى منصب والي الولاة وكان المشرف العام على الولايات والمشرف على إدارة العمليات عام 2008 في التنظيم، هذا كله غير قوة تأصيله العلمي الشرعي فهو الحاصل على شهادة الدكتوراه في العلوم الإسلامية، وعمله كأستاذ جامعي في جامعة تكريت، وبجانب القوة العلمية النظرية فعمله كعضو بمنصب الأمير الشرعي للأنبار، أمير الفلوجة، أمير ديالى ثم ولاية بغداد القاطع الشمالي، فالأمير الشرعي لسامراء، وبهذا عمل في كل أنحاء غرب ووسط العراق، فكانت له دراية تامة بأرض الرافدين.

قال أحدهم: قل يا أبا دعاء ما تريد أن تقوله ونحن لك مستمعون.

ضحك الجميع، فكنية أبي بكر السابقة، أبو دعاء، ولا يناديه بها الآن إلا قريب، أو مقرب.

قال أبو بكر البغدادي: يعلم الجميع أن دولتنا قد بدأت باسم جماعة التوحيد والجهاد على يد زعيمنا وقائدنا أبي مصعب الزرقاوي عام 1425هجريًا، وكان الأصل في تكوينها هي صنع جبهة سنية قوية في دفع المحتل الإرهابي الأمريكي والقضاء عليه، ثم تعددت الغاية وقتها بحرب الروافض بسبب انتهاكاتهم على السنة بالعراق، حتى تمت بيعة أبي مصعب الزرقاوي لشيخ الإسلام أسامة بن لادن، وقد تغير اسم التنظيم وقتها لاسم القاعدة في بلاد الرافدين، فصرنا تبعا لتنظيم القاعدة، وإن كان الأمر بيعة شرفية، والأمر كله كان حقيقة بيد مجلس الشورى الذي شكله أبي مصعب، ولم يطل الوقت حتى استشهد القائد البطل، وأكمل مسيرته أبو عمر البغدادي، وأبو حمزة المهاجر، لن أطيل في الكلام عما سبق والجميع هنا يعلمه، ولكني أحببت أن أنوه للآتي: الأهداف السابقة قد تحقق بعضها، كإلحاق

الهزيمة بالقوات الأمريكية بالعراق، فقد أنهكنا قواهم، وشردنا جنودهم، إلا أنه ثمة ضريبة دفعناها في المقابل، خسارة خير جنودنا وقياداتنا، امتلاك الروافض للعراق، وبالتالي صنع جيشًا قويًّا يحميها، ونفور الكثير من القبائل من دعوتنا، و....

استأذن أحد الموجودين بالكلام، فأشار إليه أبو بكر بالإذن، فقال: يا سيدي، وما السبب في ذلك، هذه إرادة الله، انتصرنا في معركة وتنتظرنا معارك، حققنا هدفا وغدا نحقق الباقي.

ابتسم أبو بكر وقال: لعلك على حق، ولكن عند معرفة أسباب الخسارة، ومعالجتها، وحسن التدبير والتخطيط، وعلو الغاية، ستكون النتائج مختلفة، وهذا هو الأخذ بالأسباب، والنجاح وعدمه بيد مسبب الأسباب.

قال آخر: وكيف ذا، ماذا تريد أن تقول؟

أجابه أبو بكر: دولتنا لازالت في مهدها، ولو استمررنا على حالنا، سننتهي وسنكون مثلهم.

تساءل آخر: مثل من؟

صمت أبو بكر قليلا، ثم قال: سنكون مثل القاعدة، اسم بلا حقيقة.

تحول الهمس لنأمة، وكثر الكلام بين الحضور، في حين قاطع كلامهم أبو بكر قائلا: الحقيقة موجعة ولكننا من المفترض أول من يتنبه وينبه لها، نعلم أن إخواننا في القاعدة من خير الناس، وأشرفهم، ونعلم جهادهم ضد الروس، وإعانتهم لطالبان على إنشاء دولة الإسلام هناك، ولكن تهور بعض قياداتها وتعجلهم قطف الثمار عجل بسقوط دولتهم الناشئة، وقد كنا دهورا نحلم بأرض لنقيم عليها ديننا، ونتعبد لله فيها كما نشاء، ومنها نصنع العلماء والدعاة والمقاتلين الأشداء، إلا أننا في أفغانستان فشلنا في ذلك لأسباب عدة وأولها هلامية الهدف.

فأولا يجب علينا تغيير أهدافنا ثم وضع الاستراتيجيات والسياسات التي نحقق من خلالها هذه الأهداف.

فماهي الأهداف التي ستقام عليها دولتنا من وجهة نظركم.

تطلع أبو بكر للحضور، ليستمع للآراء فقال أحدهم: الهدف هو القضاء على الرافضة والأمريكان، وإنهاك قوى الغرب.

رد عليه أبو بكر البغدادي: وهو نفسه هدف القاعدة، وهو هدف سامي، وغاية الجميع يتمناها ولكن أين الدولة هنا، مجموعة من العصابات تقتل هنا، وتغتال هنا، وتفجيرات هنا، ثم هنا، وليس بمثل هذا تقام الدول.

فقال آخر: نقيم شرع الله، هذه الغاية التي من أجلها تبذل الدماء والأموال.

قال أبو بكر البغدادي: وكيف ذاك، وهل الغرب سيسمح لك بضعفك هذا أن تنل ما تريد، وأين ستطبق هذه الشريعة؟

احتار الموجودون بالقاعة، وتطلع الجميع لأبي بكر البغدادي والذي ابتسم قائلا:

لم يخطئ الأخوة في كلماتهم، ما أردت أن أقوله، أنه يجب أن يكون هناك دولة ذات شوكة أولا، لها أرض يجتمع عليها أفرادها، ولا نتورط في عمليات خارجها، نقيم شرع الله فيها، ندرس العلوم، ونخلق جيلا جديدا من المجاهدين، ليس فقط في ساحات الحرب، بل في المعامل، والصناعات

والزراعات، والتكتيكات العسكرية الحديثة وليست كسابق الأمر بدائية، نريد دولة، أو بمعنى أدق حضارة.

تطلع أبو بكر للجميع وقد بدت على ملامحهم الاهتمام الشديد لما يقول فأردف قائلا: هناك بعض القرارات التي ستتخذ آجلا لتنفيذ ما أشرت إليه منذ قليل، فلتنفيذها وتحقيقها خطة أخرى، وظروف أخرى، أرجو منكم إبداء آرائكم لما سأقوله.

أولها: يجب الانفصال عن تنظيم القاعدة، هذا الانفصال سنأجله لحين إعلان الخلافة الإسلامية في العراق والشام.

- الخلافة؟!!!!!

- نعم الخلافة الإسلامية، فلن تقوم الأمة إلا بتوحيد الله، وتوحيد صفوفها، فتوحيد الله وتوحيد الأمة صنوان، وليس لدولة أن تنضم لتنظيم مشتت الأهداف، والغايات، كما أن أعدادنا ليست بالكثيرة التي تقام بمثله.

إنشاء دولة حقيقية هدف سامي، ولكن إعلان خلافة إسلامية وهدم حدود سايكس بيكو فبهذا سنصيب المحز، ونضرب أكثر من طائر بنفس الحجر.

- وكيف ذلك؟

- كما سبق أنه بهذا سنقوم بتوحيد الأمة تحت رايتنا، وهناك أمر آخر أننا في قلة وبحاجة إلى جنود، فكيف لنا بجذب الشباب المسلم إلا بغاية كتلك، فالمسلم الغربي أو حتى العربي ما الدافع الذي سيجعله يترك بلاده وأهله ليأتي معنا هنا، وينعتق من جبنه ويتحدى نوازع الشح من نفسه، وحتى المجاهدين فهم فرق وأحزاب، هدف كهذا سيجعلهم يوجهون وجوههم شطر راياتنا.

بدا الإعجاب في وجوه المحيطين بأبي بكر البغدادي والذي أكمل كلامه:

ثاني الأمور التي أريد أن أتكلم عليها: تغيير القيادات العسكرية بوزارة الحرب، وهذه مهمة وزير الحرب، بحيث لا يتولاها سوى من سبق له خبرة عسكرية، خصوصا من العجم.

- العجم؟!!!!!

- نعم العجم، فهم أنشط في العمل، وأدراهم بوسائل الحرب الحديثة، وأكثرهم خبرة باستراتيجيات دول الغرب في الحروب.

ثالثًا: عدم الظهور الإعلامي، خصوصا لي ولوزير الحرب، وإنشاء جهاز إعلامي محترف، من مخرجين ومصورين وخبراء تكنولوجيين محترفين جدا، وتعيين متحدث إعلامي باسم دولتنا، بحيث لا يتحدث باسمنا كل من هب ودب.

رابعًا: صناعة جهاز مخابرات حقيقي، فقديما قالوا: خير وسيلة للدفاع الهجوم، وبعد اغتيال قاداتنا غدرا، مما يدل على اختراق دولتنا، فيجب صنع جهاز مخابرات أيضا يخترق الدول التي بيننا وبينهم عداوة، وأيضا يحمي دولتنا من الاختراقات.

خامسا: تفعيل دور بيت المال، وإنشاء عملات خاصة للدولة الإسلامية، وجبي الزكوات، والصدقات لها.

سادسا: تطوير التعليم، والصحة، ورصف الطرق، و....

قاطعه أحدهم: ما الذي تتكلم عنه يا أبا بكر، كل ما تقول به أحلام بعيدة المنال، ونحن في مثل هذه الصحراء، لا نجد قوت يومنا، ونتلظى من حر الصحراء، ونشرب المياه العكرة المالحة، فأين لنا بكل ما تحلم به في ظل

حالنا هذا، قراءة الواقع ومعرفة الإمكانيات والعمل على أساسا خير من الرسم على الرمال.

نظر إليه أبو بكر نظرة حادة انكمش على إثرها المتكلم في مقعده فقد أدرك مدى خطأه بمقاطعة أبي بكر البغدادي.

والذي قال: لم أقل أننا سننفذ كل هذا الآن، ولما أقل أن ما قلته كلام نهائي، فمجلس الشورى القرار بيده، كل ما أريده -لو تمت الموافقة على الأهداف السابقة- هو وضع خطط زمنية لتنفيذ هذه الأهداف، وكل منا سيتولى ملف من هذه الملفات، وخلال عام على حد أقصى، سيكون هناك برامج لكل ما ذكرت، سنصنع دولة خلافة الإسلام على منهاج النبوة.

ثم صمت قليلا قبل أن يردف قائلا: سنصنع بإذن الله حضارة يوتوبيا على منهاج النبوة.

وأعلن الجميع موافقتهم على ما قاله أبو بكر البغدادي، فمثله لا يخالَف.

****

تأريخ: 65 هجريا.

المكان: كربلاء... العراق

- (أيتها الأرواح إجلالا قفي وناشدي المختار بن الثقفي...

يا أيها المختار قد أخذت الثأر)

جلس المختار الثقفي في مجلسه الذي ليس به موضع قدم من شدة الازدحام يستمع لهذا الشاعر، في خيلاء وتيه وقد انتفخت أوداجه، فأخيرا قد تحقق حلمه، لم يرد أن يكون ذكره في كتب التاريخ بأنه فقط أحد سادات ثقيف، ولد ومات وفقط، أو أنه فقط ابن لأحد قادة عمر بن الخطاب في الحروب، أراد أن يكتب لنفسه مجدا لم يُكتب لأحد من قومه قبله ولا حتى بعده، لطالما حاول أن يتقرب لبني أمية عندما سطع نجمهم، سعى لذلك بكل الطرق، لدرجة أنه قد أشار على عمه سعد بن مسعود الثقفي بالقبض على الحسن بن علي وتقديمه لمعاوية بن أبي سفيان، إلا أن الأمويين لم يبلغوه ما تمنى، وبعد أفول نجمهم بموت يزيد بن معاوية، وسطوع نجم آل البيت والذي لطالما مقتهم، ولكن وهل في سبيل تحقيق الغاية كره أو حب، ليس لهذين المصطلحين وجود في عالم مختار الثقفي، كان في حياته مصطلحين لا

ثالث لهما إما نجاح أو فشل، انقلب عداؤه الشديد لآل البيت إلى ادعاء حبهم، حاول التقرب لعبد الله بن الزبير وإظهار الولاء له، إلا أن الأخير كان من الفطنة التي أدرك بها أن حلم المختار أكبر من مجرد التودد لدولته، وأن مثله لا يرضى بما دون الخلافة، فانصرف عنه ابن الزبير وأعرض، فما كان من المختار إلا الهجرة إلى الكوفة، وبعد سقوط كل الحبال التي حاول الرقص عليها، وبعد خسارة تعقب خسارة، لم يتبق معه سوى آخر ورقة ليلعب بها، هي نفسها الورقة الأخيرة لبني أمية، ورقة أثبتت دائما نجاحها، بها ساد الأمويون، وبها سيسود هو، ألا وهي الثأر لدماء الشهداء، شهيد أمس كان عثمان بن عفان، وشهيد اليوم الحسين، وهنا بدأ في حمل لواء "يا لثارات الحسين"، ولكن بقي منغص ينغص عليه مضجعه، ويوحي إليه باحتمالية فشل مخططه، فبني أمية كان لهم الحق في الثأر لدم عثمان لقرابتهم له، فما علاقته هو بالحسين، وما يتميز هو به عن ابن الزبير وهو أقرب إلى الحسين منه، فأوحى إليه شيطانه وقتها بأنه يشيع وسط الناس أن من أوصى له بذلك هو محمد بن علي بن أبي طالب، أخو الحسين والمشهور بمحمد

بن الحنفية نسبة لأمه، وأعانه على تنفيذ مخططه، الهالة التي كانت لمحمد بن الحنفية في نفوس المسلمين، أولًا: لأنه ابن علي بن أبي طالب، وأخو الحسن والحسين، ثانيًا لموقفه من الفتن واعتزاله إياها، ثالثا: كان هناك شبه إجماع على مكانته في نفوس كل المسلمين بما فيهم بنو أمية، وأكثر من هذا كله ذلك الغموض الذي كان يحيط شخصية محمد بن الحنفية الذي جعل من ادعاءات المختار الثقفي عنه تلاقي مصداقية عند العوام، حَبَك المختار خدعته الجهنمية وزوّر قصته، وبدأ بعرضها في شوارع الكوفة، وقد دانت له أراضي العراق، وقد حقق وعده بالانتقام من كثير من قتلة الحسين، قد بدأ فعليا في تحقيق حلمه، لا يهمه نجاح معركته القادمة ضد عبد الله ومصعب ابني الزبير بن العوام أو خسارتها، قد نجح الآن في أنه قد خلّد اسمه في التاريخ، سيظل التاريخ يذكره ولو باللعنات.

- "يا لثارات الحسين"

أخذ الجمع الذي كان يشهد احتفال المختار الثقفي بالثأر من قتلة الحسين يرددها بقوة، حتى أوقفت هتافاتهم إشارة من يد المختار الثقفي والذي قال بصوته الندي

القوي: واليوم وبعد انتقامنا لسيدنا الحسين عليه وعلى آل بيت المصطفى الصلاة والسلام، فإن الله قد أوحى إلىّ أمس برؤيا عظيمة، فرأيت فيما يرى النائم، أننا مجتمعون في مثل هذا الجمع، وروح القدس يقف وسط الحضور وقد سدت أجنحته الأفق، إلا أنه كان يقف يبكي ويصرخ ويضرب ظهره بالسلاسل حتى أدماها، فاقتربت منه وقلت: بأبي أنت وأمي يا رسول الله الروح الأمين، ما بالك تفعل ذلك.

فقال لي وهو ينوح: هذا كفارة على تقاعسنا نحن معشر الملائكة عن نصرة الحسين يوم كربلاء.

فقلت له: ونحن أولى بهذه الكفارة.

وبعدها استيقظت على أذان الفجر، وإنها لرؤيا حق ووحي من الله تعالى، وقد وعدتكم من قبل بعلو راياتنا، وزوال ملك بني أمية، وقد كان بموت يزيد بن معاوية وحرب طاحنة بين ابن الزبير وابن مروان، سيهلكان فيها، ولن يتبقى غيرنا نحكم الأرض ببركة آل البيت.

وهنا هتف الجميع وبصوت عال: الله أكبر... اللهم صل على محمد وعلى آل بيته وسلم.

وأردف المختار قائلا: الملائكة ليسوا بأفضل منا، من اليوم يوم ذكرى قتل الإمام، ونكوصنا عن نصرته، فلتخرج النادبات يندبن الحسين في شوارع الكوفة، هذه سنة الملائكة وسنتنا من بعدهم.

لم يكن المختار الثقفي يدري أن بأمره هذا قد شرع سنة سيستن بها الناس بعده وأن الأمر سيتطور كل هذا التطور.

****

وتمر القرون والأعوام وكأني الآن بمعز الدولة البويهية عندما أصدر أوامره بإغلاق الأسواق في هذا اليوم وإخراج النساء يلطمن علي وجوههن حزناً لمقتل الحسين، فقد سارت النادبات في شوارع بغداد، وقد سودن وجوههن وحللن شعورهن ومزقن ثيابهن وهن يلطمن وجوههن ويرددن مرثية حزينة.

وكأني بعهد الدولة الصفوية بفارس والتي أضافت الكثير من الطقوس لهذا اليوم المشهود، وقد استمدت غالب طقوسها من طقوس مسيحية إيطالية يعذب بها الشخص نفسه ليحاكي بذلك "الآلام التي عانى منها السيد المسيح" عليه السلام..

ثم أخذ الأمر يمر بأطوار عدة ومن ثقافة الفرس للثقافة المصرية الفاطمية لثقافة التركمان الآذريين.

حتى صار مآل الأمر لما هو عليه الآن من ضرب بالسلاسل الحديدية على الظهر والسكاكين على الرأس، وتقييد أيدي النساء والزحف على ركبهم.

****

لم تكن هذه الأحداث بمنأى عن ثقافة حيدر وعقله، ذلك البائع الشاب البسيط الذي يعين والده يونس على بيع ملصقات بها التواشيح الدينية، وصور أئمة آل البيت وثمين أقوالهم...

- حيدر... حيدر... إلى أين يا بني.

قالها يونس وهو يراقب حيدر والذي بدوره كان يعدو خلف تلك الفتاة، تاركا والده خلف ظهره.

ابتسم يونس وهو يكمل عمله في ترتيب بضاعته، قائلا ولم تفارقه ابتسامته الساخرة: لا أدري ما نهاية ما تُقْدم عليه يا بني... انت تلعب بالنار.

ثم بدأ شريط من الذكريات يلوح أمام يونس... الاضطهاد الذي كانوا يعانونه في عهد صدام، كيف كانت شعائرهم تقام

سرا، ولو اكتشف أحدهم ما يفعلونه فإن الجحيم أقل ما يوصف به مآلهم، صلواتهم صيامهم حسينياتهم كلها كانت سرا، حتى أئمتهم ومراجعهم، كانوا يمارسون أنشطتهم في الخفاء الشديد، يتذكر يوم تولي الإمام المرجع السيستاني المرجعية، كان بمثابة يوم فتح لكل شيعي بالعراق وله شخصيا، فقد بارك له السيستاني زواجه من أمينة أم حيدر في إحدى الحسينيات السرية وقتها، وقد عقد قرانهما في الأربعين وعلى ما يعتقدون في دينهم: أن أي شاب تعرف على فتاة في ضرب المقامات وتزوجا كان من أفضل الزيجات، وباركها الله بحب الحسين.

لعل النبوءة صدقت فيهما، فرغم ضيق حالهم إلا أنهم يعيشون في سعادة بالغة، وقد من الله عليه فرزقه بالولد، يتذكر يونس فرحته يومها بابنه الأول، لدرجة أنه جرى به مسرعا يوم مولده للشيخ الإمام المرجع السيستاني ليبارك له ابنه ويحنكه فيفيض فيه من بركات علمه وتقواه، لم يحل أحد بين مقابلة يونس وطفله الذي لم يكمل دقائق على ولادته وبين مقابلة الإمام فالجميع يشهد ليونس بالدين والخلق والولاء للأئمة، رحب به الإمام المرجع وبارك له

فيما رزقه الله وتناول من يديه الطفل، وما إن اقترب من أذنه ليؤذن، حتى هدأ صراخ الطفل، وفوجئ الإمام المرجع بالتفات الوليد له، وتلك النظرة المتحدية التي وجّهها الطفل له، اصابته الرعدة من هذه النظرة، كيف لطفل حديث الولادة يلتفت وينظر مثل هذه النظرة، وسرعان ما دفع عن نفسه ذلك بأنها تخيلات وأوهام أو لعلها مصادفة ليس إلا، فأكمل أذانه وصلى على النبي صلى الله عليه وسلم وآل بيته وعلى الأئمة والمهدي عليه السلام، وحنكه، ثم التفت إلى يونس الذي كان يجلس في ركوع وخضوع لا يرفع رأسه في وجه الإمام المرجع كما جرت العادة، فقال له الإمام: يا يونس، ابنك هذا سيكون ذو شأن ببركة الأئمة، وإني قد أسميته حيدر...

انهمرت الدموع وقتها من عين يونس، وقال: ابني هذا خادمكم وقد نذرته أنا وأمه لذلك، وشرف له وأيما شرف أن من يسميه هو الإمام المرجع، وعندما يقضي الله على الملعون صدام ويظهر أئمتنا عليه، ستجدني وابني رهن إشارتكم.

ناول الإمام المرجع الطفل لأبيه وهو يقول: سيكون بالتأكيد ما قلت،...

رغم أن أسرة يونس قد ذاقت الضنك، وقد جاءهم الفقر من كل مكان وحل ضيفا بحياتهم، ولكن هذا لم يمنع يونس، من تعليم ولديه حيدر وأخته فاطمة، فقد كان يدري أن السيادة تتعلق بالعلم أولا، والمال ثانيا، وحيث أن الوصول للمال مع فقر الحال، مستحيل، إذن فلا سبيل سوى العلم، ومع تفوق حيدر في الدراسة ونبوغه، خصص يونس جزءا من قوته ورزقه لدراسة ولده والذي التحق الآن بكلية التجارة، إلا أنه وبعد هذه الأعوام بدأ يضجر ويشعر بالندم من تعليمه لحيدر، لم يعد حيدر الشاب المطيع بل صار متمردا دائم الاعتراض، والسخط على الوضع الذي آل إليه حالهم، ولو توقف على هذا الحال لهان الخطب، إلا أن اعتراض حيدر أصبح يطول الأئمة والحسينيات وغيرها، ولَكَمْ تمنى إذا احتد الخلاف بينه وبين ولده أن يصفعه على وجه أو يذيقه سوء العذاب؟!، إلا أن زوجته لطالما حالت بينه وبين ذاك، زوجته كانت الوحيدة القادرة على إطفاء نار غضبه.

- آهٍ يا حيدر... ما نهاية هذا الحب، إنه الحب المستحيل يا ولدي... ستوردنا المهالك بهذا العشق المحرم.. حرسك الله وآل البيت بأنوارهم.

قالها يونس وقد أخرج تلك الزفرة التعبة، واتبعها بذلك السعال الشديد من أثر الأتربة التي كانت تملأ صندوق بضاعته.

كان يتمنى أن يزوج حيدر، فبيتهم ليس بالصغير ولحيدر غرفة خاصة، ما المشكلة أن يتزوج فيها حيدر، فحيدر يتقن الكثير من الأعمال، من السهل عليه أن يجد عملا بعيدا عن إعانة والده، خصوصا وأن هذا العام هو عامه الأخير في دراسته الجامعية، كان يعلم أن هذه الأماني ما هي إلا أضغاث أحلام، فلحيدر أحلاما أخرى، إلا أنها أحلام من نار، فقد كان يعلم جيدا أن حيدر ابنه يعشق زهراء، والموت كان أهون من هذا العشق....

****

- زهراء... انتظري

قالها حيدر وهو يلهث ويلتقط أنفاسه إثر لحاقه بزهراء، والتي ألتفت إليه قائلة في ضيق:

- حيدر !!! مرة أخرى يا حيدر!!! لقد حذرتك، المرة القادمة سوف أشتك...

- لن أضايقك، فقط اقرئي هذه...

ثم أخرج من جيبه قصاصة من ورق وناولها إياها، ثم أعطاها ظهره، وانصرف مبتعدا.

ألف سؤال وسؤال دار وقتها بفلك عقله، هل تسرّع؟ هل جاوز بما فعل حده؟ وما هو الحد الذي تجاوزه، ماذا سيحدث بعد هذه الخطوة؟ هل خسرها؟ خسرها؟!!! وهل كسب قلبها يوما!!!

ما ذنبه هو؟! عقله وقلبه أورداه المهالك، لماذا لا يكون كأقرانه، أسهل ما يكون أن يقترب ممن تشبه حاله، والكثيرات يتمنونه، نعم هذا ليس بذنبه، إنه قلبه وعقله، وتلك الظروف التي جعلته يجد نفسه في مجتمع مشبع بثقافات عدة وأجناس كثر وديانات ومذاهب كثيرة، تلك الظروف التي جعلته يجد في نفسه اختلافا كبيرا عن أقرانه، لم يهوى اللعب كغيره، كانت القراءة شغله الشاغل، كانت ورقة جريدة ملقاة أرضا كفيلة للفت انتباهه، في حين لا يعر انتباهه للحسناوات مثلا، كانت

نفسه الشاعرية شديدة التأثر السريع بمنظر طبيعي خلاب، أو رؤية طفل يبكي، أو حتى نغمة موسيقى من ألحان كاظم، كان يهوى الرسم وكتابة القصص القصيرة والشعر بالفصحى أو اللهجة العراقية، كان شديد التأمل طويل الصمت، كان يعشق تلك السفرات مع والده حول مدن العراق للتجارة، فيكتشف كل جديد، وقديما قالوا: في السفر سبع فوائد، كل هواياته ورغباته لم تمنع تفوقه الدراسي، أو تشغله عن غايته الأولى، أن يصبح شيئا كبيرا، تشير إليه أصابع الجميع إعجابا وتقديرا لما آل إليه، كانت هذه أحلامه وهواياته ورغباته، حتى طلعت شمسها على كونه، زهراء تلك البتول الحصان الرزان، أجمل ما وقعت عليها عيناه في الكون كله، كانت أجمل في نظره من أوتار القيثارة، ومن قطرات المطر، ومن الثلوج المتساقطة أعالي جبال كردستان، أجمل قصيدة قرأها، وأروع من كل ما قرأه من روايات، كانت زهراء في خيال حيدر تكاد تشبه سيمراميس، أو كما كانوا يطلقون عليها قديما رسمي رمات، كانت أسطورته كما كانت رسمي رمات أسطورة مينونيس، إنها زهراء...

وبدأت ذاكرته في استرجاع أول لقاء بينهما....

لمحها يوما في إحدى الحسينيات، وكان وقتها يعين والده في عمله، وما إن عانقتها عيناه حتى خفق قلبه بين ضلوعه عندها، يتذكر وقتها دهشته وتصلب جسده، لقد ظن أن ما يراه إحدى دعابات خياله له، هذه هي فتاة أحلامه، بكل تفاصيلها، وكعادته الجريئة ذهب مسرعا إليها ولم يعبأ بالفتيات التي أحطن بها، ووقف أمامها قائلا وهو يحاول جمع الألفاظ على لسانه: أنا أحبك.. ولا أريد سوى الارتباط بك.

لا زال يتذكر وقع المفاجأة التي بدت على مُحيّاها، واحمرار بياض بشرتها خجلا، في حين صرخت إحدى المحيطات بها قائلة له: هل جننت يا هذا... هل تتعرض لابنة الإمام المرجع.

هنا علم أن أحلامه تنهار أمامه، فبينهما بُعد السماء عن الأرض.

وعلى الجانب الآخر وقتها....

- إنه لجريء جدا...

قالتها زهراء، وقد تعالت ضحكات صديقاتها، في حين قالت إحداهن: اخفضن أصواتكن، وسارعت بغلق الأبواب والنوافذ.

- **جريء!!! هذا مجنون، بالتأكيد.**

قالتها إحداهن، في حين قالت الأخرى:

- **اسمه حيدر يونس، طالب بكلية التجارة، أبوه أحد مريدي المرجع الإمام...**

ثم ابتسمت ابتسامة ساخرة وهي توجه الكلام لزهراء: الواضح أن المسكين قد عشقك كما يقولون من النظرة الأولى.

تعالت ضحكاتهم في حين قالت زهراء: عشق!!! وكيف لمثل هذا أن يأمل في عشق مثلي...

صمتت قليلا ثم أردفت قائلة: لا أنكر وسامته وجرأته... ولكنه لا يناسبني... هل للثرى أن يأمل في الاقتراب من الثريا؟!!! وكيف للقمر أن يعشق حفنة من التراب، وهل تنمو الأزهار في الصحراء؟!!!

- **فما الحل معه إذن؟**

- **لا شيء دعيه يتلظى بنار العشق بمفرده...**

وتعالت الضحكات الساخرة

****

لم يكن ما حدث في علم حيدر... ولذا كانت هذه المحاولة الأخيرة اليائسة منه، ردا على تجاهلها له هذه الفترة، أن يعطيها رسالة يبدي فيها حقيق مشاعره، ويكشف لها ما تحمله آماله وأحلامه، وأن لا تغتر بحاله الآن، فهو يحمل بين جنبيه نفسا تواقة للنجاح وسيصير يوما شيئا كبيرا ليليق بها، وأنه لا ينتظر منها سوى أن تبادله إحساسه، وأن تقول لها كلمة تحييه بها، فقط كلمة تجعله يملك العالم كله، كلمة لا يحتاج سواها ليخلق أكوانا وأزمانا لهما، يلامس بها السماء ويخترق بها الحجب، فقط كلمة...

ذكّرها بأنه لطالما وقّر والدها الإمام المرجع وأنه كوالده من مريديه، وأن والدها كمرجع إمام لن يقف ضد مشاعره، فالحب هو مذهب آل البيت، وقد كان علي عليه السلام يحب فاطمة عليها السلام، وما حرم الله الحب بينهما.

وأن حبه لها حب طاهر لا يشوبه شيء سوى الصفاء والنقاء، وأنه لطالما حلم بها، ولما رآها فكأنه يعرفها منذ

قديم الأزل، وكأن أرواحهما التقت يوما في عالم الذر، وأن حياته بدأت برؤيتها ونهايته بإعراضها عنه.

سطّر حيدر هذه الكلمات وغيرها، في آخر محاولة له معها، فهو لم يجد منها سوى الازدراء ونظرة التعالي، وقد كربه الأمر، وفطر قلبه، وإثر ذلك بدأ يلحظ الجميع الوجوم الذي أصاب حيدر، وتلك الحالة التي لم يألفوه عليها، فقد أعرض عن الطعام إلا من لقيمات قليلة يقمن صلبه، وزاد انطواؤه، لم يعد ذلك الشاب الطموح النشيط، يظل أياما في غرفته، منعزل عن الجميع، وقد شعث رأسه ونحل جسده، وطالت لحيته، ومع محاولة والدته وشقيقته فاطمة لمعرفة ما ألمّ به، حتى صرح لهم بمشاعره اتجاه زهراء.

وكانت المفاجأة من نصيب الجميع وخصوصا والده، والذي ما إن سمع بالخبر حتى جلس مع ابنه، محاولا أن يثنيه عن مثل هذه المشاعر، مذكرا إياه العواقب الوخيمة تجاه تلك المشاعر، ولكنه كان يدري أن مثل هذا الكلام ما هو إلا محاولة مستحيلة منه فهو يعرف ابنه جيدا، ويعرف أيضا أن مشاعره ليست بيديه.

******

- يونس... الإمام المرجع يريدك الآن على وجه السرعة.

قالها أحد الحراس الموكلين بحماية المرجع الإمام، ليونس وقد كان وابنه يبيعون بضاعتهم أمام مسجد كربلاء، فنهض حيدر للحارس وهو يقول بدهشة: وفي أي شيء يريد أبي الآن؟!

- لا أدري... وليس لي أن أسأل، هيا اسرع يا يونس ولا تتلكأ، وإلا...

- وإلا ماذا أيها...

قالها حيدر وهو ينقض على الحارس، إلا إن يونس قد استوقفه وهو يقول:

- هل جننت يا حيدر، للمرجع الإمام أن يأمر، وليس لنا من أمره مناص.

ثم التفت للحارس، قائلا: اسبقني يا بني وأنا قادم خلفك.

بدأ التردد على الحارس، إلا إنه سرعان ما انسحب من المشهد.

- هل فعلت شيء يا حيدر، هل تجاوزت في حق الإمام أو ابنته؟!!!

- لا أدري يا أبي لا أدري، ولكني لم أفعل شيئًا مشينًا.

- ادع الله أن يكون الأمر بعيدًا عنك، وإلا ستكون نهايتنا.

قالها يونس وهو يبتعد بخطواته الثقيلة عن حيدر متجها للمسجد مقر الإمام المرجع.

****

المكان: صحراء العراق

في مكان مجهول بالصحراء، ولعله نفس المكان السابق الذي اجتمع فيه مجلس شورى دولة الإسلام في العراق، إلا أنه ثمة اختلاف كبير في المشهد، لم يعد الاجتماع في تلك الخيمة البدائية، بل كان المكان في هذا الوقت شديد التطوير، إذا نظر إليه الناظر حسبه مبنى لمخابرات إحدى الدول المتطورة، فشاشات المراقبة تملأ المكان، وهناك الخريطة التفصيلية لدولة العراق والتي تتوسط إحدى جوانب المكان، والطاولة شديدة التطور التي تعمل بنظام اللمس، والأبواب الإلكترونية، والحراسة المشددة على المكان، كل هذا لا يدع مجالا للشك على أن هذا المبنى غير المناسب لتلك الصحراء، هو أبرز علامة على تطور تلك العصابة.

حول الطاولة كان يجلس زعيم التنظيم وأعضاء مجلس شورى الدولة، وقد اختفت وجوه كانت بالأمس وظهرت

وجوه جديدة، كان من أبرزها ذلك الرجل حاد النظرات والذي كان يجلس بجوار مقعد أبي بكر، ويرتدي زيا عسكريا مختلفا بذلك عن جميع الحضور، وما إن بدأ هذا الرجل بالكلام حتى صمت جميع الحضور واستسلمت أسماعهم لكلماته وصوته العميق: قد طلبت من زعيمنا القائد بعقد هذا الاجتماع الطارئ، لسوء الوضع الآن في دولتنا، أنباء قد تعصف بكل الانتصارات التي آلت إلينا الآن.

صمت الرجل وأخذ يتفحص الوجوه التي بدت عليها الدهشة، ثم التفت إلى أبي بكر البغدادي الذي قال مبتسمًا: اشرح الوضع بكامله يا حجي، ودع لنا التقييم.

- بعد تلك الثورات العلمانية في غالب البلاد العربية، أو كما يسمونها ثورة الربيع العربي، شعبيتنا وسط شباب التيارات الإسلامية بدأت في الانخفاض خصوصا، مع احتمالية تمكن بعض تلك التيارات المتأسلمة من الوصول للحكم كما في تونس، ومصر مثلا، فما الذي سيدفع الشاب المسلم لبذل الدماء وهو قد يحقق حلمه في إنشاء دولة إسلامية بطرق سلمية كالمظاهرات والاحتجاجات.

قاطعه أحد الحضور قائلا: لو سمحت لي.... لا أظن أن يقع ما تقول، فالأغلب من الشباب المسلم لا يقنع بمثل هذه الطرق، كما أنهم يَكْفرون بالديموقراطية وغيرها من نظم الكفر.

- الواضح أنك شيخنا الفاضل، لا تتابع المستجدات، فهناك مراجعات كثيرة تقوم بها الحركات الإسلامية، تدعو فيها الشباب لممارسة هذه الأنظمة الكفرية، بدعوى أنها لا تخالف الإسلام؛ ولذا ستجد دعوتهم صدى في نفوس الشباب، فهي في كل الأحوال مهما كانت سلبياتها المستقرة في نفوسهم إلا أنها أخف وطأة من الحرب والدماء والهجرة.
- الكل يعلم أن جيوش تلك الدول، وقوى الكفر كأمريكا وإسرائيل ستحول بينهم وبين ما يشتهون، فلن تسمح بإنشاء دولة إسلامية بحال.
- قد يكون كلامك صحيحًا شيخنا، ولكن حتى ذلك الحين يجب علينا أن نعمل وبكل جد، فلو سقطت الأنظمة المتأسلمة كنا نحن الملاذ الوحيد لكل الشباب الإسلامي، وإلا فيجب علينا أن يكون لنا دور في تلك الثورات.

- دور؟!!! هل جننت يا حجي، مالنا وتلك الكفريات؟!!! هل سندع الجهاد في سبيل الله وننضم للأنظمة الوضعية؟

- لم أقل هذا، ولكن لما لا نحول الصراع من أيدولوجيات وضعية، لجهاد في سبيل الله؟

- وكيف ذاك؟

- كيفية صنع هذا، ينقلنا للنقطة الثانية التي أردت أن أتكلم فيها، وهو الوضع في سوريا، نفوس الأخوة المجاهدين معنا، تغلي مما يحدث في سوريا، وأنفسهم تتوق للجهاد ضد ذلك المرتد المجرم بشار الأسد، فقد سفك الدماء واستباح النساء، وقام بمجازر لم تقم بها حتى إسرائيل بحق المسلمين هناك، ليس هذا فقط ما جعل الأخوة يسعون للجهاد هناك، بل كما تعلمون قد صح في الأثر عن سلمة بن نفيل الكندي قال: كنت جالسا عند رسول الله صلى الله عليه و سلم فقال رجل يا رسول الله أذال الناس الخيل ووضعوا السلاح وقالوا لا جهاد قد وضعت الحرب أوزارها فأقبل رسول الله صلى الله عليه و سلم بوجهه وقال: «كذبوا الآن الآن

جاء القتال ولا يزال من أمتي أمة يقاتلون على الحق ويزيغ الله لهم قلوب أقوام ويرزقهم منهم حتى تقوم الساعة وحتى يأتي وعد الله والخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة وهو يوحي إلي أني مقبوض غير ملبث وأنتم تتبعوني أفنادا يضرب بعضكم رقاب بعض وعقر دار المؤمنين الشام».

فالشام بالنسبة للأخوة المجاهدين هي دار تبشير بثبوت الإيمان، وهي الغاية التي ترتجى من الجهاد عند الجميع.

- يا حجي ماذا تريد قوله؟

رجع حجي بظهره للوراء، وصمت صمتا لفت به الأنظار ثم قال: أقترح، بفتح جبهة للقتال في سوريا، ونحول الصراع هناك من صراع سياسي عفن، لصراع بين حق وباطل، إسلام وكفر، وبهذا نصطاد أكثر من طائر بضربة واحدة، نحارب الكفر والظلم وندفع عن أهل سوريا ظلم حاكمهم، ونشارك في ثورات الربيع العربي مشاركة قوية، فلا يهمش دورنا في هذه المرحلة، وبذلك تتطلع إلينا نفوس الشباب الإسلامي في سائر البلاد، وأخيرا نسكن

نفوس الأخوة المجاهدين معنا، ونستعيد نشاطهم الجهادي....

صمت قليلا ثم أردف: ونزيل حدود سايكس بيكو بين العراق وسوريا، فبذلك نأمن على حدودنا تجاه سوريا.

- ألا ترى يا حجي، أن الوضع في سوريا لا زال غير واضح بالنسبة إلينا، وأنه يجب علينا التريث، فلا زالت حربنا في العراق على أشدها، ولم نحسم منها شيء واضح.

كان أبو بكر البغدادي يراقب نقاش أعضاء مجلس الشورى مع حجي، وكعادته يستمع باهتمام للنقاش الدائر من حوله، ثم يبدي رأيه وترجيحه بين الآراء، فقد صار قرار مجلس الشورى استشاري وليس إلزامي كما كان مع من سبقه، وجد صعوبة ليكون كذلك، فقد كان الأعضاء الأول في المجلس عائق أمامه لتحقيق حلمه، ببناء دولة الخلافة على منهاج النبوة، ولذا كان لزاما عليه تجديد دماء المجلس بمجموعة جديدة لديها نفس أفكاره وأهدافه لا سيما من الشباب المتخصصين، فلكل نظام رجاله، ورجال أبي عمر يتناسبون مع أفكاره، فهو في حاجة

لرجال يتناسبون أيضا مع أفكاره هو، وقد عثر على بغيته بهذه المجموعة الرائعة من الخبراء أصحاب نفس الحلم، والنقاش السابق خير دليل على ذلك، لم يرع انتباها لتفاصيل النقاش على قدر تركيزه على عقليات وأفكار المناقشين، فها هو أبو عبد الرحمن البيلاوي صاحب سجنه ورفيق دربه، وقد ولاه رئاسة المجلس العسكري، لشدة خبرته في المجال العسكري، وجرأته في القتال.

عقله وقوة أبي عبد الرحمن، سبيل الوصول للحلم، إلا أن هناك ما ينقصه، فهو لا يجد تلك المعارضة القوية داخل أفراد التنظيم، كان يتمنى وجود معارض قوي لآرائه داخل مجلس الشورى، كما كان هو لأبي عمر البغدادي من قبل، فبمثل وجود هذا العقل، يقل الخطأ، ويصوب إن وقع، علم وقتها لماذا ضمه أبو عمر لمجلس الشورى رغم مخالفته الدائمة لسياسته.

اكتمل البنيان بثالثة الأثاف، عندما ظهر أبو بلال المشهداني، سمير نايل، أو كما يطلقون عليه حجي بكر، منذ انضمامه للتنظيم وهو محط لنظر الجميع، المحب له والمعارض لوجوده، حجي بكر لم يكن مرحب بوجوده

داخل التنظيم من الغالب، وذلك لأنه كان ضابطا بالجيش العراقي البعثي، والجميع يعلم بحرب هذا النظام لكل ما هو إسلامي، كانت ثمة ريبة في القلوب اتجاه حجي، ظنه البعض جاسوسًا، وظنه آخرون معيدا للمجد البعثي في العراق، إلا أن تأييد أبي بكر له وتقديمه على غيره حتى صار يمينه الذي يعتمد عليها، جعل الجميع يتقبل الأمر.

لأبي بكر البغدادي أسباب كثيرة لضم حجي بكر، أولها ذكاء حجي الشديد، ثم خبرته العسكرية الكبيرة، ودرايته الواسعة بالأراضي العراقية، وأنواع الأسلحة المختلفة، كما أن استراتيجياته العسكرية تختلف عن الاستراتيجيات للجماعات الجهادية كلها، كل هذا جعلت من حجي بكر الرجل الثاني بالدولة، والمستشار الأول لأبي بكر، وجلعت أبو بكر البغدادي يوليه وزارة التصنيع العسكري بدولته، رغم اعتراض الكثير من أعضاء مجلس الشورى.

وقد أطلق أبو بكر يد حجي في ضم خيرة ضباط النظام البعثي، بعد إعلان توبتهم من هذا النظام الكفري، وتدريسهم صحيح العقيدة، ومن الفقه ما يصححون به عباداتهم، وبجد غير مسبوق، وهمة متطلعة، وقع اختيار

حجي على اثنين من الضباط القدامى ذوي الخبرة فضمهم للمجلس العسكري وهم: أبو أيمن العراقي، وأبو عمر قرداش التركماني.

انتزع أبا بكر من أفكاره حدةُ النقاش، إلا أن نحنحته، جعلت الجميع يلوذ بالصمت، وبدأ أبو بكر بالكلام:

أجدت يا حجي في وصف الوضع، بمنتهى الدقة وهذا عهدي بك، أما تخوف صديقي عدنان أبو عبد الرحمن قائدنا العسكري، فهو في محله، الوضع في سوريا فعلا لا يزال مجهولا، فلا ندري موقف الدول الغربية من تلك المجازر، فقد تجد في ذلك تسويغا لتدخل عسكري قوي، لا نقدر في هذه الفترة على مواجهته، ودرايتنا بسوريا ليست كدرايتنا بالعراق، ولكن في الوقت نفسه لا نستطيع إغفال ما يحدث هناك كما قال حجي، الأمر فعلا محير جدا، شعبيتنا تنخفض الآن بين مجاهدينا، فنحتاج لضربة تعيد وجودنا مرة أخرى وسط التيارات المجاهدة أولا.

- فما الحل إذن يا إمام؟

لم يُجب أبو بكر، بل أخذ يفكر وهو يداعب لحيته، إلى أن قال:

- لا مناص من إرسال كتيبة من الجند في سوريا فترفع راية الجهاد هناك، ولكن كتيبة صغيرة، تكون كمستكشف لنا عن تلك الأرض والوضع هناك، لها مسمى مختلف عن مسمى الدولة الإسلامية.

- ولماذا اسم مختلف؟

أجاب حجي على طارح السؤال، وقد فطن لمراد أبي بكر:

مراد الإمام هنا أنه لو تم لا قدر الله القضاء على هذه الكتيبة، أو كان إرسالها لأي سبب آخر خطأ، فلا يلحق ذلك بدولتنا البادئة، ولو كان النصر نعلن وقتها أنها جبهة من جبهاتنا في سوريا.

ابتسم أبو بكر ابتسامة واسعة، وبدت على مُحيّاه نظرات الإعجاب لحجي، فقد أحسن صنعا باختيار مثله.

قال أبو عبد الرحمن البيلاوي: ولك في هذا سلف، موسى بن نصير في فتحه للأندلس، عندما أرسل كتيبة استكشافية للجزيرة الخضراء على رأسها طارق بن زياد، وأرى أن هذا هو أفضل الحلول المتاحة الآن، ولكن بقي سؤال، من نرسل ونحن في حاجة لجنودنا الآن هنا في

المعارك؟! فأعدادنا ليست بالكبيرة، والروافض يتربصون بنا الدوائر.

ساد الصمت، حتى قال أبو بكر: هل من أحد لديه أي اقتراحات بشأن هذا؟

تبادل الجميع النظرات لبعضهم البعض، فلم يكن عند أحدهم حلا لهذه المشكلة، قطع صمتهم صوت حجي الذي بدا عليه الحياء في الجواب: سيدي لو أذنت لي، فلدي اقتراح وأظنه في غاية الأهمية.

قال أبو بكر في لهفة على غير عادته: قل يا حجي فلا أظن الجواب إلا عندك.

قال حجي: أرى، منع أي عراقي، من الذهاب للجهاد هناك فهم قوام المجاهدين هنا، وأن يتوجه لسوريا السوريون فقط من المجاهدين معنا، فيسند إليهم مهمة استقطاب المجاهدين من أنحاء العالم لهم؛ وبهذا نضمن بقاء الهيكل العسكري لنا متماسكًا بالعراق.

- أحسنت يا حجي، لازلت على عهدي بك.

ثم التفت أبو بكر لأبي عبد الرحمن وتساءل: كم عدد الجنود السوريين عندنا.

ـ بضع آلاف.

ـ إذن، هؤلاء عدتنا في سوريا، وسأولِّي عليهم الأخ أبا محمد الجولاني.

امتعق وجه حجي، وبدا عليه التوتر والاستياء، في حين استحسن الباقي الاختيار، فمعروف أن الجولاني، من خيرة رجال الدولة، خلقا ودينا وقوة ودراية بالحرب وشئونها، وقد كان مقربا جدا من أبي بكر البغدادي، ولمهارته العالية في القتال كان شوكة في حلق الأمريكان فقد أحسن وأجاد في قتالهم، وألحق بهم هزائم عدة أيام الاحتلال، وقد ابتلي وابنه بالسجن في سجون سوريا لمدة ثلاثة أعوام، حتى صدر العفو عن المعتقلين السياسيين فأخرجوا منها، وما إن خرجوا حتى عاد للدولة مرة أخرى، يجاهد في صفوفها، كان الجميع يحب الجولاني أشد الحب، ليس فقط لما ذكر منذ قليل، بل أيضا لحسن خلقه وجليل سمته وعظيم دينه، وطيب عشرته ولين جانبه، كانوا يرونه خير بديل لحجي، الذي يختلف عنه في كثير من صفاته.

ـ ولماذا أبو محمد يا إمام؟

قالها حجي وقد بدا على مُحيّاه علامات الضجر والهم الشديد، فنظر إليه أبو بكر في حدة شديدة، فاستطرد حجي قائلا: معاذ الله أن أستنكر اختياركم، و.....

قاطعه أبو بكر:

- الجولاني، منذ خروجه من سجون النصيرية، وهو يلح ويرسل التقارير والالتماسات لإرسال قوات في سوريا، للجهاد هناك، ويشرح تصوراته لكيفية البدء هناك، لم أعطه وقتها جوابا شافيا، لخطورة الوضع وضرورة استشارتكم، ومما جعلني أقدمه لذلك أنه سبقك بالطرح نفسه في إرسال السوريين كطليعة لنا بالشام، وأخيرا اخترته لأنه منها وبهذا نقطع أي ريبة قد تنال هذه الجبهة وأهدافها.

- ورغم ذلك يا سيدي ألتمس منك إعادة النظر في الجولاني بالذات.

- ولماذا يا حجي؟ ماذا تنقم عليه؟

- لا أنقم عليه شيئا معاذ الله، فهو من خيرة رجالنا هنا، ولكن الجولاني لا يصلح لهذه المهمة.

- ولماذا؟

ـ الجولاني، ولاؤه الأول للقاعدة، وكما تعلم يا إمامنا أن علاقتنا بالقاعدة مجرد علاقة صورية، وما هي إلا أشهر معدودة ونعلن انفصالنا عنهم بمجرد إعلان الخلافة، كما اتفق مجلس الشورى من قبل، ولعل صدامًا يحدث بعدها بيننا وبينهم، فبأي فريق سيكون ولاء الجولاني؟

ـ يا حجي أمر الخلافة حسمناه، ولكن توقيته لا يزال بعيدًا، والجولاني وإن كان ولاؤه للقاعدة، فهذا لحبه الشديد للشيخ المجاهد أسامة بن لادن، وكلنا نشاركه هذا الحب، ولكن فكرة وتنظير القاعدة يختلف عن أفكار الجولاني؛ فهو أقرب لنا، وولاؤه مضمون لي، أنا على يقين من ذلك.

ـ يا سيدي، قديما قالوا الملك العقيم، ونفس الجولاني نفس متطلعة، ومثله لا يرضى إلا أن يكون زعيما، هذا التشوف يعضده حسن شخصيته وقوتها، وأخشى أن ينجذب الناس حوله، فإن نجح استغنى بذلك عنا، وأعلن انفصاله، خصوصا وأنه لم يزل رافضا بعد سياساتنا، من شدة وإثخان في قتل الكفرة والمرتدين.

- أراك يا حجي أبعدت النجعة، ولا أعرف لم كل هذا التحامل على الجولاني، فحسن خلقه وقوة شخصيته، وتشوفه للقيادة، كل هذا لنا وليس علينا، أما خلافه لنا في طريقة معاقبة الكفرة والمرتدين فمرجعه لرقة قلبه وإيثاره للرفق دون الشدة، وإلا فهو في ساحات الحرب أسد جسور، أما استغناؤه وانفصاله، فلا أظنها إلا وساوس شيطان، هذا رأيي، فما رأي أهل الشورى؟

أعلن جميع الحضور موافقتهم لأمير دولة العراق أبو بكر البغدادي، بتأمير الجولاني على المقاتلين السوريين المرسلين إلى سوريا، باستثناء حجي الذي اكتفى بمراقبة جميع الموجودين في صمت، وابتسامة هادئة مصطنعة يخفي بذلك تلك النار المتأججة في صدره، لأول مرة يخفق في إقناع مجلس الشورى برأيه، كانت الهزيمة الأولى له في هذا المجلس، إلا أنه كان على يقين، أن الجميع سيندم على عدم الأخذ بقوله، فقد خبر الجولاني، وعلم خبيأته، ثلاث سنوات في سجون نظام بشار ثم الإفراج عنه، لا تعني إلا شيئا واحدا، أن الجولاني ليس هو من يعرفه

الجميع، ولعل لهذا القرار المتخذ إعلان بنهاية عهد إمارة أبي بكر البغدادي وبداية لعهد جديد، لعله عهد الجولاني... ولذا فيجب عليه الاستعداد لمعركة أشد من كل المعارك السابقة...

معركة جهاد أنفسهم....

*****

المكان: كربلاء... العراق

- اجلس يا يونس... ولا تخف.
- العفو يا سيدنا ومولانا... لا أقدر على الجلوس بين يديكم.
- اجلس يا يونس... الامتثال من الأدب.

قالها الإمام المرجع بحزم، فلم يجد يونس بد من الجلوس، كان الرعب ظاهرا على يونس، وتلك الرعشة التي لازمته منذ دخوله عند الإمام.

- لن ترع يا يونس... الجميع هنا يعلم مدى حبك للأئمة ولآل بيت المصطفى.
- عليهم الصلاة والسلام.

- وأشهد لك جميل خدمتك لنا ولمزارات آل البيت أنت وزوجك، أما حيدر....

ما إن نطق بها الإمام حتى انكمش يونس في مجلسه، فقد حان العقاب في ظنه.

- تصلنا غمغمات حيدر وهمهماته علينا وعلى حسينياتنا.

- العفو يا مولانا... حيدر شاب محب لآل البيت ولكم، إلا أنها بعد وساوس الشيطان.

- نعلم... نعلم، وأنا من أشد المعجبين به، وسعيد بتربيتك له، وهو وصية إمامنا السيستاني عليه رحمة الله.

تنهد يونس بارتياح، إذن فالأمر ليس متعلق بحيدر.

- تحت أمرك يا مولانا... أنا وأسرتي رهن إشارتك.

- كيف حال فاطمة؟

- فاطمة!!! ابنتي ؟!!! في خير حال بفضل دعواتكم ورعايتكم لنا.

- كم عمرها يا يونس؟

- عشر سنوات.

- ما شاء الله بارك الله لك فيها... ما رأيك يا يونس في كسب بعض الأموال، وإرضاء الخالق الرزاق، وإرضاء الأئمة المهديين؟

- رضاهم يغنينا عن جميع الأموال... ولكن كيف هذا؟

وهنا طال صمت الإمام المرجع إلى أن قال: قد رأيت في منامي إمامنا الحسين يزفها إلي وهو يقول: فاطمة بنت يونس هبة من ربك فتمتع بها، وأكرم أهلها فهم أهل خير....

ثم هز كتفه بلا مبالاة وكأن الأمر لا يعنيه وهو يقول: تعلم أنه علينا تنفيذ وصايا الإمام، وإني لفي حيرة شديدة من اختيار ابنتكم، إلا أنه لا بد من السمع والطاعة.

انصدم يونس، وهو يسمع ما يقوله الإمام، فاطمة ابنته الطفلة، يتمتع بها؟!!!! امتعق وجهه، وكاد قلبه يتوقف إثر هذه الصدمة المدوية، وقد دارت الدنيا به.

- يونس؟!!! هل أنت بخير ؟ يونس؟!!!

فاق يونس من أثر المفاجأة، وابتلع ريقه بصعوبة وهو يقول: السمع والطاعة يا مولانا... ولكن أليست فاطمة صغيرة على التمتع؟

أخذ الإمام يضحك بصوت عال وهو يقول:

- صغيرة !!!، لا تخف يا يونس، لن أجامعها كالنساء، متعتها دون فض غشاء البكارة، فالتمتع بالبكر يكره فيه فض الغشاء، فعن زياد بن أبي الحلال ومحمد بن أبي حمزة قالا: عن أبي عبد الله عليه السلام، في البكر يتزوجها الرجل متعة، قال: لا بأس أن يتمتع بالبكر ما لم يفتضها.

كما أن هذه الرؤيا لرؤيا حق، ونصح إمامنا الحسين عليه السلام، وقد أوصاني بك وبأهلك ولك مني 50 دينارًا.

ثم صمت قليلا متفرسًا ملامح يونس والذي كساه الهم، ثم قال: ما جوابك يا يونس.

قال يونس في ضعف وسكون وهو يحبس دموعه: السمع والطاعة للأئمة.

- أحسنت يا يونس، أرسلها لي نهاية الأسبوع، وسأرسل لكم بعض من يجملها ويزينها لي.

كان المشهد كله كالكابوس بالنسبة ليونس، من هذه التي ستزين؟ فاطمة؟!!!!! طفلتي؟!!!

انتزعه من أفكاره الإمام المرجع والذي تناول ذلك المظروف الذي كان أمامه وناوله ليونس وهو يقول:

- هذه 50 دينارًا، غير ال 50 المتفق عليها، هدية مني لك.

تناول يونس المظروف، وانصرف وهو يجر قدميه جرا، ماذا يفعل ؟ وماذا يقول لزوجه ولحيدر، حيدر!!! سيكون وقع الأمر عليه أشد من الجميع فهو متعلق بأخته أشد التعلق، ولا يؤمن بكثير من معتقداتنا، وهذه المسكينة الصغيرة ما أدراها هي بالمتعة...

وسرعان ما استعاذ يونس من أفكاره، وهو يقول لنفسه بحزم: ما كان لآل بيت المصطفى ليخذلونا، ولعل الله يرسل عليه وأسرته سخطه وغضبه لمخالفتهم أوامر أئمتهم.

يحدث ما يحدث.. ليس من طاعة الإمام بد، ولا من طاعة الحسين عليه السلام من بد.

*****

المكان: مصر

- يا سيدي، هناك من يقول أن السلفية ما هي إلا المذهب الوهابي المتعصب القائم على بُغض آل البيت وحرب أولياء الله الصالحين، والاهتمام بالظواهر فقط: (لحية- تقصير ثياب- عدم مصافحة نساء) ويتركون القلب.

- أخي الفاضل، هذه دعوى لا أساس لها، السلفية أعم من دعوة محمد بن عبد الوهاب، ما هو إلا رجل اتبع المنهج السلفي له ما له وعليه ما عليه، كما أن مسألة بغض آل البيت وحرب أولياء الله الصالحين أمر يحتاج لتفصيل كبير نحن لسنا نبغض هؤلاء معاذ الله، كل ما في الأمر أننا نحارب الغلو في هؤلاء، وأخيرا دعوى الاهتمام بالظواهر فقط هذا افتراء، الدين شمل الظاهر والباطن ونحن نسعى لإصلاح الاثنين، وصلاح الظاهر يدل على صلاح الباطن، ولكن ما تذكره مسائل شتى كل مسألة فيها تحتاج حلقة مستقلة، ولذا أتمنى أن نتكلم عن قضية محددة.

إذن فاشرح لمشاهدينا، ما هي السلفية الوهابية، وأتمنى أن يكون هذا باختصار.

- السلفية ليست وهابية أو تيمية، السلفية عبارة عن منهج فهم الكتاب والسنة كما فهمه السلف الصالح.

- السلف الصالح، ومن السلف الصالح عندكم؟

- السلف الصالح، هم القرون الثلاثة الأول في الإسلام.

- ولماذا تخصيص هؤلاء فقط من دون علماء الإسلام؟

- لهؤلاء فضيلة كبيرة فجيل الصحابة الجيل الأول هو من نزل عليه القرآن ونزلت عليه السنة، فهم الأكثر فهمًا له ولمراده، أما القرنين التاليين لهذا الجيل فقد صح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: خير الناس قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم.

- وما أدرانا بصحة مثل هذه الروايات، وهذه أخبار آحاد، وكما تعلم هناك اختلاف في قبول مثل هذه الأخبار.

- لا أوافقك على هذا، ولعلنا نرجئ الكلام عن أخبار الآحاد في حلقة مستقلة، ولكن أحب أن أقول: وليس هذا الحديث فقط هو حجتنا، بل الأقوى في الدلالة قول الله تعالى: {فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا}.

وقول الله تعالى: {ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيرا}.

من الآيتين حصر الله الإيمان والهدى والسبيل، باتباع الرسول، بمثل ما كان عليه صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

الإسلام الصافي كما أنزل على رسول الله والصحابة رضي الله عنه هو ما نريده، ولا أقول نترك التطور الآن، بل نحن مع التطور لكن وفقا لأصول القرون الأول.

- الأشعرية والصوفية، وبقية فرق السنة كلها تقول هذا، أن الاتباع لا يكون إلا للكتاب والسنة، ويعظمون الصحابة وفهمهم، فما تفرقون عنهم؟
- وكل يدعي وصلا بليلى وليلى لا تقر لهم بذاك.
- ماذا تقصد؟
- اقصد، لو تكلمنا مثلا عن المتصوفة، فهل تعظيم الأولياء وبناء قبور على المساجد، ودعاء غير الله بقول مدد وغيره، والاحتفال بالموالد، و.... و... من سنة رسول الله أو فهم الصحابة؟

والأشاعرة، وإدخالهم لعلوم الكلام في العقيدة الإسلامية، وتأويل الصفات، وغيرها من منهج رسول الله أو فهم الصحابة للدين؟

- يقولون ذلك، ومعهم أدلة تؤكد مذهبهم وأنه الأقرب للسلف الصالح.
- هنا يكون النقاش، فاتفاقنا في المرجعية، سيؤدي لنقاش مثمر لا شك، وإما أن تكون الحجة لهم أو عليهم.
- يتساءل البعض: السلفية تدعي أنها تتبع الكتاب والسنة بفهم سلف الأمة، فلماذا تتسمّون باسم لم يتسمى به أحد من السلف الصالح؟
- نحن بهذا ننتسب للسلف الصالح، بيانا لمنهجنا لنتميز عن المناهج الأخرى، ففي البداية كان الكفاية في اسم الإسلام، حتى ظهرت فرق الشيعة والخوارج تنتسب للإسلام، فاضطر المتبع للمنهج الحق بالتميز من هؤلاء فتسموا باسم السنة، ثم ظهرت جماعات تنسب نفسها للسنة، كالأشاعرة والماتريدية فاضطر المتبع للمنهج الحق بالتميز عن هؤلاء بمسمى السلفية.

- على نفس المبدأ لما لم تضطروا الآن للتسمية بمسمى جديد؛ فهناك السلفية المدخلية الجامية، وهناك الدعوة السلفية في الإسكندرية، وهناك السلفية الجهادية، وهناك أنصار السنة، وهناك...، وهناك... سلفيات عدة كل فريق يدعي أنه المتبع للرسول والصحب الكرام، وأن المرجعية هي الكتاب والسنة بفهم السلف الصالح.

فاجأ مذيع الحلقة، ضيفه الشيخ أبو عبد الرحمن العربي، الداعية المشهور بهذه الملاحظة والتي ما أعد لها أبو عبد الرحمن، فسارع الشيخ بالنظر للحاسوب الذي أمامه باهتمام، ولم تمر ثوان حتى علت الابتسامة على وجه الشيخ والذي أجاب في ثقة:

أحب أن أوضح أمرًا مهمًّا.. تميزنا بمسمى واضح منذ القرون الأولى، عن بقية الفرق كان تميزًا عقديًّا ومرجعيًّا، فالأشاعرة مثلا عقيدتهم منتسبة لأبي الحسن الأشعري، أما نحن فعقيدتنا تنسب للسلف الصالح، والسلفيات التي ذكرتها فيما أعلم لا تختلف في المرجعية والعقيدة، إنما هو خلاف في الفروع والتي غالبها فروع في أمور سياسية و....

ـ أستميحك عذرا ضيفي الكريم؛ فوقت الحلقة ضيق جدا، وقد سعدنا جدا بتشريفك لنا، أعزائي المشاهدين، كان وقتا مثمرا ومفيدا، مع الداعية الشيخ أبو عبد الرحمن العربي، دمتم طيبين، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

قام مقدم البرنامج بمصافحة الشيخ وشكره، على اللقاء واجتمع فريق العمل لحمل الأجهزة الصوتية المعلقة بالشيخ ومقدم البرنامج، ما إن فرغوا من عملهم حتى استأذن الشيخ.

قال مقدم البرنامج لأحد المعدين: استطاع الإفلات هذه المرة، ولكنها ليست الأخيرة.

قال المعد: قد ظهر توتره الشديد، وما أنقذه إلا تلك الرسالة التي أتت له على الحاسوب.

قال المقدم متعجبا: رسالة؟!!!

قال المعد: نعم رسالة، لقد رأيتها فقد كنت أقف خلفه، وراء هذا الشيخ أحدهم.

جز المقدم على أسنانه، وهو يقول: أفلت من فخ، ولا زال في جعبتنا الكثير، وتسجيلات مسربة لعلاقات غير

مشروعة لهذا المتمشيخ، ولنرى ماذا سيفعل من وراءه بالقادم.

قال المعد: هذا ما أتعجب منه، لقد تغيرت سياسة البرنامج، تماما صرنا نعطي لهؤلاء قيمة كبيرة، صحيح ما حدث في هوجة يناير أفرزت هؤلاء، فلم لا نستمر في حربنا عليهم كما كنا؟

قال المقدم: استراتيجية الحرب اختلفت، عقود طويلة نقوم بتشويههم بكافة السبل ونهاجمهم، فما كانت النتائج إلا عكس ما أردنا من انتشار أفكارهم واكتساب حب الناس وتعاطفهم؛ ولذا كان لزاما علينا تغيير استراتيجيتنا القديمة ومحاربة أفكارهم الحقيقية، لا أفكارًا نخترعها عنهم طوال السنوات السابقة، سنكشف عوار عقيدتهم ومنهجهم من كلامهم وتصريحاتهم، سنجعلهم هم من يدمرون أنفسهم.

انتزعهم من نقاشهم أحد العاملين وهو ممسك بجوال المقدم قائلا: هناك اتصال هام يا سيدي.

أمسك المقدم بجواله، وما إن استمع الصوت حتى سرت في جسده رعدة، وقال بصوت مرتعش: أهلا.. أمير بك.

كان صوت المتصل، كافيا أن ينهض المقدم في رعب، باحثا عن عزلة له لمواصلة المكالمة دون أن يتنصت أحد.
غادر الشيخ (استديو) تصوير الحلقة، حتى استقل سيارته، وما إن تحركت السيارة طلب من سائقها أن يتصل بمحمود شوقي، وفعل السائق ما أمر به، وتسلم الشيخ الجوال، وانتظر حتى جاءه الرد، فقال في سعادة بالغة: أحسنت يا محمود يا بني، لقد أنقذتني من مأزق، ومفاجأة كادت تعصف بي اليوم، جزاك الله خيرا يا بني، وأبشر ستصلك مكافأة جيدة اليوم.
لم تطل المكالمة كثيرا، غمغم الشيخ بعد انتهائها: أحسنت يا محمود، أنا محظوظ بمثلك.
قالها، وهو يتذكر كيف التقى بمحمود، وقصة محمود التي يعرفها جيدا.
في حي كرموز بالإسكندرية، ولد محمود، كانت ولادته غير العادية سر احتفاء كل من حوله به، فقد ولد واقفا، جميع الأطفال عند ولادتهم يخرجون رءوسهم أولا، أما محمود فأول ما خرج منه كانت قدماه، وكأنه بهذا يعلن اختلافه عن الجميع، ليس هذا فقط هو سر احتفاء الجميع

به، بل كانت أيضا الشفقة، فمحمود قد ولد يتيما، ولهذا كانت أمه شديدة الوله به وأخواله وأعمامه أيضا قد نذروه عنايتهم، وكأن في وجوده تعويضا عن غياب الأب، والذي لم يهنأ بولادة ابنه الثاني، والذي كان ينتظره بلهفة شديدة، وكعادة الأطفال ملأت الغيرة الابن الأول أحمد، وقد قل تدليل الجميع له، وانصرفت هممهم إلى الضيف الجديد محمود، وترجم تلك الغيرة، لصفعة قوية في وجه أمه والتي لا تزال تعاني آلام الطمس، وكأنه بهذا يعاقبها على جرمها في أن أتت له بشريك يقاسمه حبها، لم تضجر الأم بذلك، بل احتضنت صغيرها ذو الأربع سنوات، وشرعت تشرح له أن الطفل الجديد هو شقيقه، وأنه يجب له أن يحميه، ويقوم بتربيته، وأن الله عوض غياب والده، بعدما أخذه في السماء، بهذا الطفل، حاول أحمد استيعاب ما يوصى به، فتحولت مشاعر الغيرة لديه لإحساس عميق بالمسئولية، لا تتناسب مع سنواته تلك، وتحول الغضب لحب.

وتمر الأعوام...

فيفتت الفقر عظم الأسرة، وينفضّ عنهم الجميع، إلا من زيارات نادرة مختلسة، يخرسون بها تأنيب الضمير، ويكبر الطفلان، كان أحمد متوفقا في الدراسة، إلا أنه التحق بالمعهد الفني التجاري المتوسط؛ وذلك حتى لا يضطر لترك عمله الذي صار الدخل الرئيسي للأسرة؛ فمعاش والده لا يكفي لسد حاجتهم؛ ولذا لم يرفض أحمد ولا حتى والدته اقتراح الحاج إسماعيل الميكانيكي أحد رفقاء والدهم بأن يساعده أحمد في العمل معه، وبالفعل تفرغ أحمد للعمل، ولم تعرقله الدراسة، كان الحاج اسماعيل يحسن إليه كرامة لوالده، وشفقة عليه، كان يعامله كأحد أولاده...

لم يؤثِّر أمر العمل بالسلب على نفس أحمد، على العكس تماما، وجد أحمد متعة في حياته الجديدة، فهو لم يكن صاحب طموحات في يوم ما، كل ما كان يرغب فيه هو أن يرعى أهله، ويكفل لهم حياة سعيدة، قليلا ما كان يجد في نفسه غبطة، لبعض زملائه القدامى، وقد التحقوا بالمرحلة الثانوية، فها هم يرتدون ثياب الدراسة، ويذهبون في الصباح الباكر في مجموعات وتتعالى

أصواتهم وهم يحكون مغامراتهم مع زميلاتهم في الدراسة، كان يأمل أن يعيش تلك الحالة، يعيش عمره الحقيقي ومراهقته، إلا أنه سرعان ما يطرد تلك الأفكار، ويقول لنفسه بصوت مسموع: أنا الآن رجل، ولست طفلا مثلهم.

كانت أمه أيضا يؤلم قلبها أن ترى صغيرها، قد تحمل مسئولية أسرة بأكملها، وها هي سنوات عمره تمر، دون أن يستمتع بها كزملائه، كان مجرد رؤية أطفال في عمر ابنها يرجعون بيوتهم بعد يوم دراسي شاق بملابسهم الجميلة ومداعباتهم لبعضهم البعض في الطرقات، في حين يعود ابنها للمنزل وقد ملئ شحما وزيتًا وقد هده العمل الشاق، يثير دموعها، فتحبس نفسها في غرفتها، وتظل تبكي وهي تلعن ذلك الفقر الذي سرق من ابنها طفولته.

كان محمود هو أمل تلك الأسرة الفقيرة، كان تفوقه الدراسي، وسمته وكثرة تأمله، التي لا تتناسب مع عمره الصغير، جعلت المحيطين به يشهدون أن هذا الطفل عبقري، محمود يختلف تماما عن شقيقه الأكبر أحمد،

محمود هادئ الطباع، يفضل العزلة، كثير المطالعة والقراءة، حركته خاملة جدا، لا يشارك أخاه في الطباع، ورغم ذلك كانت هناك صداقة وقرب شديد بينهما، فمحمود كان يرى في شقيقه الأكبر والده الذي حرم من رؤيته...

وتمر الأعوام...

ويبلغ الأخوان أشدهما، ويتبدل الحال، فها هو أحمد يملك ورشة تصليح سيارات، ومحمود يتخرج من كلية الهندسة قسم ميكانيكا، ويتحسن دخل الأسرة، وتهنأ أمهما وهي ترى نجاح ولديها في الحياة، وأخيرا تبسمت لهم الدنيا التي قهرتهم من قبل.

****

الفصل الثالث

الظلم ظلمات

المكان: كربلاء... العراق

- فاطمة؟!!!!، يا ويحي، هل جننت يا يونس.

قالتها آمنة زوجة يونس، وهي تضرب بيديها على صدرها، وقد انهمرت دموعها، في حين تعالت ضحكات حيدر الهازئة، وبدت ملامح الدهشة على فاطمة والتي لا تدري فيم يتحدث الجميع عنها، إلا أن المشهد كله كان مدعاة للخوف، فأبوها؟ يونس لأول مرة تراه منكس الرأس مقهور أمامهم. واصلت آمنة حديثها المنتحب: يا يونس، قل له أي شيء، هناك البنات والفتيات كثر، يتمنون مثل هذا، لكن فاطمة طفلة، ما تدري هذه عن المتعة أو حتى الزواج!!!

- لن يجامعها يا آمنة، مجرد متعة.

اشتدت ضحكات حيدر الساخرة والذي قال: هذه مسخرة بكل ما تعنيه الكلمة، وأكثر دهشة بالنسبة لي، هو مناقشتك لمثل هذا، أيّ دين هذا الذي يبيع طفلة لأحد الكهلة ليستمتع بها مقابل حفنة من المال.

- اخرس، لا تتطاول على دينك، ولا على أئمتنا.
- أي أئمة يا أبي وأي دين، المتعة أمر مختلف فيه ولا يجزم أصلا بمشروعيته.

وكأن قول حيدر وجد في نفس يونس مكان والذي أخذ ينصت لابنه وهو يشرح حكم المتعة:

قد قرأت في كتاب الطوسي التهذيب: عن زيد بن علي عن آبائه عن علي عليه السلام قال: حرم رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم خيبر لحوم الحمر الأهلية ونكاح المتعة.

فكيف يحرمها رسول الله عليه الصلاة والسلام، ويروي هذا علي عليه السلام، ويحلها إمامك.

وقد اشتد تحريمها مع البكر فهناك رواية عن أبي بكر الحضرمي قال أبو عبد الله عليه السلام: يا أبا بكر إياكم والأبكار أن تزوجوهن متعة.

- لا أدري... لا أدري ما أفعل وما هو الصواب وما هو الخطأ... فأنت يا حيدر لست أعلم من إمامنا، وما يقوله هو ما توارثناه من أئمتنا المعصومين...

صمت يونس قليلا متأملا إلا إنه سرعان ما استطرد قائلا: حيدر وما يدري حيدر عن ديننا وعن أئمتنا.

قال حيدر متحديا: قال تعالى: {وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ (23) قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدَى مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُون}

- تكفرني يا حيدر؟!!!، تكفر والدك!!!

- أنا لا أكفرك يا أبي

صمت حيدر.. لم يشأ أن يطيل الجدل في خارج الموضوع، كما أنه يعلم أن والده فهمه أبسط من أن يفهم ما يريد أن يُفهمه له؛ لذا جاهد نفسه ليبتسم تلك الابتسامة الهادئة، لعل والده يرق لكلامه، ثم قال: أبي، كلنا نعلم مدى حبك لفاطمة، والكل يعلم أن هناك ما يحيك بصدرك، وأنه ثمة حرجًا قد سكن بقلبك من هذا الأمر ونالتك الريبة منه، ارفضه بكل بساطة وأدب، وقل له إنك استشرت أهلك فوجدوا أن فاطمة لازالت طفلة على مثل هذا.

- ما يقوله حيدر، هو عين العقل، اسمع له يا يونس، فوالله قد أنطقه الله بالحق.

- يا آمنة، الأمر ليس بهذه السهولة، هل يجوز لي مخالفة الإمام، ستكون نهايتنا، لن يرضى عنا الله، سنطرد من

جنته، قد قال الإمام إنها وصية الحسين عليه السلام، نحن لا نريد سوى الجنة يا آمنة.

لامس الكلام شغاف قلب آمنة، فهي كزوجها، تعرف مقام الأئمة وأن دخول الجنة لن يكون إلا برضاهم وبركتهم، ولولا فطرة عاطفتها لابنتها لوافقت كزوجها؛ ولذا لزمت الصمت وهي تتابع الحوار بين زوجها وابنها، وكانت بين نارين بين دينها وإيمانها والذي يوافقها فيه زوجها، وبين فطرتها وقلبها التي يوافقها عليه ابنها، ولكن هل الإيمان والفطرة يتعارضان؟!!!، كيف يتعارضان وليس للإيمان مكان سوى القلب!!! تساؤلات لم يهدها عقلها للإجابة عليها...

- ستبيعها يا أبي ستبيعها من أجل آلهتك الأئمة !!!

- إخرس يا حيدر، وإلا...

- وإلا ماذا؟!!!!، وهل هناك أب عاقل يفعل مثل هذا.

وهنا نهض يونس في غضب شديد ليصفع حيدر في وجهه بقوة، شهقت آمنة بصوت عالٍ، وارتفع بكاء فاطمة والتي أسرعت لتحتضن شقيقها، والذي تلقف تلك الصفعة القوية لم يتوقع رد فعل والده هذا، فظل مدهوشًا لثوانٍ

حتى احتضن شقيقته الصغيرة، وهو يقول لها محاولا الابتسامة: لا تقلقي يا حبيبتي... ولا تبكي.

اعتصر يونس قبضته، ودون أن يلتفت لأحد خرج مسرعا من البيت، يونس كان يعلم جيدا أن ما فعله بابنه جرمًا لا يغتفر، وأن ما نطق به ابنه ما هو إلا بدافع غيرته على أخته،...

- حيدر غير مؤمن، ولا يدري ما هو جرم معصية الأئمة، هداك الله يا بني.

****

المكان: إدلب... سوريا

اخترقت تلك الدبابات والسيارات العسكرية شوارع إدلب والتي امتلأت عن آخرها بالأهالي المحتفلين بهؤلاء الجنود؛ والذين كانوا يسيرون في منتصف الطريق المرصوف رافعين أعلام النصر وقد أحاط بهم الناس من الجانبين، مهللين ومكبرين، كان اليوم هو يوم تحرير هذه المنطقة من سطوة نظام بشار الذي سامهم سوء العذاب لسنوات عدة، حتى جاء هؤلاء الجند يخلصونهم مما عانوه، لقد سمعوا كثيرا عنهم وعن دينهم وأخلاقهم وعدلهم في

الحكم، ولذلك احتشد الناس ليشاهدوا أجناد جبهة النصرة، ويحتفلوا بذلك النصر العظيم على أيديهم ويشكروهم ويبايعوهم، بل ويرسلوا أبناءهم ليلتحقوا بهم.

- الحمد لله الذي من علينا بنصره، وفتح لنا إدلب لتكون نواة انطلاق جيشنا في حربه ضد نظام بشار.

قالها الجولاني -وهو يسير مترجلا خلف جنوده- لبعض المحيطين به، وقد بدت على مُحيّاه الهادئ فرحة شديدة، وهو يشاهد هذه الجموع الغفيرة التي أتت لتأييده وتأييد جنده.

- ستفتخر بهذا النصر العظيم القيادة في العراق، وسيؤكد لهم عدم تسرعهم بالحرب ضد النظام النصيري.

التفت الجولاني، للمتحدث وقد ارتسمت عليه حدة مفاجئة وهو يقول: ما الذي تهذي به، بيعتنا وبيعة قادة العراق كلها للقاعدة وللإمام الظواهري، وليست للقيادة في العراق.

اضطرب المتحدث، وبدا عليه عدم الفهم، فأردف الجولاني قائلا: يا أبا اليسر، نحن في عنقنا بيعة

للظواهري، ومن خلع من عنقه البيعة فقد مات ميتة الجاهلية كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم.

صمت الجولاني قليلا، ثم استطرد قائلا: صحيح أن القيادة في العراق هي من أرسلتنا إلى هنا، ولكن ألا ترى أننا قد أتينا هنا وليس معنا سوى عصابة صغيرة من الجند، حتى قمنا وبعد مجهود مضن بتكوين جبهة قوية، وقد أتى إلينا خيرة مجاهدي الدنيا ليجاهدوا في صفوفنا، فماذا سيحدث لو علم بعلاقتنا بالدولة الإسلامية في العراق، سيكون للعصبيات مدخل هنا، وسيجد الشيطان مسلكا في قلوب الأخوة المجاهدة، فغالب قوام جيشنا من الأخوة السوريين، يجاهدون لتحرير أرضهم من ذلك الغاصب القاتل بشار، وليس من أجل البغدادي.

ثم استطرد قائلا: البغدادي صديق قديم ليس له عليّ يد وفضل، ولكن سياستنا تختلف تماما معه، هو لا يعبأ كثيرا بإمامنا الظواهري ولا لقراراته، ويظن أن تنظيم الدولة ملك له يفعل فيه ما يشاء، وهذا ما سبب تخوفًا

لدى القاعدة، من أن يعلن البغدادي انفصاله عنهم، وهذا شق لصف الجماعات الجهادية كلها.

أدار الجولاني وجهه عن أبي اليسر، وهو يرد التحية إلى الجماهير المحيطة بهم، وقال: دعنا اليوم نحتفل بهذا النصر العظيم،.

لم تطفئ تلك العبارة تلك النار المتأججة داخل أبي اليسر، فقد كان يعلم أن كلمات الجولاني هذه، نذير بذهاب ريح جبهة النصرة كلها.

****

المكان: كربلاء...العراق

- ترفض عرض الإمام يا يونس، هل جننت!!!
- يا سلامة، حيدر يرفض، وأمه لا تكف عن البكاء، وأنا أعذرهم البنت صغيرة جدا.
- ومن متى يا يونس، لمثل حيدر هذا رأي، وآمنة امرأة مؤمنة بقدر الله، وفاطمة غدا ستكبر وتفهم.

لم يكن يونس يرتاح لأحد راحته في الحديث مع سلامة صديقه، سلامة دائما عنده الأجوبة المريحة والمقنعة لعقل يونس وقلبه، لعل ذلك لملازمة سلامة لدروس الأئمة

وفتاويهم، أو يرجع سبب ذلك أن سلامة تعلم حتى المرحلة المتوسطة، فهو كالنور لكل ما يغلق على يونس من أمور، بل لغالب سكان كربلاء، فهو من يقوم بعملية الختان للذكور والإناث، وهو من يملأ أي استمارة مطلوب ملؤها، هو من يقرأ الخطابات لمن لا يقرأ، ويكتب لمن لا يكتب.

أخذ سلامة نفسا طويلة من الشيشة التي بيديه، ثم أتبعها بزفير من الدخان وهو يقول ليونس: يا يونس يا أخي، ليس من طاعة الأئمة بد، ولكن نصيحة اشترط على الإمام كتمان الأمر، وهذا لا يتعارض مع الانصياع لأمره.

- ولماذا الكتمان؟!!! أليس من الفخر أن يتمتع الإمام بابنتي.
- نعم نعم، ولكن قد يعزف الخطاب عنها لو علموا مثل هذا، ولو كانت عبادة، أطعني ولن تندم.

واصل سلامة مداعبته لشيشته، ثم أخرج من جيبه لفافة بها عدة أقراص دوائية، وأخذ يفتش داخلها، حتى أخرج منها قرصا أحمرا وناوله ليونس وهو يقول: خذ هذا واعطه لفاطمة يوم تذهب للإمام,

- وما هذا يا سلامة؟

- هذا سيجعلها لا تشعر بشيء في هذه الليلة، ولعلها ستنساها تماما.

رد يونس القرص الذي تناوله لصديقه وهو يقول: مخدرات، هل جننت يا سلامة، هذه طفلة، وأي شيء لن تشعر به، لا فض للغشاء ولا ألم هكذا وعدني الإمام.

قهقه سلامة بصوت عال وهو يقول: مخدرات، إيش هداك الله هذا قرص مستورد من الخارج مهدئ خلاصة أعشاب طبيعية، فاطمة ابنتي كما هي ابنتك ولن أضرها، أما عن الألم فلن يكون في الغشاء بالطبع.

- إذًا فعن أي ألم تتكلم.

بدا التردد على سلامة في الخوض في هذه النقطة إلا أنه فضل الصمت وغير مجرى الحديث قائلا: لا تشعر بالخجل يا يونس، طاعة الإمام من طاعة الله ورسوله وآل بيته رضوان الله عليهم، وقد كان إمامنا الخميني عليه السلام يتمتع بالأبكار وبمن هن دون عمر فاطمة.

- هل هذا صحيح؟!!!

- بالتأكيد، يا أخي يونس، المتعة من ديننا لا ينكره إلا الوهابية الأنجاس.

- نعوذ بالله من الخذلان.

وبلغة الخبير مال سلامة نحو أذن يونس وكأنه سيسر له بسر خطير:

يحرمون علينا المتعة، وهم...

صمت قليلا حتى رأى الفضول في وجه صاحبه ثم أردف:

أتدري أن من يسمونه الخليفة الثاني كان لا يرتاح إلا بمني الرجال، كان لا يكفيه حتى رجل واحد.

ثم أخذ سلامة يقهقه، وهو يردد: عليهم لعنة الله، ثم سحب سلامة نفسا طويلا، وأخرج زفيرا، في حين انشغل يونس بالتفكير متابعا كرات الدخان المنبعثة مع زفير سلامة.

****

- السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

- وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته، أهلا بك يا حيدر تفضل...

- سيدي الإمام اعتذر عن قدومي بلا سابق موعد... وارجو من فضيلتكم تقبل عذري على سوء أدبي.

- لا تعتذر، يا حيدر أنت وأسرتك لكم مكانة عندي لأبعد الحدود... سل تعط.

- بخصوص المتعة.

- مالها؟!!! أجئت مناقشا فيها؟!!!

- لا بالطبع فأنا مؤمن بها جدا، وقد سعدت بعرضك لوالدي.

انفتحت أوداج الإمام، فلقد ظن أن حيدر أتى ليناقش وليحتد في هذه المسألة، إلا أن كلمات حيدر أذهبت قلقه...

- بارك الله بك يا حيدر، إذن فما جاء بك يا بني.

- عندي طلب منكم يا سيدنا الإمام أرجو أن يشملني عطفك بالاستجابة له.

- وماذا تريد ؟ مال؟!!! أم تريد زوجة؟!!! انت شاب وهذا ما يريده الشباب...

ثم أخذ الإمام يضحك بعد أن ألقى بتلك العبارة وهو يلمح حمرة الخجل البادية على حيدر.

إلا أن حيدر اغتصب ضحكات الإمام وهو يقول في حزم: لا هذا ولا ذاك، بل أنا أيضا أريد أن أتمتع، وأريدك سيدنا أن

تبارك لي في هذا وتقنع أسرة البنت التي أريدها لنفسي، فلا أظنهم يرضون.

بدأت ملامح السعادة تتبدد من وجه الإمام، وحل محلها ملامح القلق وعدم الفهم...

- وبمن تريد أن تتمتع وهل معك المال اللازم لذلك؟!!! ما أعلمه أنكم لا تملكون شيئا يذكر.

- أما عن المال فسأتمتع بما وهبته لأبي، وبمال متعة فضيلتكم بفاطمة، وقد وافق أبي على هذا.

- إذن فمن هي الأسرة التي تريدني أن أقنعهم ؟!!!

- أسرتك سيدي.

- أسرتي؟!!! قالها الإمام وارتد كالمصعوق للخلف، ولم يمهله حيدر فرصة للتفكير فسارع قائلا:

- نعم سيدي؟ فيشرفني أن أتمتع بابنتكم زهراء، ب 100 دينار، لمدة يومين فقط.

هنا قام الإمام المرجع من مكانه، وقد أمسك بتلابيب حيدر، وهو يصرخ فيه: هل جننت أيها الخرف، زهراء من هذه التي تريد أن تتمتع بها؟!!!

- زهراء ابنتك يا امامنا.

كانا ينظران لبعضهما نظرة تحدي، وقطع تلك النظرات صوت الإمام والذي نادى على حراسه، وما إن ناداهم حتى اجتمع عدد كبير منهم في لمح البصر، فأفلت حيدر من يديه، وهو يقول لهم: خذوا هذا المعتوه من أمامي، وعلموه كيف يخاطب أسياده.

ثم التفت لحيدر قائلا: لولا يد لأبيك وأمك لي، ولولا فاطمة، لكنت أمرت بسجنك مدى الحياة، لإهانتك لي وتجرؤك على ابنتي.

صرخ حيدر: لن تتمتع بأختي،حتى أتمتع بابنتك أيها الظالم الكاذب.

أشار الإمام للحراس بالانصراف به، وبدون نقاش سحبه الحراس للخارج، في حين حاول حيدر الإفلات من قبضتهم إلا أنه فشل لكثرة عددهم وقوتهم، فما كان له إلا أن صرخ بصوت عال: وهل المهر قليل، دعنا نتناقش في المدة ومال المتعة إن لم يعجبك عرضي، أم هو حلال لكم حرام علينا.

أخذ حيدر يصرخ ويصرخ، وأخذ صوته يبتعد شيئا فشيئا عن الإمام والذي عاد يقرأ في الكتاب الذي كان بين يديه في هدوء وكأن أمرا لم يحدث.

****

المكان: حي كرموز...إسكندرية

- ولماذا لا تعمل في تخصصك؟ لا أدري لما العناد؟ لدي ورشة لتصليح السيارات نتشارك فيها ونوسع أعمالنا ألم يكن هذا حلمنا يوما، ومن أجله التحقت أنت بكلية الهندسة؟

قالها أحمد لشقيقه محمود، وقد مرت الأعوام بهم فها هو أحمد قد استوى على أشده، كان شابا بكل ما تحمله الكلمة من حيوية وقوة فقد كان مفتول العضلات عريض المنكبين، لم يغتل عمله في ورشة تصليح السيارات وسامته، بل على العكس تماما.

أما محمود فقد كان يختلف عن أحمد في كل شيء؛ فقد كان هادئا، نحيلا، صامتا، إلا أن سمت الصالحين كان يسود مُحيّاه، مع تلك اللحية الخفيفة التي رسمت على وجهه.

قال محمود: يا أخي، الأمور تتبدل، يعلم الله كم أتمنى أن أعمل معك، وهذا حقك علي، إلا أنني قد وجدت بغيتي في

عملي كباحث شرعي في إحدى مكاتب تحقيق كتب التراث و...

قاطعه أحمد: وما تراث؟!!! لا أعلم إلى متى ستصير في هذا الطريق، كنت أظنها شطحات المراهقة، لحية تقصير ثياب، سلفية إخوان، ولكنك لا تزال مع هؤلاء الأناس.

ابتسم محمود قائلا: هؤلاء الناس يحكمون مصر الآن.

انفجر أحمد ضاحكا وهو يقول: وهذا نذير بمزيد من الخراب في مصر.

لم تفارق الابتسامة محمود وهو يقول: لا يزال ولاؤك للمجلس العسكري أليس كذلك؟

- بكل تأكيد، تعلم أني تعاملت مع هؤلاء في أثناء خدمتي العسكرية، هم الأكثر نظاما وأدرى بمصلحة البلاد.
- مصلحة البلاد، لا يعلمها إلا الشعب وقد قرر مصيره باختيار رئيسه.
- رئيسه؟!!! لولا أن منافسه شفيق ما كان ليصبح رئيسا.
- ومن جعله وشفيق متنافسين، وأبعد الآخرين عن المنافسة؟ ثم أن في كل المرات التي تواجه فيها

الإسلاميون مع العسكر أو القوى المسماة بالمدنية كانت الغلبة لهم.

- بالزيت والسكر؟!!

- هذا تسفيه لإرادة الشعب، ولو كان ثمة تجاوزات في العمليات الانتخابية كلها لرصدها المجلس العسكري، ولن يقصر في التصيد لهم، كما حدث في حل مجلس الشعب وإقصاء حازم أبو إسماعيل.

- صدقني يا محمود، ما أعرفه عن الجيش أنهم لن يتركوا الأمر للإخوان، نظرة الجيش لباقي الشعب، نظرة الأب الحازم لابنه الضال، ولا أظنهم تركوا الساحة للإخوان، إلا لغاية لا نراها الآن، فمستحيل أن يلقي العسكري التحية العسكرية لمدني فما بالك لو كان من الدراويش.

ساد الصمت المكان حتى جاء صوت أمهم تدعوهم للعشاء.

****

المكان: كربلاء... العراق

ظلت آمنة تدور داخل محيط غرفتها البسيطة في توتر ولازالت الدموع تنهمر من عينها لا تتوقف، أجمع من

يعرفها أنهم لو رسموا للحزن صورة لكانت آمنة الأسيفة، كانت فاطمة تتوسط فراش والدتها وهي تراقب أمها وقد بدأ عقلها في استيعاب القليل، الإمام المرجع يريد منها شيئًا لا يليق يرفضه حيدر، ووالدها موافق بقهر، وأمها مذبذبة بينهما، والدها يقول أن طاعة الإمام ستدخلهم الجنة، فلماذا يرفض حيدر الجنة؟!!!

- يا فاطمة، تأخر والدك وكذلك حيدر، أنا في شدة القلق.

- يا أمي لم تتجاوز الساعة الثامنة ليلا بعد، فلم القلق؟!!!

- حيدر متهور، وأخشى أن يرتكب حمقا نندم عليه، وأشعر بفؤادي خاويا، شيء ما قد جرى لحيدر، وقلبي لا يكذب.

- حيدر ليس متهورا يا أمي، هو الأعقل والأفضل، أدع الله ألا يصيبه مكروه.

- أسأل الله ببركة آل بيته أن يحفظه، يا حسين مددك على حيدر.

دلف في ذلك الحين يونس المنزل، وما إن رأته آمنة حتى فزعت إليه وهي تقول في لهفة: يا أبا حيدر... هل رأيت حيدر؟

- ذلك المنافق، لا لم أره، وأين يمكن أن يكون، ستجديه هنا او هناك، لما القلق؟ الوقت لا زال مبكرا.

- قلبي غير مطمئن، أشعر أنّ ثمة مكروه أصابه.

بدا القلق على وجه يونس وحاول أن يطرده فقال: فأل الله ولا فألك، أعلم أني أخطأت لصفعي إياه، وأنا على يقين أنه فقط حزين من ذلك، وبعد قليل ستجدينه يدخل المنزل.

لم تطمئن الكلمات آمنة، وقد لاحظ هذا يونس فاقترب منها واحتضنها في رفق وقد استسلمت لذراعه التي طوقتها وقال لها في حنو: اطمئني، وعندما يعود أعدك أني سأعتذر له.

رسمت آمنة على وجهها تلك الابتسامة المصطنعة، فقلبها يحدثها أن شيئا ما قد أصاب ابنها.

قهرت آمنة قلقها بإعداد الطعام، في حين جلس يونس مع ابنته فاطمة في ساحة المنزل يحدثها عن قابل الأيام.

- فاطمة، بعد الغد ستتزوجين الإمام المرجع وستكونين عنده لمدة يومين.

قالها وهو يراقب ملامح فاطمة والتي كانت واضحة بأنها لم تستوعب شيئا، ولذا أكمل حديثه مصطنعا فهمها لما يتحدث عنه:

- كل ما أوصيك به، هو طاعته فهو سيكون زوجك لمدة يومين.
- هل سأغيب عن منزلي لمدة يومين كاملين!!!
- نعم يا فاطمة ستكونين فيها مع زوجك الإمام.
- زوجي؟!!! وما زوجي؟!!! وهل للزواج مدة معينة؟!!! يعني انت وأمي تعيشون دائما، فلماذا أنا لمدة يومين فقط؟!!!
- هذا يا بنيتي يسمى زواج المتعة، وقد شرعه الله، وأحمد الله أنك ستكونين للإمام المرجع، فإرضاؤه من إرضاء الله، ألا تحبين الجنة؟
- نعم أحبها، انت تعلم أني لا أترك صلاة، ولا حسينية ولا صيام.

- نعم يا ابنتي، طاعة سيدنا الإمام كالصلاة، والصيام، والحسينيات، بل لعلها أشد عند الله.

- فلماذا يرفض حيدر هذا الزواج.

- حيدر يا بنيتي لا يريد الجنة، شهوة عقله تغلبه.

- ولكن يا أبي حيدر يصلي، ويصوم، و...

- ولا يطيع الأئمة يا بنيتي، ولا يحضر الحسينيات، وكيف يدخل الجنة من لم يوقر آل بيت النبي صلى الله عليه وسلم وأئمتهم المهديين.

- ولكن أخي دائما يقص لي قصة استشهاد سيدنا الحسين، وقصص السيرة النبوية، وغيرها.

- يا فاطمة، دعك من حيدر الآن، المهم تستعدي للزواج، غدا سيأتي بعض النسوة، لتزيينك، وبعد الغد ستكونين عند الإمام المرجع.

- كيف يا أبي سأنام خارج منزلنا ليومين كاملين في مكان لا أعرفه؟

- يومان فقط، نتحملهم من أجل الجنة.

ساد الصمت المكان، فكلاهما يجد في قلبه حرجًا مما سيحدث، إلا إنها الجنة، وبها تبذل الصعاب.

جلس يونس وزوجه وابنته يتناولون العشاء في سكون، حتى انتزع سكونهم هذا طرق الباب.

تنهدت آمنة قائلة: الحمد لله قد عاد حيدر.

- ألم أقل لك سيعود، دائما انت هكذا تقلقين من لا شيء.

توجه يونس تجاه الباب ليفتحه، ففوجئ بأن الطارق لم يكن حيدر، بل كان محمودأحد أصدقاء حيدر.

- خير يا محمود، ما الذي أتى بك؟

وجد محمود حرجا شديدا من كلمات يونس، فرد باقتضاب:

- جئت من أجل حيدر، و...

- حيدر ليس هنا الآن.

- أعلم هذا فهو من أرسلني.

ظهرت آمنة فجأة خلف زوجها وهي تقول في لهفة: أين حيدر وما جرى له، لماذا تأخر إلى الآن.

- هوني على نفسك يا خالتي، حيدر بخير، ويطمئنكم، إلا إن نفسيته يرثى لها، وقد اقترحت عليه السفر معي لزيارة بعض أقاربي ببغداد لمدة ثلاثة أيام، وقد جئت أستأذنكم وآخذ له بعض أغراضه.

- بغداد، ولماذا لا يأت هو ليأخذ أغراضه، هذا المتمرد.
- يا عماه، حيدر في نفسية سيئة، ويخشى إن أتى أن يسوء الوضع أكثر.
- تفضل يا بني، تفضل تناول معنا العشاء في حين سأرتب لك حقيبته.
- شكرا لك يا خالتي، سأنتظر حتى تنتهي.

اندفعت آمنة لغرفة ابنها مسرعة، في حين تبعها زوجها قائلا في سخرية: هذا الذي كنتِ قلقة عليه منذ قليل، ها هو ذاهب للسياحة في بغداد مع أصدقائه.

- يا يونس، أنت تعلم أن حيدر يهرب مما سيحدث.

لم يجد يونس ما يقوله فلاذ بالصمت، في حين ظلت آمنة تعد لابنها حقيبته.

****

المكان: القاهرة

- أحسنت يا بني... قد أنقذتني من ورطة كبيرة.

قالها الشيخ أبو عبد الرحمن العربي، وهو يربت على كتف محمود، والذي كان يقف في استحياء شديد وسط زملائه في العمل، وقد اختلفت نظراتهم إليه بين مغتبط

وحاسد، وكيف لمثله ألا يحسد فهو لم يلتحق بالعمل معهم إلا قريبا، وإذ به يصير الرجل الثاني بعد صاحب مكتب التحقيق الشيخ أبو عبد الرحمن، وإذ به يدير غالب مشاريع الدار، مع أنه ليس متخصصًا في هذا المجال.

- وقد قررت صرف مكافأة لمحمود هذا الشهر.

- يا سيدي، لا أستحق كل هذا، لم أقم سوى بعملي.

- ونحن نكافئك لأنك قمت بعملك.

قالها الشيخ ثم ولاهم ظهره وانصرف لمكتبه، في حين رجعت أعين الجميع لأجهزة الحاسوب، لمواصلة أعمالهم.

- هنيئا لك يا محمود، وإن شاء الله المزيد من النجاح.

- أكرمك الله يا أستاذ أكرم وبارك الله فيك.

- والله أنا سعيد بما آل إليه حالك، ولكن....

صمت أكرم فتساءل محمود: ولكن ماذا؟

- مالك وهؤلاء السلفية، أنت لست مثلهم فكرك وعقليتك أكبر من هذا المنهج المتسلق.

- يا أستاذ أكرم، ألا تمل من الحديث في هذا.

- ولن أمل، عقليتك وشخصيتك لا تناسب عملاء أمن الدولة هؤلاء.

- اتق الله يا اخي، السلفية ليست كذلك، وأنت تعلم.
- يا أخي الكريم، السلفية دعوى بلا حقيقة صدقني، شغلوا المسلمين بقضايا عقائدية وفقهية فرعية وتركوا قضايا الأمة.
- والإخوان المسلمون هم من اهتموا بقضايا الأمة؟!!!!
- بكل تأكيد، أنت تعلم مشوارهم الجهادي الطويل ووضوح منهجهم، قد كان السلفيون يكفرون بجهادنا البرلماني والآن صارت الديموقراطية من الإسلام.
- العقيدة أولى عندنا من أي شيء، فما أرسل الله الأنبياء إلا من أجلها، أما عن الديموقراطية أنت تعرف أن موقفنا من الديموقراطية كما هو، ولا تخلط بين الديموقراطية وآلياتها.
- خسارة!!!

قالها أكرم ثم عاد ليواصل عمله مرة أخرى، أما محمود فقد كان يرى أن كلام أكرم به الكثير من الحقيقة، فتلك المراجعات التي قام بها المشايخ السلفية بعد الثورة دليل على اضطراب منهجهم، ولا يزال يكتشف يوما بعد يوم، أن غالب القضايا التي كانت عليها الولاء والبراء بينهم

وبين الإخوان هي مجرد مسائل خلافية يثبت خلافها رغم إنكار مشايخ السلفية ذلك، كالموسيقى واللحية وتقصير الثياب والحجاب و... و... وأن وصفهم للإخوان المسلمين بالمنفلتين كان ظالما، وانتقادهم لمشاركة الأحزاب العلمانية والليبرالية في الانتخابات ما هو إلا خوفا من نظام مبارك وتبريرًا لتقاعس بعضهم، وإلا فما السبب لمشاركتهم الآن بعد ثورة يناير.

تساؤلات كثيرة كانت تدور في ذهن محمود، ولكنه كانت ثمة خاطرة تدفع ما يدور في صدره، وهي استفت قلبك ولو أفتاك المفتون، قلبه لا يرتاح للإخوان، صحيح أن كثيرا ممن يعملون معه منضمون لجماعة الاخوان، وهم خير من تعرّف عليهم في حياته أخلاقا وكرما، إلا أن شيئًا في قلبه تجاه هذا التنظيم، لا يدري ما هو....

****

المكان: كربلاء... العراق

بدا الجو متوترا في يوم زواج فاطمة، وقد لا حظت هي ذلك، فوالدها تفضحه عيناه مما يحاول اصطناعه من مظاهر

السعادة، وأمها لا تتوقف عن البكاء، وغياب حيدر، كل ذلك يؤكد أن ما سيئول إليه حالها مفزع.

توقعت فستانًا للزفاف، فلم يكن، توقعت ازدحام الفتيات حولها، وفرحة الجميع والزغاريد، هذا هو ما تعرفه عن الزواج، وعكس كل معرفتها جاء الأمر وكأنه سر عظيم يخفى عن الجميع، قلة قليلة من حضر ليهنئها، فصديق والدها سلامة وزوجه وابنتيه وبعض النسوة المرسَلات من قِبَل الإمام، هؤلاء هم المهنئون، أو لعلهم المشاهدون لما سيحدث.

أُعلن قدوم سيارة الإمام لتقل العروس لزوجها، فاحتضنت آمنة ابنتها في قوة، ولم تقو على الكلام بل غلبتها دموعها، وقد بادلتها فاطمة الدموع.

في حين قال يونس في ثبات: لم البكاء، كل هذا من أجل يومين فقط؟!!

ابتسم الجميع لكلمات يونس، والذي تأبط ذراع ابنته وكأنه يزفها لزوجها، واتجه بها نحو السيارة، وبعد أن تأكد أن أحدا لا يلمحه، تناول كف صغيرته ودس القرص الأحمر في يديها.

فنظرت إليه متعجبة قائلة: ما هذا يا أبي.
فهمس لها يونس: هذا تتناوليه قبل أن ينفرد بك الإمام، ولا تريه لأحد.
دسَّتْه فاطمة في جيب عبايتها التي كانت ترتديها، في حين احتضنها يونس في حنو قائلا: يا بنيتي يعلم ربي أن ما نفعله الآن ليس إلا لننال رضاه والجنة، فاصبري وأطيعي زوجك.
شعرت فاطمة بأنها تساق إلى الموت وأن أهلها يشيعونها ويصبرونها بتلك الكلمات، لا يهم إن كانت ستموت طالما العاقبة جنة الخلد.
****
- إلى أين يا آمنة...
- سأنام بغرفة فاطمة، لعلي بذلك أُسكتُ صراخ الفراق الذي يأنّ بصدري.
- صدقت والله يا آمنة، فأنا مثلك أفتقد أولادي، المنزل من غيرهم خواء.

نظرتْ له آمنة نظرة بعتاب ثم ولته ظهرها وهي تقول: مَن المتسبب في رحيلهم ألست أنت؟!!!

قال في أسى: يا آمنة أو تظنين قلبي لا يشعر، أخطأت بصفع حيدر، وأعترف، وعندما يأتي سأعتذر له، أما فاطمة فما كان لي خيار في الأمر، هذا قدر الله وعلينا قبوله.

قالت: نعم الرضا بقدر الله خيره وشره، ولكن أنعتبر هذا قدر شر؟!!!

حرك يديه مدللا على عجزه وقال: لا أدري يا فاطمة، كل ما أعرفه أننا ما فعلنا هذا إلا طاعة لله.

عقدت حاجباها وهي تقول: يونس، أيمكن أن يكون حيدر على حق وصواب، فمن يجزم بالحق.

أشار بيديه لها بالسكوت قائلا: اصمتي يا امرأة، هل سيضعف إيمانك بعد هذا العمر، هذه وساوس الشيطان، للأئمة الطاعة لأنها من طاعة الله ورسوله وآل بيته صلوات الله وسلامه عليهم.

قالت مرددة: عليهم الصلاة والسلام.

أطلق تنهيدة وقال بحنو: لن أمنعك من النوم في غرفة فاطمة، مع ثقل هذا على نفسي، فلم يحدث أن افترقنا ولو ليلة، أتذكرين وعدنا لبعضنا، ألّا تمر ليلة مهما

حدث بيننا إلا ونحن في ختامها ننام بجوار بعضنا البعض، أتذكرين....

ابتسمت آمنة ابتسامة هادئة، نجح يونس في جعلها تبتسم من قلبها، ولذا واصل قائلا: سأنام أنا أيضا معك في غرفة فاطمة.

ضحكت باستحياء آمنة وهي تقول: ولكن السرير صغير علينا.

- سأفترش الأرض، ولعل فراغ البيت الآن، ينشط ذكرى زواجنا.

ضحكت آمنة ويونس، وكأنهما لم يمرا ببؤس قط، وقد قضيا ليلة زوجية جميلة، ولم يعلما وقتها أن ولديهما يبيتان بشر ليلة.

****

في تلك الغرفة شديدة الظلمة، والتي تفوح منها رائحة المجاري، والفئران تلهو في أركانها، حتى اقترب إحدى الفئران من ذلك الجسد الساكن الملقى، ومن أثر الجوع، قام الفأر بقضم جزء من ذلك الجسد، وما إن شرع الفأر في أكله، حتى انتفض الجسد من مكانه، لم يكن الجسد سوى

حيدر، والذي اعتدل من نومته فتفرقت من حوله الفئران، جلس صامتا، يسترجع ما حدث، لقد قام الحراس بضربه ضربا موجعا، حتى غاب عن الوعي، لم يشعر بشيء حتى وجد نفسه في تلك الغرفة، لم يعد يعلم مدة مكوثه في هذه الغرفة، وذلك الرجل الذي يأتي إليه بطعام، لا يحدثه قط، ماذا حدث لأخته، أهله ما حالهم، وما رد فعلهم من غيابه، يعلم أن أمه سيقتلها القلق عليه، ووالده ورغم الشدة التي يبديها فهو رقيق القلب لن يتحمل غيابه.

- لن يطول مكوثي هنا، أعلم ذلك، هذا الحقير يريد إبعادي عن أهلي حتى ينال غرضه، سأعود وأنتقم يا إمام المنافقين، سأعود وأنتقم، وسيكون انتقامي في أعز ما تملك...

إنها زهراء.

****

مر اليومان على يونس وزوجه كأنها دهور، وفي صبيحة اليوم الثالث، أيقظهما صوت طرقات الباب، فأسرع يونس ليفتح الباب، فإذا بها فاطمة، أو ما تبقى من فاطمة، لم تكن هذه ابنته بدت وكأنها شبح فتاة، ملامحها الشاحبة،

وتلك الهالة السوداء التي أحاطت بعينيها، وتلك الزرقة التي احتلت بياض بشرتها، كانت فاطمة وكأنها قاست لُهاث الموت، وما إن رأت والدها، حتى ألقت حقيبتها وتلك الهدايا التي حُمّلتْ بها واندفعت في حضنه وهي تبكي وتنتحب.

أدخلها والدها في البيت وقد حمل عنها ما كان بيديها، وأغلق منزله، وعلى صوت نحيب فاطمة استيقظت آمنة، والتي هرولت نحو ابنتها، وما إن رأتها حتى شهقت بصوت عال: وقالت ماذا فُعل بك ؟!!!

لم تجبها فاطمة، بل ألقت بجسدها التعب في حضن أمها وواصلت نحيبها، في حين جلس يونس واضعا يده على رأسه حزنا، لا يدري ما يفعله وما حدث لابنته، أما آمنة فشاركت ابنتها في النحيب، ظلوا على ذلك برهة من الزمن، حتى خارت قوى فاطمة واستسلمت للنوم في حضن أمها، ولم يتحمل يونس المشهد فلاذ بالفرار من المنزل، أما آمنة فظلت متخشبة في مكانها تخشى أن توقظ ابنتها، وقلبها يتقد نارا وألما لحال طفلتها الصغيرة، وألف سؤال وسؤال يدور بخلدها حول ما جرى لابنتها.

****

أخذ يونس يتجول في شوارع كربلاء، لا يدري أين يذهب، فترك الأمر لقدميه والتي قادته لمتجر صديقه سلامة، وما إن رآه سلامة ورأى حالته، حتى استقبله خير استقبال، وأرسل عامله لقضاء حاجة من حاجات المتجر، بغرض الاختلاء بصديقه، والذي قد تعمّم بالهمّ.

- ما حدث قد حدث، وها هي ابنتك قد عادت للمنزل، سالمة بفضل الله، لا تضع ما حصلت عليه من أجر عند الله بهذا الحزن.
- سالمة؟!!!! لقد عادت شبحا يا سلامة ولا أدري ما حدث لها، ألم يقل الإمام أن الأمر ليس له علاقة بالجنس؟ فما الذي حدث لها؟
- أظن أني أعلم ما حدث لها، ولكن لا أدري كيف أخبرك به ظننتك تعرف.
- أعرف؟ أعرف ماذا؟ وعدني الإمام بعدم فض الغشاء، ولا أظنه أهانها أو ضربها فهو أرحم بها مني، فما حدث لها.
- يا يونس، يا أخي الحبيب، أتتذكر ذلك القرص الأحمر؟

- نعم أتذكره ؟

- يا أخي، هذا القرص مسكن أشبه ما يكون بمنوم، وقد اعطيته لك لتصبر ابنتك على الألم الذي سيحدث لها.

- عن أي ألم تتحدث؟ لا أفهم.

- بدت الحيرة على وجه سلامة كيف يشرح الأمر ليونس، فتردد قليلا عن النطق، إلا أنه في النهاية حزم أمره على التصريح فقال: يا يونس المتعة ليست فقط في مكان الغشاء، هناك الدبر و....

- دبر؟!!!! الإمام أتى ابنتي من دبرها؟!!!! ألم يحرم ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم؟!!!

انتفض يونس من مكانه في حركة فاجأت سلامة، والذي حاول تهدئته إلا أن يونس قد أطاح بيد سلامة، قائلا وهو ممسك بتلابيب سلامة: أيها الكفرة الأنجاس، ماذا فعلتم بابنتي.

أخذ يرددها وهو يهز سلامة في عنف، والذي لم يستطع حتى الرد، فقد فاجأه رد فعل يونس، أخذت دموع يونس بالانهمار، وفجأة تركت يداه سلامة، وهرول خارجا، وهو

يرددها: أيها الكفرة الأنجاس، ماذا فعلتم بابنتي؟ قد صدق فيكم قول حيدر.

تتبعته أنظار الجميع في اندهاش، فقد بدا يونس كالمجنون، ظل يرددها ويرددها حتى غاب عن أنظارهم.

****

الفصل الرابع

عداوة وبغضاء

المكان: مجهول

جلس مجموعة من الأشخاص تبدو على هيأتهم أنهم من ذوي المناصب العليا، يظهر ذلك جليا من هيئتهم وتلك الرتب الكبرى المعلقة على أكتافهم، والملابس الفخمة التي يرتدونها، ونوع السيجار الموحد الذي بأيديهم، كانت الغرفة مظلمة إلا من ذلك الضوء الخافت المنبعث من إحدى النوافذ، ولم يشفع ذلك الضوء لإظهار وجوههم.

- **تنظيم القاعدة في العراق يتمدد بصورة مذهلة، التقارير التي يأتي بها (ش) صادمة.**
- **المشكلة يا سيدي أن استراتيجية هذا التنظيم تختلف عن القاعدة بالكلية، ولا زالت هناك محاولات لاختراق هذا التنظيم وجمع معلومات كافية للتعامل معهم.**
- **يا سادة أراكم تبالغون في الحديث عن هؤلاء، لا أراهم إلا شرذمة قليلون، لا خطورة منهم الآن، خصوصا مع حدوث الثورات في البلاد العربية.**

- يا (ع) لم تتعلم شيئا بعد، لا تستهن بخصمك مهما كان، فالأسد أصله قط.

- وما يفرق هؤلاء عن القاعدة، بل هم جزء منهم، بل هم أضعف، فوصولنا لقاداتهم كان أيسر من قادة القاعدة بكثير، وليست لهم شعبية القاعدة.

- هذا صحيح، حتى ظهور البغدادي وحجي بكر.

- ماذا تقصد يا (ش)؟

- أقصد أن البغدادي وحجي لديهم استراتيجيات وتكتيكات عسكرية مختلفة عن القاعدة تماما، ولديهم رؤية مختلفة تماما يظهر هذا في تحالفاتهم مع العشائر العراقية، لقد استطاعوا في فترة وجيزة ضم كثير من أبناء العشائر السنية في العراق.

- والعجيب أن اختراقهم الآن شبه مستحيل، فالاختبارات والعمليات الانتحارية التي يكلفون بها كل من انضم حديثا لهم كفيلة لعزوف عملائنا عن الانضمام إليهم، ولولا اختراقنا لبعض التنظيمات الجهادية التي كانت يوما تابعة لهم ما كنا لنعلم شيئا عنهم.

- إذا فلنرسل (ص).

- هل جننت، (ص) الآن لديه مهمة يستحيل من خلالها الانضمام لداعش.

- إذا فما الحل يا سيدي؟

- أرى أن نجند بعض السنة الموجودين بالعراق وبعض رؤساء العشائر ونجعلهم أسلحتنا ضد هؤلاء، فهذه الصحوات هي خير من يقدر على ردعهم.

- ولماذا يحاربونهم، والعدو لهما واحد... الرافضة.

- المال يا صديقي والمنصب يلين الحجر، ويجعل الصديق عدوا والعدو صديقا.

- وهل سيرضى حلفاؤنا من الشيعة أن يشاركهم في الحكم صحوات من السنة.

- هم أحوج منا لذلك، فلو استمر هذا التنظيم مع انشغال حزب الله وإيران بالوضع في سوريا فستكون نهاية الشيعة في العراق.

- ألا نناقش الوضع في سوريا، وخصوصا بعد إعلان مرسي دعم المجاهدين هناك، وكذلك الكل يعلم تمويل الخليج للإرهاب بسوريا.

قهقه أحدهم بصوت عالٍ وهو يجيب: وهذا ما نريده..

- وماذا عن جبهة النصرة؟

- جبهة الجولاني، بعد إعلان أمريكا أنها تنظيم إرهابي، ومحاولتها التحالف مع القوى الأخرى والجيش الحر، لا أرى منها خطورة، هي في النهاية خضعت للنظام الذي وضعناه للعالم، فما يضيرنا لو حكم الإسلاميون كما نريد.

صمت قليلا ثم أردف قائلا: مشكلتنا ليست في أن يحكم الإسلاميون، مشكلتنا في تطبيق الإسلام نفسه.

- صدقت يا سيدي، لو وجد نظام إسلامي اقتصادي وسياسي غير النظم التي وضعناها فهذا يعني لنا النهاية.

- أحسنت يا (ل)، ولكن أعلمني ماذا حدث في ملف الإخوان.

- شهور يا سيدي، وستباد هذه الجماعة بمصر.

- أكثر ما يدهشني يا سيدي، أن نسعى لإبادة جماعة الإخوان، وقد كانت ورقة رابحة في أيدينا.

- ورقة وقد احترقت، ظنناهم سيكون لهم نجاح صاحبهم، اقتصاديا وسياسيا، مع استسلامهم لمنظومتنا العالمية،

إلا أنهم فشلة، وقد ضاق الناس ذرعا بفشلهم، وصاروا لحما طريا بين مخالب النظام السابق، فكان لزاما استخدام أوراق جديدة للعب، ولذا يا (ل) ارجو أن يكون الأمر سريعا، لأننا نريد أن نفتح سوقا جديدا لبضاعتنا في مصر.

تعالت ضحكات الموجودين إلا أنه أردف بجدية: سوق الموت.

****

المكان: كربلاء... العراق

جلست زهراء أمام المرآة تمارس طقوسها المعتادة قبل النوم، فتمشط شعرها الأسود كالليل، الطويل كنخل العراق، وتكتحل بالإثمد، أو لعل الكحل هو من يكتحل بجمال عينيها، كانت ترتدي قميص نومها الوردي، والذي أظهر مفاتنها والتي كانت مختبئة من قبلُ خلف سواد عباءتها، فبشرتها البياض المشربة بالحمرة، وتناسق خلقتها، كانت فاتنة بكل ما تعنيه الكلمة، وكانت تعلم ذلك في نفسها، بل كانت تعشق كل جزء من جسدها، وتعلم أيضا أن مثل هذا الجسد لن يكون إلا لمن يستحقه، لعله وزير أو سفير أو طيار فتجوب معه

أنحاء العالم، وتتسوق وتتبضع، هي تستحق ذلك لأنها الأجمل، والأعرق نسبًا.

قاطع هيامها ذلك الصوت المفاجئ من خلفها، وتلك اليد التي كتمت فمها فجأة، انتفضت في قوة، وقد احتبست أنفاسها، وتسارعت دقات قلبها، كانت المرآة تعكس صورة حيدر وهو يطوقها، زاد ذلك من هلعها، خصوصا وأن حيدر لم يبدو لها ذلك الشاب الوسيم، بل كانت آثار كدمات وتشوهات قد ملأت وجهه، حاولت أن تتخلص منه وتدفعه من عليها، إلا أن قواها خارت، وقد ارتطم برأسها شيء حاد، وغابت عن الوعي...

****

أصبح فؤاد آمنة فارغا، فما حل بابنتها ليس بالهين، وقد هلعها ما قصته ابنتها عليها، وهي تعلم ان ابنتها تحتاج بأن يراها طبيب، فلا تكف ابنتها عن البكاء من شدة الألم، وزاد من هم آمنة السفر المفاجئ لابنها حيدر، واختفاء زوجها وعدم عودته إلى الآن للمنزل، ظلت تنظر الفينة بعد الفينة للطريق لعل بريد عينيها يلمح ابنها أو زوجها فيطمئن قلبها الخاوي، إلا أن أحدهم لم يظهر، أخذت تحدث نفسها بصوت

مسموع وهي جالسة في فناء المنزل: كيف ليونس أن يتركنا ونحن في هذا الهم، والكرب، أين أنت يا حيدر يا ولدي، فو الله لم ننعم براحة مذ رحلت.

كانت كلماتها هذه ترددها بنواح الثكلى، وهي تمرق ابنتها التي دفنت رأسها في الوسادة تخفي دموعها وألمها عن أمها.

اغتيلت السعادة في ذلك المنزل، ليحل القهر قاتلها ضيفا مالكا فيه.

دموع أم ثكلى، وابنة مقهورة، وأب تائه، وولد غائب.

****

المكان: الإسكندرية

- يا إخواني قف مكانك.

التفت محمود العائد لمنزله لصاحب الصوت، فإذا به رجل مفتول العضلات يمسك بعصا وحوله مجموعة ممن لا يختلفون عنه في شيء.

فتوقف محمود وباندهاش سأله: بما أخدمك يا أخي.

- لست بأخيك يا إرهابي.

- سامحك الله.

قالها محمود والتفت للانصراف، فانقض عليه ذلك البلطجي هو ومن معه وانهالوا عليه يضربونه بتلك العِصيِّ، صرخ محمود وحاول الهروب إلا أن كثرتهم وتتابع الضربات على جسده أسقطته فتكوم على الأرض، أخذوا يتناوبون على ضربه، والناس كلهم يشاهدون لا يجرؤ أحد منهم على الاقتراب، حتى صاحت إحدى الواقفات: انجدوا الشاب أيها الجبناء سيقتلونه.

وما إن انتهت من عبارتها، حتى ظهر أحمد وهو يحمل سنجة كبيرة مخترقا الصفوف المجتمعة، وما إن وصل لهؤلاء النفر حتى انقض عليهم، كان ظهوره مفاجئا لهؤلاء فتراجعوا إلى الوراء، كانت أثر المفاجأة عليهم سلاحه الأقوى ضدهم، فقفز في مهارة وأمسك بكبيرهم، وأخذ ينهال عليه بالسنجة في مهارة عالية يجرحه بها لا يقتله، فارتعد الباقي ولاذوا بالفرار.

لم يوقف ضربات أحمد للرجل، إلا شقيقه والذي قال في وهن: دعه يا أحمد... لا نريد مشاكل.

فقال أحمد وهو يلهث: يجب أن يؤدب هذا الوغد.. لن أدعه حتى أعرف من وراءه.

- يا أحمد.. دعه لا نريد مشاكل.

كانت عبارة محمود حازمة، فلم يجد أحمد بد من ترك الرجل، والذي لاذ بالفرار والدماء تسيل من جسده.

أما أحمد فقد حمل شقيقه بين يديه، عائدا به إلى المنزل.

****

ما إن رأت الأم ولداها حتى علا صراخها، وانهارت دموعها.

- ما الذي جرى لكما، انطقا لماذا أنتما صامتين؟

- يا أمي لم يحدث شيء، عطوة البلطجي الذي ظهر من فترة وجيزة في كرموز، جمع أعوانه وانهالوا على محمود بالضرب.

- عطوة؟!!! وما شأن عطوة بمحمود.

التفت أحمد لشقيقه الذي استقل فراشه، وقال: هذا جوابه عند محمود.

تحامل محمود الألم وقال في صعوبة: لا أدري يا أخي، أنا حتى لا أعرفه، كل ما قاله لي عندما رآني يا إخواني.

- إخواني؟!!!

- نعم هذا ما قاله، ولم أفق بعدها حتى رأيتك ممسك به.

- احمد ربك، فلولا أن أحد الصبية العاملين معي جاء فأخبرني أن عطوة يتشاجر معك ما كنت لأعلم بما يحدث.
- الحمد لله على كل حال يا أخي، ولكني لا أدري ما يريده عطوة مني أو من الإخوان، وكيف لم تأت الشرطة لقد كنا على بعد أمتار من محطة مصر.
- الشرطة؟!!! أي شرطة تلك، البلد في حالة يرثى لها، لا أمن ولا أمان ولا بنزين والبلطجية في كل مكان، البلد تنهار فعلا.
- كل شيء متعمد لإحراج الرئيس مرسي، و...
- دعكم الآن من السياسة، وقم يا أحمد استدعي لشقيقك الطبيب.
- يا أماه عمر الشقي باقي، ومحمود والحمد لله بصحة جيدة.

قالها أحمد وهو يضحك، وضحك الجميع

****

المكان: العراق

بدأت زهراء في الإفاقة من الإغماءة التي أصابتها، شعرت بصداع شديد يجتاح رأسها، وألم شديد أسفل رأسها، إلا أنها قاومت كل ذلك وفتحت عيناها، لتجد نفسها ملقاة أرضا في مكان مجهول بالنسبة إليها، وبجوارها حيدر منكس الرأس يبكي، أول ما قالته: أين أنا وماذا حدث؟

انتبه إليها حيدر، فسارع بمسح دموعه، وحاول الاقتراب منها ليرى ما ألم بها، إلا أنها دفعته عنها، وقالت ما الذي فعلته بي أيها اللعين.

كان وصفها إياه باللعين كالخنجر المغروس في قلبه، حبيبة عمره تصفه بهذا الوصف الشنيع، تحطمت نفسه وانعقد للحظات لسانه إلا أنه قال في ثبات: اللعين هو الإمام المرجع، أبوك.

- اخرس أيها الحقير ماذا تقول، كيف تجرؤ على وصف أبي الإمام الفاضل بذلك، سيأتي إليك وسيخلصني منك أيها الحاقد.

- والدك لعين يا زهراء، لا جدال في ذلك، ذلك المجرم استغل جهل وحاجة أبي فاشترى أختي بثمن بخس، ليتمتع بها.
- أختك من ؟ فاطمة؟
- نعم، تلك الطفلة يتمتع بها ذلك الكهل الخرف، أي دين هذا وأي فطرة تلك؟

ثم أخذ يبكي في صوت مسموع، وقد دارى عينيه بين كفيه، تمنى وقتها أن تقترب منه وأن تحاول أن تخفف همه، كان على يقين أنها لو لامست رأسه بكفيها فذلك كفيل بمسح كل هموم حياته، فكأنه لم ير بؤسا قط، إلا أنها لم تفعل.

بل قالت له في أنفة وكبر: أتفهّم شعورك، ولكن قد أباح الله له ذلك.

- أي رب يبيح التمتع بمثل من في عمر فاطمة.
- لم يكذب من رماك بالزندقة.
- زنديق؟!!! طلب العدالة ليست زندقة فإن كان الدين أن يتمتع بطفلة فلم منعني أن أتمتع بك؟

- تتمتع بي أنا أيها الوغد، وهل طلبت منه ذلك أيها المجنون؟!!!

- وماذا في ذلك؟

ضحكت بهستيريا ثم قالت: أنت تتمتع بي أنا، وهل مثلي يتمتع بها أيها الغبي، أنا ابنة الأشراف، و...

- أليس دينكم يأمركم بهذا، أليس نحن من طينة واحدة، فأين العدالة إذن.

- تقارن نفسك بنا، حقا إنك لمجنون.

- ومن جنوني، أن أمرك الآن بيدي، وسأنتقم لأختي بك، وسأجعل هذا الكهل يتحسر على ما فعله بنا.

- ماذا تنوي أن تفعل يا حيدر؟

قالتها قد انكمش جسدها وارتجف رعبا.

- سيكون جسدك الآن ملكي.

صرخت زهراء بصوت عال، وحاولت التملص من بين يدي حيدر الذي طوقها محاولا تقبيلها بعنف، إلا أنها لم تستطع، وبقوة وشراسة بدأ حيدر في تمزيق ثيابها، أخذت تصرخ وتصرخ، ولا مجيب، وفجأة توقف حيدر وهو يغمغم: لا أستطيع لا أستطيع أن أفعل مثل هذا.

ثم ابتعد عنها، لم تتوقف زهراء عن الصراخ، ولم تهدأ إلا عندما قال حيدر: اطمئني فمثلي لا يقدر على أذية أحد، لا سيما إنسانة قد نذر إليها مشاعره يوما.

خلع حيدر قميصه الذي كان يرتديه وألقاه عليها قائلا: ارتدي هذا، وقومي فسأوصلك إلى كربلاء.

ارتدت قميصه ودموعها تنهمر منها، كانت هيئتها مزرية جدا، وقلبها يتقد نارا، ولم يكن في بالها وقتها سوى أن تسيم حيدر سوء العذاب عما فعله بها.

****

المكان: الإسكندرية

أخذ أحمد يلاعب تلك السحابة الخفيفة من دخان سيجارته، وقد توسد نحر هذه الفتاة العارية، وقد لاحظت انشغاله عنها وأن ثمة موضوع قد سرق لبه.

فقالت متلطفة في دلال: من تلك التي شغلت عقلك وقلبك عني؟

لم يجبها أحمد وكأنه لم يسمعها، فقالت مستنكرة: ألهذه الدرجة تفكر بها.

هنا انتبه أحمد قائلا: بمن؟

قالت: بتلك التي شغلتك عني.

قهقه أحمد واعتدل قائما وهو يقول: أتغارين علي ؟!!!

- وما في هذا؟

- لقد اتفقنا منذ البداية أنه ليس في علاقتنا هذه لا غيرة ولا تحكمات.

- فما يشغلك عني إذن؟

- لا شيء، يستطيع أن يشغلني عنك يا أشهى من في الأرض.

- أشهى؟!!! أبهذا تنعتني، لا زلت تفتقر إلى اللباقة.

- لم أقل يوما أني شاعر، ولا تنتظري يوما أن أكون.

احتضنت جسده العاري وألقت بنفسها بين يديه وهي تقول في شغف: لا أريدك شاعرا ولكني أريدك وفقط.

ابتسم مجاملا فقد كان عقله وقلبه فعلا ليس معها، فما حدث لشقيقه يعلم أن له أبعاد أخرى، أبعاد مخيفة حقا.

****

المكان: كربلاء... العراق

أرسلت الشمس أشعتها لتخترق ظلمات الغرفات الثلاث في بيت حيدر، لتوديع ليلة في غاية الكرب، وتعلن بدء يوم

جديد، استيقظت وقتها فاطمة على صوت انغلاق الباب، فخرجت في إنهاك شديد، لتجد أن أمها قد خرجت من البيت، ولا زال البيت خاليا من ركنيه والدها وحيدر، وفي إعياء شديد عادت لفراشها، وقد بدأت دموعها في الانهمار مرة أخرى، فما تشعر به من ألم فاق احتمالها، وكان الأشد عليها ذلك الألم الذي اعتصر قلبها.

أما آمنة فقد توجهت لدكان سلامة، والذي كان للتو يقوم بفتحه، فسلمت عليه، فرد عليها السلام باقتضاب، قالت له في أسى: يونس لم يبت أمس في المنزل، ولا نعرف حتى مكانه، وأنت صديقه الوحيد، ألا تدري إلى أين ذهب.

أجابها وهو يتحاشى النظر لعينيها: يونس رأيته بالأمس، وتشاجر معي محملا إياي مسئولية ما حدث لفاطمة، ما ذنبي أنا و...

قاطعته: فأين هو الآن؟

- لا أدري، الصدمة كانت قوية عليه، أخذ يسب ويصرخ، ولم أره من وقتها.

بدت الحيرة على مُحيّاها، فسارع سلامة قاطعا حيرتها بقوله: اطمئني يا أم حيدر، وسأبحث عنه اليوم، وسأرسل

اليوم زوجتي لتذهب بكم عند الطبيب ليرى فاطمة، ولا تهتمي لأمر المال.

ابتسمت آمنة شاكرة، فهي تعلم مدى الصداقة بين زوجها وسلامة، وأن استجابتها لخدمته لا يخدش من كرامة أسرتها شيئًا.

انصرفت آمنة ولكن ليس لمنزلها بل لمنزل محمود صديق حيدر.

كان منزل أسرة محمود يجاور مسجد الحسين بكربلاء، فاتجهت أولا للمسجد ووليت وجهها شطر قبر الحسين، وتعلقت بساتر القبر وهي تقول: يا إمامنا، قد أطعناك وأطعنا إمامك فكان ما كان، فلا تخذلنا لطاعتنا إياك، وأرجع لي زوجي، واحفظ لي ولدي، واشف ابنتي واسترها، أنت القريب من الله وبك أستشفع.

قطع ابتهالها تلك الجلبة بساحة المسجد، وقد اتجه جميع المريدين لينظروا أسبابها، وبداعي الفضول اتجهت معهم، وعند وصولهم لساحة المسجد، وجدت مجموعة من جنود الجيش العراقي والشرطة، يحيطون بشاب وينهالون عليه ضربا، من شدة الازدحام لم تتبين الشاب، إلا أنه تنامى إلى

أسماعها أن هذا الشاب قد اختطف ابنة الإمام المرجع، وقد أرجعها اليوم ممزقة الثياب، تراقص قلبها وهي تستمع لتلك الهمهمات، لا تدري سر الفرحة التي انتابتها وقتها، هي تحب وتقدر الإمام المرجع، ولكنها تشمت فيما حدث له الآن، كما تدين تدان، هكذا حدثها قلبها، ابتسمت وحاولت أن ترى من هذا الشاب الذي سرق حزنها وأدخل السرور في قلبها، فاقتربت واقتربت...

حتى تبدل السرور لهلع، والابتسامة لدموع، وفرحة القلب لانفطار..

فقد كان الشاب هو حيدر، بل ما تبقى منه.

صرخت وهي تزيح ذلك الجندي الذي كان يحول بين الحضور وبين الشاب، وتلقي بنفسها على ابنها لتحميه من ضربات الجنود، وقد أدمي جسده، وغارت عيناه من الوهن والضعف، فتوقف الجنود عن الضرب، وهم ينظرون لآمنة وهي تهدهد ابنها كالطفل وتنتحب، حتى برز الإمام المرجع من غرفته التي بالمسجد، فأفسح له الجميع، حتى صار أمامهما، وقال بصوت عال: خذوه لسجن تسفيرات، ليكون عبرة لمن لا يعتبر.

ثم أشار لآمنة قائلا: لم تستطيعي أن تحسني تربية ولدك، ولولا فضل يونس وولاؤه لنا ولآل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم لأذقْتكم العذاب.

- يا سيدي الإمام العفو، والمغفرة، ما فعله حيدر ما كان إلا طيش شباب، وأرجو منك العفو والمغفرة، سألتك بمنزلة آل البيت أن تعفو عن حيدر.
- قد صدر الحكم مني يا امرأة، اذهبي وراعي زوجك وابنتك خير من المكوث هنا.
- زوجي؟!!! وأين زوجي؟!!! أم قد خرج في نزهة هو الآخر مع صديقه؟!!! قد نذرنا حياتنا لخدمتكم، فلم تفعلون بنا هذا، لقد دمرت ابنتي بتمتعك بها، وقد مارست معها الشذوذ وهي بعد لم تتجاوز العاشرة، وها أنت تريد تدمير ابني، والذي ما فعل ذلك إلا انتقاما لشرف أخته.

كانت مفاجأة للجميع قول آمنة، حتى إن الإمام المرجع نفسه ارتد للخلف من هول صريح كلامها، وأخذ الحضور كله يتهامس، إلا أن الإمام استعاد عقله من المفاجأة وقال: خذوا هذه الدجالة الكذابة، التي تكذب على الأئمة من هنا.

سارع اثنان من الجنود فحملوها عن ابنها فاقد الوعي، والذي كانت تتشبث بجسده أمه، حتى وهنت قوتها فتركته وهي تصرخ: اتركوا ولدي... اتركوه يا كفرة...

ظلت تصرخ بذلك حتى اختفت عن الحضور، في حين حمل باقي الجنود حيدر ليضعوه في إحدى سيارات الجيش فتنطلق به حيث أمرت، وعاد الإمام لغرفته، في حين تفرق الجمع لشئونهم.

ولم يتبق سوى قبر الحسين شاهدا على مأساة جديدة في مقامه.

مأساة لتوها بدأت...

الفصل الخامس

القهر

المكان: العراق

الزمان: 2013

بدا الاضطراب على مجلس شورى الدولة الإسلامية بالعراق، وكان التوتر جليا على ملامح أبي بكر البغدادي، وكأن توتره قد احتل وجوه القوم، إلا حجي بكر، والذي ظهر عليه تماسك شديد، وقد أخذ بزمام المبادرة في الحديث قائلا: بعد تلك الأخبار التي نمت إلينا من بعض المخلصين، بأن الجولاني قد استقل بالحكم عنا، فليس لنا إلا إيقاف ذلك الآبق.

أشار أبو عبد الرحمن البيلاوي لحجي بالسكوت قائلا في حزم: لا تصف الجولاني بمثل هذا، ولا أظن هذه الشائعات التي تلوكها الألسن إلا من الحاقدين، ولا نريد أن نتعجل فنهدم ما بنيناه هناك، التثبت التثبت.

قال حجي في غضب: المصادر موثوق بها، الجولاني يتعامل هناك وكأنه الأمير وهو صاحب القرار الأول والأخير،

والظواهري يعلن تأييده للجولاني ليل نهار، كل هذا يؤكد أن الجولاني قد استقل بالحكم عنا.

قال أحد أعضاء مجلس الشورى: أؤيد رأي حجي، فمنذ تولي الجولاني مهمته في سوريا، وقد نأى بتنظيم جبهة النصرة عنا، واستبداله المستشارين الذين عينهم البغدادي، بمستشارين آخرين خير دليل على ذلك، كما أنه لم يستشرنا في تحالفاته مع الجيش الحر العلماني، وحتى نصف الخراج لم يعد يمدنا به، الجولاني فعلا يتصرف وكأنه الأمير.

قال آخر: ولكن أي رد فعل منا متعجل سيكون عواقبه وخيمة، ماذا إذا كانت كل أفعال الجولاني لها تبريراتها، المفترض أن نسأله عما بدا لنا ونسمع جوابه، قال تعالى: {أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ}.

- من الذي تنعته بالفاسق يا أبا دجانة؟!!!

قالها حجي في غضب شديد، في حين هز أبو دجانة رأسه نافيا وهو يقول: لا تسئ الفهم يا حجي ما قصدت إلا التثبت.

- وأنا أؤيد كلام أبي دجانة، ما علمنا على الرجل من سوء، واتهامه بالخيانة والخروج عن طاعتنا أمر جلل يجب التأكد منه أولا.

قال آخر: واستدعاؤه الآن للتحقيق معه سيزيد الأمر سوءا، وربما قد نما إليه أمر ريبتنا به فيصير ما نخشاه واقع فعلي و...

قاطعه صوت البغدادي وهو يقول في حزم: اليوم سنعلن على الملأ أن تنظيم جبهة النصرة ما هو إلا تنظيم تابع لدولة الإسلام في العراق، وأن أفعاله منسوبة إلينا، وهنا الكرة ستكون في ملعب الجولاني.

بدأ التوتر على أبي دجانة وأبي عبد الرحمن في حين علت ابتسامة على وجه حجي، فالأمور تسير كما كان يتوقع، أو لعلها كما كان يتمنى.

****

المكان: سجن تسفيرات...محافظة صلاح الدين

عبرت سيارة الترحيلات العسكرية المصفحة البوابة الأمامية لسجن تسفيرات، وأثناء توجهها للبوابة الثانية، تتبعتها أنظار الجنود المحيطين بالمكان، وحتى (كاميرات) المراقبة

صوبت اتجاه تلك السيارة، حتى اجتازت السيارة ذلك الممر الطويل الذي يفصل البوابتين عن بعضهما، وتوقفت أمام حراسة البوابة الثانية، ودلف من السيارة جندي ضخم الجثة، يرتدي زيا عسكريا، ونظارة قد أخفت غالب ملامحه، وفي حركة آلية أدى التحية العسكرية على الضابط الموجود لاستقباله أمام تلك البوابة، وسرعان ما أخرج من معطفه رزمة من الأوراق وناولها لذلك الضابط، وفي حين انشغال الضابط بمطالعة الأوراق، أخذ الجندي الضخم يقلب وجهه في أركان المكان، قد كان سجنا معدا بإحكام شديد فله سوران دائريان ولكل سور بوابة ضخمة وقد أحاطت بالسور كاميرات مراقبة في كل مكان وقد تسور كل جزء منه مجند ممسك بسلاحه ويحيط بالسور الثاني ممر دائري يتناوبه الجنود ذهابا وإيابا في حركات عسكرية مدروسة، حاول الجندي اختلاس بعض النظرات لما داخل البوابة الثانية، إلا أن البوابة مغلقة تماما.

- اسمه حيدر ؟ !!! عجيب، هل هو وهابي؟!!!
- لا أدري يا سيدي، قد أرسل اليوم إلينا وأمرت أن آتي به إلى هنا.

صمت الجندي الضخم وقد اقترب من الضابط وكأنه يريد أن يسر له بنجوى، فقال متهامسا: ما سمعته أن الإمام المرجع بكربلاء هو من أوصى باعتقاله.

ابتسم الضابط وأشار بيديه لمؤخرة السيارة قائلا: فلنرى وصية الإمام المرجع.

أدى الجندي التحية مرة أخرى، ثم توجه للسيارة وقام بفتح بابها الخلفي، وانتزع حيدر من داخلها في قوة، استسلم لها حيدر والذي بدا عليه الإعياء الشديد، أثر تلك اللكمات الواضحة على وجهه، وقد حلق رأسه، ونحل جسده، واصفر جلده، جر الجندي حيدر الذي لم تعنه قواه على الوقوف، حتى ألقى به أمام الضابط في عنف، أخذ الضابط يتأمل حيدر الملقى على الأرض أمامه، وبلا مبالاة دفع بالأوراق بعد أن وقعها للجندي، قائلا: أرسل تحياتنا لقيادتك، وقل لهم إننا سنكرم ضيفنا خير الكرم.

قال جملته الأخيرة، وهو يقهقه، وعلى إثره انفجر الجنود المحيطين به بالضحك، وفي جهد بالغ، رفع حيدر عينيه الغائرتين تنظر لذلك الضابط في تحدي وقوة أخرست تلك الضحكات.

ارتسمت ملامح الغضب على وجه الضابط وهو يأمر من حوله قائلا: ادخلوه فلديه حفلة استقبال عظيمة، ولكن ليس قبل أن يراه قائد السجن.

انتزع حيدر من الأرض بعضهم وجروه تجاه البوابة، التي فتحت فور اقترابهم منها، وانتهز الجندي الضخم الفرصة ليشبع فضوله فألقى نظرة إلى الداخل، وما إن فتحت على مصراعيها، انتفض جسد الجندي وتسارعت دقات قلبه من أثر المفاجأة، فقد كان ما رآه مفزعا حقا، لقد رأى الموت بعينيه.

******

المكان: ريف إدلب

- ما الذي يفعله البغدادي، هل يريد احراجي؟!!!

قالها الجولاني وقد اجتمع بمجلس شورته في سوريا، وأخذ يتطلع في وجوههم وكأنه ينتظر منهم جوابا.

قال أبو اليسر: يا أخي، ما فعله البغدادي من إعلان أن جبهة النصرة تابعة لدولة العراق، ما يقصد به سوى التأكد من ولاءنا لدولته، بعدما ساوره الشك تجاهنا، خاصة نحوك

أنت، فلطالما نصحتك بالتواصل معه واستشارته حتى لا توغر صدره وتعن عليه الشيطان.

- الشيطان هو حجي بكر، لا يزال يبث بغضه غير المبرر لي في نفس البغدادي حتى غرس الوحشة بيننا.
- دعك يا أخي من حجي، لو أردت مني النصيحة، فعليك بوصل حبل الود مع البغدادي، وتجديد البيعة.

رفع أحد الموجودين يده للكلام، فأذن له الجولاني قائلا: قل يا أبا مصعب.

قال: في نصيحة أبي اليسر، السلامة لا شك، وعدم شق الصف الجهادي، وما يضيرك إن جددنا البيعة للبغدادي؛ وهي في كل حال بيعة شرفية فهم في انشغال عنا بالعراق، ولا أظن الأمر سيهدأ هناك، ما قاله أبو اليسر هو الحق بلا شك.

تنهد الجولاني في غير ارتياح وبدأ القلق على مُحيّاه وقال في أسى: ما يحزنني أن مثل هذا الاختلاف يأتي بعد توغلنا بالأراضي السورية، وسلسلة من الانتصارات على النصيرية، حتى صرنا أقوى فصيل جهادي في سوريا، وقد

كدنا أكثر من مرة القضاء على المجرم بشار، لولا أن الحظ حالفه في الهروب.

صمت قليلا ثم تساءل: وهل رأي أبي اليسر وأبي مصعب هو نفسه رأي الجميع؟

أومأ الجميع رءوسهم بالموافقة، إلا أنه ثمة يد رفعت طالبة للحديث.

فقال الجولاني في تلهف: ما الذي تود قوله يا أبا إياس.

التفت الجميع لأبي إياس في استنكار، فقد كان أبو إياس أصغرهم سنا، ولطالما كان محط تساؤلاتهم عن ضم الجولاني له في مجلس الشورى، وهو بعد لم يتجاوز الثلاثين، وليس ممن له بلاء يذكر في المعارك.

قال أبو إياس: لا جرم أن رأي أصحاب الشورى فيه إيثار السلامة وتوحيد الصف.

انتفخت أوداج مجلس الشورى وخاصة أبو مصعب والذي علت عليه ابتسامة فخر، إلا أن أبو إياس استطرد قائلا: ولكن هذا مقبول قبل التسجيل الصوتي للبغدادي، أما بعده فهذا انهيار للجبهة ككل.

بدا الاهتمام على الجميع، وتساءل الجولاني: وكيف ذلك؟

ابتسم أبو إياس وواصل حديثه قائلا: لا شك أن البغدادي، لم يقدم على مثل هذه الخطوة، إلا ليجعل جبهة النصرة بين أمرين إما الموافقة وإعلان ذلك، وهذا يعني عزل الجولاني وكل أعضاء مجلس الشورى الذي يرتاب بهم، وتعيين مجلس وقائد جديد، بل لا أشك إن قام بتصفية المجلس ككل.

امتعق وجه الجميع، وواصل أبو إياس: وإما إعلان رفضنا ولو بالسكوت عن تصريحاته.

- وماذا يعني هذا؟

- وهذا يعني الحرب.

- الحرب؟!!!

صاح بها الجميع.

- نعم الحرب، فحلم البغدادي ضم الشام إلى العراق ليكوّن خلافته تلك، وهو يرى ما فتحناه من مدن وقرى بدمائنا وأشلائنا هو حقه ونحن بعض مقاتليه، فرفضنا للدخول في طاعته بالنسبة إليه خروج عن الجماعة وطاعة ولي الأمر، وهذا يستلزم المقاتلة.

- وما تقترح يا أبا إياس، وقد علمت أن غالب جندنا -وإن لم يصرحوا- ولاؤهم لا يزال للبغدادي، ولم يقع من قبل أن يقاتل المجاهدون بعضهم بعضا، وقد نزحوا إلينا من بلادهم ليقاتلوا بشار لا البغدادي.

- ولذا لدي اقتراح، أولًا: يجب إعادة توزيع الجنود، وإيكال القيادة للجند الذي ولاؤهم للجبهة وليس لأحد آخر، ثانيًا: عمل حملة توعية بكل تجاوزات البغدادي وتنظيمه ووحشية هذا التنظيم.

- هل تعتقد أن هذا كافي يا أبا إياس، ما تقوله لن يوقف شيئا وغدا ستجد الجند بين طاعتنا وطاعة البغدادي، و...

قاطع أبو إياس، أبا مصعب وكأنه لم يسمعه وواصل حديثه: وأخيرا يا سيدي، يجب أن يخرج تسجيل بصوتك يعلن براءتك من تنظيم الدولة في العراق، وتجديد البيعة لتنظيم القاعدة وللشيخ الظواهري.

- القاعدة ؟!!

- نعم القاعدة، فبهذا نوسد الأمر لأهله، فنحن والبغدادي لنا بيعة في عنق القاعدة، ومن خلع من عنقه تلك البيعة

هو الملام؛ وبهذا يكون البغدادي بين أمرين أحلاهما مر إما خلع البيعة التي في عنقه للقاعدة، وبهذا أحل لنا قتاله، إن وقع، وإما الرضا بالأمر الواقع.

بهت الجميع، وابتسم الجولاني فقد كان رأي أبي إياس هو ما كان يدور طول الوقت بخلده، فالمعركة وقتها ستكون بين القاعدة وبين البغدادي، معركة شعارها البقاء.

****

المكان: سجن تسفيرات

ما رآه حيدر لم يكن يظن أنه موجود إلا في قصص الرعب الأمريكية المبتذلة، فما رآه عندما فتحت بوابة الثانية كان مرعبا حقا، كل مشاهد التعذيب قد ظهرت أمامه وكأنه في الجحيم وهؤلاء زبانية جهنم، فهؤلاء معلقون بالسلاسل كالذبائح من أرجلهم، ورءوسهم لأسفل تترنح والدماء تملأ أجسادهم وسياط سجانيهم تنهال عليهم، وأولئك قد ربطت أيديهم بأرجلهم وألقوا عرايا على الرمال الساخنة التي لم تفتر على شواء جلودهم، وهناك ثلة قد انهالت عليهم

ضربات متتالية من العصوات التي يحملها الجنود، وآخرون وآخرون..، إلى أين أرسله الإمام المرجع، أإلى جهنم؟

سار به الجنود إلى غرفة القائد العسكري بالسجن، وما إن دلفوا إلى مكتبه حتى نزعوا أيديهم عن حيدر والذي لم تحمله قدماه فسقط أرضا، سمع حيدر صوتا أجش يعلوه قائلا: انصرفوا الآن حتى أستدعيكم.

وما إن انتهى المتحدث حتى سمع أصوات أقدام الجنود تبتعد، ورأى ذلك الحذاء العسكري أمام عينيه مباشرة، فرفعها إلى أعلى في وهن شديد، ليرى القائد العسكري، كانت هيئته عسكرية بكل ما تعنيه الكلمة ضخامة رأسه وجسمه وحتى شاربه كان ضخما، فوجئ حيدر بيد القائد تساعده على النهوض، وتجلسه على المقعد المقابل لمقعده، وما إن جلس حيدر، حتى قال القائد: حيدر يونس!!! أليس من العجيب أن يأتي إلى هنا شاب شيعي؟!!!

صمت بعدها وكأنه ينتظر جوابا من حيدر، والذي لاذ بالصمت فقد كان الرعب قد سيطر عليه، ولذا أكمل حديثه القائد: لم يكتفي الإمام المرجع، بتدمير شقيقتك وإذ به يريد تدمير شاب شيعي صالح.

نظر حيدر باندهاش إلى القائد وهمّ أن يتكلم إلا أنه آثر الصمت، فأردف القائد وقد رسم على وجهه ابتسامة: لا تندهش، فليس هناك مسجون هنا إلا وقد تحريت عنه وسبرت أخباره.

أخذ القائد يتحرك في مكتبه ذهابا وإيابا وقد وضع يديه خلف ظهره، وحيدر يراقبه ولا يجرؤ على النطق، حتى توقف القائد أمام حيدر ومال بجسده عليه وكأنه سيبوح بسر: أريدك أن تعلم أني لا أحب الإمام المرجع، هو رجل شهواني قذر، تاجر دين.

تفاجأ حيدر بصراحة القائد، والذي اعتدل واستوى قائما وهو يستطرد: ولكني الآن لا أستطيع أن أفعل لك شيئا أو أساعدك، ففي النهاية أنا هنا أؤدي عملي، وليس هناك بد من تنفيذ أمر اعتقالك، ولا تقلق سأنظر ما يمكنني أن أفعله لك.

ابتلع حيدر ريقه في صعوبة، وواصل القائد كلامه: لن ترع، سأكون رحيما بك، سأحول بينك وبين ما رأيته من العذاب منذ قليل، ففي النهاية أنت شيعي وأنا لا أعذب شيعي، وإنما نذرت عذابي للوهابية وفقط.

ثم علا صوت القائد وهو ينادي الجنود: تعالوا حالا.
فانفتح الباب، ودخل اثنين من الجنود، فأشار القائد لحيدر وهو يقول: أدخلاه زنزانة 9 ولا يمسه أحد بسوء.
أدى الجنديان التحية العسكرية، وأخذا حيدر لمصير جديد مجهول.
****
المكان: صحراء العراق
في نشوة عارمة وفرحة لم يستطع أن يخفيها صاح حجي:
ما توقعته حدث، الجولاني بهذا التسجيل الصوتي، يعلن انشقاقه من دولتنا والعصيان لأمر أميرنا البغدادي، ثم يعلن مبايعته للظواهري، وللأسف لم تتوقف هذه المهزلة عند هذا الحد، بل تظهر كلمة صوتية للظواهري يدعونا والجولاني لضبط النفس، وأن للبغدادي العراق ولا دخل له بسوريا، وأن للجولاني سوريا ولا دخل له بالعراق، ظن أن ببيعتنا الشرفية للشيخ أسامة، يلزمنا بيعته والتبعية له، فيقضي فينا ما يشاء!!!.
- أراك فرحا بهذا يا حجي.

قالها البيلاوي، في تعجب، إلا أن حجي أجابه مبتسما: طبعا، وحق لي أن أفرح ليس لأن الأيام قد كشفت بُعد نظري فحسب، بل لأن الله يخلص الصف من المنافقين.

قال البغدادي: صدقت يا حجي، وقد زادت مكانتك عندنا أضعافا مضاعفة، والآن وجب علينا أن يكون لنا رد فعل وقوي، وهذه قراراتي.

صمت البغدادي وهو يتطلع إلى العيون المندهشة، فهي المرة الأولى التي لا يشاورهم بها البغدادي، حتى حجي علت عليه الدهشة، في حين قال البغدادي بنبرة حادة:

أولا: اليوم سأسجل كلمة صوتية أعلن عدم بيعتنا للظواهري، وأن دولتنا لا تتبع أي تنظيم بل التنظيم هو ما يتبع الدول.

ثانيا: إرسال جيش قوامه خمسة آلاف جندي إلى سوريا، يلتحق بمنطقة الرقة، فأميرها الذي أمره الجولاني قد أرسل إلي مجددا البيعة متبرأً من الجولاني وعمله.

ثالثا: مهمة هذا الجيش هو إحكام السيطرة على الأماكن التي استولت عليها الجبهة وإعادتها لحكمنا.

رابعا: قبول التائبين والمنضمين من جبهة النصرة قبل المقدرة عليهم.

خامسا: تأمين الحدود الشمالية للدولة الإسلامية.

سادسا: تأمير حجي بكر على هذا الجيش.

تفاجأ الجميع بما فيهم حجي، وقد انتزع أثر المفاجأة من عليه قول البغدادي له: سأوليك على ولاية الشام، كما أنني قد اخترتك نائبًا لي وأميرًا من بعدي، ستبدأ على يديك من الآن بناء دولة الإسلام في العراق والشام.

****

المكان: سجن تسفيرات

كان المكان معتم كريه الرائحة كالأيام التي مرت على حيدر، أخذ يدور ببصره في أركان المكان يتفحص تلك الوجوه التي تشاركه زنزانته، لم يعنه الظلام الدامس على تمييز تفاصيل الوجوه إلا أنه قد ميز بين أشخاصهم، كانوا تسعة هو عاشرهم، كانوا ملتحين، متباينة أجسادهم، اتخذ حيدر ركنًا فارغًا واحتبى، ظل الصمت سائد المكان لفترة، حتى علا

صوت أحدهم قائلا: السلام عليكم يا أخي صبرك الله على بلائك... أخوك أبو الحسين القاسم من سامراء.

هم حيدر بالتعريف بنفسه ردا على المتكلم إلا أن همّه أبَى على الكلمات أن تُنطق، فلاذ بالصمت وأخذ يستعيد ما حدث له ولأهله في تلك الفترة الوجيزة وكيف تحولت أحلامه إلى كابوس، وما إن تذكّر أمه، حتى استسلمت عيناه بعد طول صبرها على سد فيضان دموعه، ففتحت السبيل لهذه الدموع، فما كان له إلا أن يجهش بالبكاء، أخذ يبكي بحرقة شديدة، وقد أخفى وجهه بين يديه محاولا كتم نحيبه، إلا أنه فوجئ بتلك اليد التي تحتضنه في حنو، وسمع صاحبها يقول: هون عليك يا أخي... يبتلى المرء على قدر دينه... {الم (1) أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ (2) وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ}.

كانت كلمات الرجل والآيات كالبرد على قلبه المتقد نارا، هدأت دموعه قليلا، وأنصت للمتكلم والذي واصل حديثه قائلا: ابتلي الأنبياء قبلنا، {وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ

لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَإِ الْمُرْسَلِينَ}، فوجودك في سجون الصفوية خير دليل على أنك على سنة الأنبياء ورسول الله صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم.

الله معنا في غياهب هذا السجن وناصرنا لا محالة هذا وعد الله، ثم إنك قد رزقت بأصحاب هنا من خير الناس، و...

- يا شيخ اسمي حيدر يونس، وأنا شيعي من كربلاء.

تعالت صيحات استنكار المسجونين، إلا أن الشيخ أسكتهم وقال لحيدر: وأنا أبو الحسين القاسم السامرائي، ولكن أجبني ما الذي يفعله شيعي في هذا المكان؟!!!

وهنا وجد حيدر نفسه يقص على أبي الحسين قصته كاملة، وتابع الباقي حديث حدير فقد وجدوا ما يقتل مللهم في هذه الليلة.

****

المكان: القاهرة...ميدان رابعة

- ***زدني بفرطِ الحبّ فيكَ تحيُّراً وارحمْ حشىً بلظى هواكَ تسعَّراً***

وإذا سألتكَ أنْ أراكَ حقيقةً فاسمَحْ، ولا تجعلْ جوابي: لن تَرَى

يا قلبُ! أنتَ وعدتَني في حُبّهمْ صبراً فحاذرْ أنْ تضيقَ وتضجرا

إنّ الغَرامَ هوَ الحَياة، فَمُتْ بهِ صَبّاً، فحقّكَ أن تَموتَ، وتُعذَرَا

- اللّه... اللّه

تعالت بها الصيحات المجتمعة في إحدى الأمسيات داخل واحدة من الخيم المتناثرة في ميدان رابعة، كانت هذه الخيمة مآل الكثير، فبها تعرض الكثير من الفقرات المختلفة، بعد صلاة التراويح وقبل التهجد، شعر، مسرحية، أناشيد دينية، وغير ذلك.

كان المسئول عن هذه الخيمة هو محمود وثلة من أصدقائه متعددي الانتماءات، وقد تفرغ محمود لهذا العمل بعد أن توقف عمله وأغلق جهاز الأمن دار النشر التي يعمل بها.

- ابن الفارض؟!!! سامحك الله يا آسر.

قالها محمود لآسر الذي ألقى الأبيات منذ قليل، ضحك آسر وهو يطوق محمود بيمينه وقال: يا محمود، رجاء لا أريد محاضرة في علم العقيدة وقول ابن الفارض بالاتحاد إلخ... إلخ... إلخ.

انفجر محمود ضاحكا قائلا: يا آسر... كما أقول لك دائما، مكانك ليس هنا، مكانك مع الفريق الآخر.

- ما يضيرك يا أخي، هاؤم الناس يمدحون الشعر ويهيمون به.
- هؤلاء لو علموا أنه لابن الفارض القائل بالاتحاد، لقاموا برجمك حيًّا.
- إذا فاكتم عن أخيك، وإلا لقلت أنت من أمرني بهذا.

ضحكا الاثنين، وأردف آسر قائلا: جزاك الله خيرا على هذا الصالون الثقافي في ميدان رابعة، ولولا مثل هذه الفقرات لمل الناس طول المكوث في هذا الميدان، خاصة مع الصوم في مثل هذا الجو الحار.

- حسبنا الله ونعم الوكيل في المتسبب في مثل هذا، انقلبوا على الرئيس الشرعي للبلاد، وقتلوا المصلين منذ أيام عند مبنى الحرس الجمهوري، وفرقوا المصريين وجعلوهم شيعا وأحزابا.
- العجيب يا محمود، هو وجودك أنت هنا، فغالب أبناء التيار السلفي، مع ولي الأمر كما يسمونه، والحاكم المتغلب، و...

تنهد محمود في أسى ثم قال: السلفية تلك الأكذوبة التي قد تربينا عليها، وهؤلاء المشايخ حسبنا الله ونعم الوكيل، صدعوا رءوسنا بالصدع بكلمة الحق عن سلطان جائر فها هو أحسنهم حالا أغلق على نفسه بابه، ولن أحدثك عن هؤلاء الخونة الذين باعوا كل شيء مقابل لا شيء.

- عن حزب...

قاطعه محمود قائلا: لا أحب حتى سماع اسمهم الزور هذا.

-وأين أحاديث «وإن ضرب ظهرك وأخذ مالك» التي كنت ترددها أيام الجامعة؟

- الأحاديث ضعيفة ومتكلم في صحتها، تركوا المحكم الذي يأمرنا بقول كلمة الحق والموت في سبيل النفس والمال والعرض، وذهبوا لمثل هذه الأحاديث الضعيفة.

- يعني هل تحولت لإخواني؟

- هم أشرف حالا من هؤلاء الأدعياء، وان كنت لا أنتمي إليهم ولكنهم على الأقل يقولون ما يفعلون، وهم الآن الطرف المقتول والمظلوم.

- الإخوان؟!!! لا أوافقك بصراحة كلهم يا أخي سواء.

-إذن فلماذا أنت هنا؟

- لأنهم كما قلت مظلومون، وكما تعلم موقفي الرافض لحكم الجيش مرة أخرى للبلاد، ولكني غير مؤمن بهذه الأحزاب والمسميات المختلفة.

- فبمن تؤمن يا آسر؟

- حلمي يا محمود، أن توحد كلمة المسلمين تحت راية واحدة، لا جماعات ولا أحزاب، راية الإسلام وكفى، اقتصاد غير ربوي لا يتبع للاقتصاد العالمي، وجيش وتسليح مستقل قوي، وانتقال للسلطة بصورة يتفق عليها أهل الحل والعقد، أريد الخروج من النظام والإطار الذي وضعنا فيه، وتدور حوله كل الأحزاب إسلامية كانت أو ليبرالية أو يسارية، نظام قوي يحمي الضعيف، ويعين الكبير.

- وكيف السبيل إلى ذلك، هذه ليست إلا في خيالات الفلاسفة وأوهام مدنهم.

- بل كانت في مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين وخيار ملوك الأمة الإسلامية.

- في وضعنا هذا ليس أمامنا إلا الدعوة إلى الله بالحسنى، هذا هو الطريق.

- الدعوة فقط لن تجني شيئا، فلابد للدعوة من قوة تحميها، فمن سيتيح لك العمل الدعوي بكل يسر؟!!!

- هل تحولت من منهج الفلاسفة لمنهج سيد قطب، والهجرة من هذه المجتمعات الجاهلية كما وصفها والهروب للجبال لبناء مدينة جديدة.

- لا أجد فرق كبير بين سيد قطب والفلاسفة، وعلى كل رحلتي ليس إلى الجبال؟

- ماذا؟!!! وإلى أين وجهتك؟

- إلى سوريا.

****

المكان: سجن تسفيرات

جلس حيدر وحيدا في زنزانته ينتظر أصحابه الذين أُخذوا ليكملوا وردهم اليومي في التعذيب، أصبح الوقت يمر كدهور في غيابهم وفي انتظارهم عذاب له يتفرد به عنهم، كما يتفردون عنه بعذابهم، ومن فرط ألم الانتظار حدثته نفسه بمشاركتهم في هذا العذاب، إلا أن هيأتهم عند عودتهم، كانت تحول بينه وبين ما يشتهي، الاختلاف العقدي كان له أثر في علاقته بهم وعلاقتهم به، ولكن بفضل الشيخ السامرائي قد

ذاب هذا الجليد، فألفهم وألفوه، وقد هونوا عليه مرارة الحبس، وبُعد الأهل، وغربة المكان.

كيف يكون هؤلاء الناس كفرة أخبث من اليهود والنصارى كما درس طوال عمره وقرأ، كيف لهؤلاء الذين يصلون على رسول الله وآل البيت ليل نهار أن يكونوا من النواصب.

انفتح باب الزنزانة وألقي بالمسجونين تباعا، وقد علا صراخهم أثر التعذيب، وما إن أغلق الباب واستقر المسجونون، حتى حاول حيدر أن يلهيهم عن الآلام التي يشعرون بها فقال:

يا إخواني، لماذا الخلاف الدائم بين السنة والشيعة، لماذا يكفر بعضنا بعضا ويقاتل بعضنا بعضا، ألسنا مسلمين أليس كتابنا واحدًا ورسولنا واحدًا؟!!!

- ليسوا بواحد يا حيدر.

قالها الشيخ السامرائي وهو يتحمل الألم الشديد، في حين انعقد حاجبا حيدر في دهشة وهو يقول: ليسوا واحدًا!!! كيف هذا؟!!!

- القرآن ليس نفس القرآن، وسنة الرسول ليست نفسها سنة الرسول، والمرجعية تختلف، الروافض شيء والسنة شيء.

- أوافقك في كلامك عن السنة فمن نقلهم لا نعترف به ولا بعدالته، والمرجعية تختلف يقينا ولكن القرآن واحد فكيف تدعي اختلافه.

- هذه ليست بدعواي، بل هو قول الرافضة، كما هو موجود عندكم في الكافي: فعن أبي جعفر الباقر (عليه السلام)، قال: (نزل جبرئيل بهذه الآية على محمد صلى الله عليه وآله وسلم هكذا: "وإن كُنْتُم في رَيْبٍ مِمّا نَزَّلنا عَلَى عَبْدِنا ـ في عليّ ـ فأتُوا بسُورةٍ مِن مِثْلِهِ". (البقرة 2: 23).

وعن أبي بصير، عن أبي عبدالله (عليه السلام) في قول الله تعالى: "من يُطعِ اللهَ ورَسُولَه ـ في ولاية عليّ والأئمّة من بعده ـ فَقَد فَازَ فَوْزَاً عَظِيماً" (الاحزاب 33: 71) هكذا نزلت.

وغيرها مما فيه تحريف لكلام الله بالزيادة فيه.

- ولكن يا شيخنا الفاضل، هذه الروايات ضعيفة فقد نص على تضعيفها وغيرها الإمام المجلسي، وقد قال الشيخ البهائي: "ما اشتهر بين الناس من إسقاط اسم أمير المؤمنين (عليه السلام) من القرآن في بعض المواضع.. غير معتبرٍ عند العلماء.
- الواضح يا حيدر أنك متخصص في دراسة العلوم الشرعية.
- لست متخصصا ولكني محب وولع بالقراءة، وأنا دارس جيد لديني، ولست مقلدا لأحد.
- ما ذكرته يا حيدر قد قيل، ولكنك غفلت مثلا عن قول القمّي في تفسيره، فقد قال: وأما ما هو على خلاف ما أنزل الله، فهو قوله:{ كنتم خير أمة أخرجت للناس} ثم ذكر أنها نزلت (كنتم خير أئمة أخرجت للناس).
- ولكن قد أنكر على القمي هذا القول من كثير من علمائنا ووصفوه بالغلو.

واصل السامرائي حديثه:

- وكذلك الكليني، فقد نسب هذا القول له كل من الكاشاني والأصفهاني والنوري الطبرسي والجزائري والمجلسي وغيرهم من علماء الشيعة كلهم قالوا: إن الكليني ممن يقول بالتحريف. والعاملي، قال: اعلم أن الحق الذي لا محيص عنه بحسب الأخبار المتواترة الآتية وغيرها أن هذا القرآن الذي في أيدينا قد وقع فيه بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم شيء من التغييرات، وأسقط الذين جمعوه بعده كثيراً من الكلمات والآيات. والمفيد الذي قال: إن الذي بين الدفتين (أي جلدتي المصحف) من القرآن، جميعه كلام الله وتنزيله وليس فيه شيء من كلام البشر، وهو جمهور المنزل والباقي مما أنزله الله قرآناً عند المستحفظ للشريعة (أي المهدي المنتظر)، المستودع للأحكام (أي المهدي المنتظر)، لم يضع منه شيء. وقال أيضاً: إن الأخبار قد جاءت مستفيضة عن أئمة الهدى من آل محمد باختلاف القرآن، وما أحدثه الظالمون فيه من الحذف والنقصان. ومحمد بن باقر المجلسي، المتوفى في القرن الثاني عشر، قال: لا يخفى أن هذا الخبر (أي يريد الخبر الذي فيه أن القرآن نزل

سبع عشرة ألف آية) وكثيراً من الأخبار في هذا الباب متواترة معنى وطرح جميعها يوجب رفع الاعتماد على الأخبار رأساً بل ظني أن الأخبار في هذا الباب لا تقصر عن أخبار الإمامة فكيف يثبتونها بالخبر؟ (أي كيف يثبتون الإمامة بالخبر وينكرون تحريف القرآن الذي جاء به الخبر).

تعجب حيدر من قوة حافظة الشيخ السامرائي كيف له أن يحفظ كل هذه النقولات وينسب كلًّا إلى قوله وهو حتى لا ينتمي للشيعة.

- يا حيدر هل قرأت كتاب فصل الخطاب في إثبات تحريف كتاب رب الأرباب للطبرسي فقد جمع أقوال من قال بتحريف القرآن وزيادة بعض الآيات ونقص البعض.

قال حيدر وهو مذهول: لا لم أقرأه.

- وإليك أيضا بهذه الرواية الصحيحة فقد روى العياشي في (تفسيره) عن مُيسّر، عن أبي جعفر (عليه السلام)، قال: «لولا أنّه زيد في كتاب الله ونقص منه، ما خفي

حقّنا على ذي حجا، ولو قد قام قائمنا فنطق صدّقه القرآن». وهذا تصريح واضح بالقول بتحريف القرآن.

- ولكن غالب الشيعة لم يقرءوا مثل هذه الكتب، ولا يعتقدون ما فيها، ولو أخذنا بقول أي أحد من أهل العلم وحكمنا على المنهج ككل لأخذنا بشذوذات أهل السنة، لو أردت أن أعددها لك لفعلت.
- إذا فأنت تتبرأ من القول بنقص أو زيادة في القرآن أليس كذلك؟
- بلى.
- إذا فما حكم من قال بوجود نص زائد أو ناقص في كتاب الله.

أخذ حيدر يفكر ويتأمل، قد فاجأه السؤال، يعلم أن الطعن في كتاب الله كفر أكبر، ولكن لو قال كفر أكبر فهذا يعني كفر أكبر أئمة في الشيعة، ولو قال ليس بكفر لحاجَّه السامرائي، طال تأمل حيدر حتى اهتدى لكلمات فقال: الله أعلم بحكمه ولكن الطعن في كتاب الله كفر، ولا أنزله على الأشخاص.

انفجر السامرائي ضاحكا، ثم قال: جواب ذكي، ومثلك يا حيدر سيهديه الله إن شاء الله، ولكن أعِنّي على نفسك بحسن الجدال وطلب الحق، وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ.

أومأ حيدر رأسه بالإيجاب، فما عليه لو فعل، الوقت هنا طويل ومثل هذه المناقشات والمدارسة ستنشط من عقله الذي أذهلته المصائب السابقة.

ابتسم السامرائي، والتفت للجميع وهو يقول: حان الآن موعد قيام الليل، وليتقدمنا حيدر للصلاة فهو حسن الصوت.

ونودي للصلاة

****

المكان: الإسكندرية...كرموز

- يا ولدي رجاءً اطمئن على محمود أنا قلقة جدا عليه، اليوم موعد حضوره من القاهرة وقد تأخر كثيرا.

- يا أمي رجاءً ألا تملين من طول الإلحاح... محمود ليس صغير... كما أنه يتحمل مسئولية ما يفعله... ولقد أكثرنا من نصيحته وتحذيره من مغبة ما يفعله ولكنه عنيد.
- على الأقل يا ولدي اتصل به على جواله.
- يا أمي لطالما قلت لك، لقد أوقفوا خدمات إرسال الجوال هناك، فلا سبيل للاتصال...

قاطع النقاش القائم بينهم صوت محمود والذي لم يشعروا بدخوله المنزل، فصاح أحمد وهو يشير إلى محمود قائلا في سخرية: ها قد جاء ولدك المدلل، محرر القدس.

هرولت الأم لولدها، قائلة: لماذا تأخرت اليوم يا محمود.

احتضن محمود أمه وقال مبتسما: اعذريني يا أماه... فليس من السهل الدخول والخروج من الاعتصام.

قال أحمد ساخرا: وكيف حال الاعتصام أرجو أن يكون بخير.

ابتسم محمود قائلا: هو كذلك إن شاء الله.

قال أحمد: والله لا أدري يا أخي ما الداعي من المشاركة في مثل هذا؟

أجابه محمود: الداعي هو استعادة شرعية الرئيس، وعدم ترك الساحة لجهة حكمت البلاد أعوامًا فما كان لهم إلا أن دمروها.

- ومرسي وشرعيته هم من سينتشلون البلاد من الدمار؟!!! على كل لن أطيل الجدال معك؛ فقد تعبت وفاض بي، افعل ما تراه صوابا، ولكني اليوم سمعت أن هناك إجراءات قوية لفض الاعتصام بعد التأكد من وجود أسلحة هناك.
- أسلحة؟!!! هذا هراء، أنت تعرف أن اعتصامنا سلمي، وعلى من سنحمل الأسلحة؟ على أبناء بلدنا، ألم تسمع المرشد العام وهو يقول سلميتنا أقوى من الرصاص.
- ولكن إبراهيم عواد، يذهب هناك ولقد قال لي أن الميدان به مخازن للأسلحة، ولقد عرض علي شراء مسدس بسعر زهيد.
- مخازن؟!!!! وهل صدقت ذلك المخمور الذي لا يكاد يفيق، ومن متى وإبراهيم يهتم بالسياسة.
- يا محمود إني أثق جدا في عقلك وعلمك، ولكني غير مطمئن لذهابك هناك، الأمر أخطر مما تتصور، أنت تعلم

أنه لا يهمني من يحكم البلاد، فالأمر بالنسبة إليّ كتشجيع الأهلي والزمالك، لن ينالني منهم شيء، ولا تقل لي تحكيم الشريعة وحكم العسكر، فلا مرسي حكّم الشريعة، ولا فرق الإخوان شيء عمن سبقوهم بالحكم.

- على كل يا أحمد، لك فكرك ولي فكري، والله المستعان.
- لا أريد يا محمود أن أبتلى بك، وأمك لو حدث لك أي مكروه فهذا يعني نهايتها.
- حفظكما الله لي يا شقيقي.

ساد الصمت لفترة، انشغل فيها أحمد بمتابعة التلفاز، في حين آن للأم أن تنام بعد طول انتظار لولدها، وأما محمود فكان حديث آسر قد شغله بل وأهمه.

آسر من أسرة ميسورة الحال جدا، من سكان مصر الجديدة، فوالده موظف كبير بالدولة، وقد جمعتهما الدراسة بالإسكندرية، وقد علم في آسر عدم ثبات شخصيته فهو كثير التحولات يوم إخواني، ويوم سلفي، ويوم تبليغ ودعوة، ويوم ثوري، ويوم خامل، وأخيرا جهادي!!!! آسر ذلك المتيم بالشعر والأدب يلتحق بالجماعات الجهادية في العراق، كيف لمثله أن يحمل سلاحا، وعلى من سيحمله،

صحيح أن الشعب السوري في معاناة شديدة بسبب مجازر بشار النصيري، ولكن أليس حالنا الآن قد يؤول لما آل إليه حال سوريا، فلم التعجل؟ كما أن الرؤية هناك غير واضحة، ولعل فشله في إقناع آسر بالعزوف عن هذه الفكرة أن جانبًا من كلام آسر حقيقي.

- أتدرون من هو المتسبب في سقوط الأندلس... إنهم الإخوان.

تعالت ضحكات أحمد التي انتزعت محمود من أفكاره، قال أحمد وهو يحاول إيقاف ضحكاته الهيستيرية: الأمر زاد عن حده... الأندلس مرة واحدة.

ثم التفت إلى محمود قائلا: أتدري يا محمود ما هي أم المشاكل؟ هؤلاء يريدون إسلاما لا يحل حراما ولا يحرم حلالا إلا ما كان على هواهم، إسلام علماني.

وأنتم تريدون إسلاما برؤيتكم المتشددة، وبين التشدد والتراخي، ضاعت الدعوة الإسلامية الصافية.

ابتسم محمود فقد أعجبه منطق أحمد في رؤية الأشياء، وسرعان ما عاد لشروده مرة أخرى.

****

المكان: العراق... سجن تسفيرات

في تلك الفسحة الأسبوعية التي يسمح فيها للمسجونين بالمشي، بغرض أن تكوي الشمس جروح أجسادهم، سار حيدر بجوار السامرائي في الساحة الخلفية للسجن، قال السامرائي لحيدر: عفوا يا حيدر أرجو الرد على سؤالي، لو كان أمر الإمامة أمرا دينيا فلما فرط فيه علي بن أبي طالب لأبي بكر ثم عمر ثم عثمان؟ ولو كان أمرا دنيويا فلماذا إذا توالون وتعادون عليها؟

قال حيدر: الأمر فعلا محير وما نظرت من قبل له بهذا المنظور.

ابتسم السامرائي وهو يربت على كتف حيدر قائلا: قد انتهينا من نقاش تحريف القرآن والبراءة ممن قال به، وتكلمنا على تكفير الصحابة الكرام والحمد لله الذي منّ عليك بالهداية في هذا الأمر وهو الترضي عنهم، وها هي مسألة الإمامة، يا حيدر أما آن لك أن تترك مذهبك القديم.

-يا سيدي الأمر ليس بهذه السهولة، مذهب تربيت عليه ونشأت فيه هل أدعه في يوم وليلة، كما أن بغضي لأناس كمعاوية والأمويين لن يتغير بحال.

- ولكن هذا المذهب هو ما جاء بك إلى هنا.

قاطع حديثهم صوت أتى من الخلف لأحد الجنود قائلا: يا حيدر قائد السجن يريد الحديث معك، ثم التفت بنظرة خبيثة إلى السامرائي وهو يقول في سخرية: لقد افتقدك موسى، ويريد أن تزف إليه هذه الليلة.

قالها واستدار منصرفا، ساحبا في يديه حيدر، في حين نكس السامرائي رأسه قائلا: نهايتكم على يدي أيها المجوس قريبا، أقرب مما تتصورون.

****

- نحن نقتل يا أحمد... القيادات كلها فرت... الكل تركنا وهرب... والآن نحن بين قتيل ومحروق و جريح.
- محمود لا أسمعك جيدا، ابحث عن مكان إرسال الجوال به أفضل.
- أحمد....

انقطع الاتصال، وانتفض أحمد من مكانه وقد كان جالسا بورشته، وفي عجلة أخذ يرتدي ملابسه وهو يحوقل، ثم التفت لأحد عماله قائلا، اذهب لوالدتي وقل لها إني

مضطر اليوم للسفر لإحضار بعض قطع غيار السيارات، وإياك وإعلامها بأي شيء عن فض الاعتصام اليوم.

قالها ثم هرول للخارج متجها إلى محطة مصر، وهو يقول: سترك يا رب، سترك يا رب.

وما إن استقرت قدم أحمد على أرض القاهرة، حتى حاول الاتصال بأخيه إلا أن الهاتف لا يجيب ظل يكرر المحاولات راجيا الله بأن يجيب محمود، وأخيرا رد الهاتف، لم يكن هذه المرة المجيب هو محمود، بل كان صوت رخيم.

- من المتصل؟
- أنا شقيق صاحب هذا الجوال، من المتكلم؟
- أنا الصول عبد الجبار، شقيقك في قسم أول مدينة نصر، وقد احتلت واستحوذت على الجوال كي أعلمكم عن مكانه، فرجاء انقذوا ولدكم فما يحدث فيه وفي إخوانه هنا حرام لا يرضاه الله.

وقبل أن يتكلم أحمد انقطعت المكالمة، استقل أحمد سيارة أجرة بعد عناء فالسائقين يخشون الذهاب لهذه المنطقة المشتعلة بالأحداث، وما إن وصل إلى قسم أول مدينة نصر، حتى أعاد الاتصال على جوال أخيه، فأجابه الصول

عبد الجبار ولكن بنبرة باكية وهو يقول: البقاء لله يا بني... شقيقك قد قتل منذ قليل... أثناء ترحيله لأبي زعبل... المجرمون أطلقوا على السيارة قنابل غاز فقتلوا كل من فيها... ربنا يتقبله من الشهداء.

ما إن سمع أحمد هذه الكلمات حتى سقط الجوال من يديه ودارت الأرض به، وسقط مغشيا عليه.

الفصل السادس

صدمات

المكان: الرقة... سوريا

انطلقت طلقات الرصاص تخترق سكون شوارع الرقة، واستيقظ أهلها فزعين إثر أصوات عدة انفجارات مدوية ملأ صوتها المكان، فأغلق الجميع نوافذهم وأبوابهم بإحكام خشية أن يصيبهم من نوافل هذه الطلقات شيء، كانت ثمة معركة رهيبة في الخارج لم يكن للفضول مجال في نفوس الأهالي، فقد ألفوا هذه الأصوات، بداية من النظام النصيري، والآن بين المجاهدين بعضهم بعضا، كان الصراع هذه المرة لا يعنيهم في شيء، خاصة وأنهم في مأمن من بشار، لا يهم من ينتصر داعش أو جبهة النصرة، كل ما كان يدهشهم هو لماذا يقتتل هؤلاء وغايتهم واحدة، وعدوهم واحد، هذا إن كان عدوهم واحد.

ظهور دولة الإسلام في العراق والشام فجأة على الساحة، لفت انتباه الجميع آنذاك، فأسلوب قتالها يختلف عن

أساليب قتال الجيش الحر بفصائله، ففي جنوده شدة وغلظة على من يحاربونه، داعش -كما يفضل الجميع إطلاق هذا اللقب المختصر على دولة الإسلام في العراق والشام- كان مجرد اسمها يدخل في النفس الرهبة والخوف، ولقد تنامت إليهم بعض الأخبار أن داعش كانت تلعب الكرة ببعض الرءوس المقطوعة من الرافضة، وأنهم يشربون دم ضحاياهم، ولذا كان البعض يفضل أن تنتصر داعش على جبهة النصرة لأنها على كل حال أقوى من بشار، وكان البعض الآخر يرى أن داعش من صنع بشار نفسه ليخترق صفوف المجاهدين ويوقف تقدمهم؛ خصوصا بعد النجاحات المتتالية للجيش الحر وجيش جبهة النصرة على وجه الخصوص، فقد بلغ بهم الأمر أنهم دمروا مبنى الرئاسة في دمشق وكانوا على مشارف دخول دمشق والتخلص من بشار، حتى ظهرت داعش، ورأى آخرون أن داعش صناعة أمريكية لتسوغ احتلال سوريا، آراء كثيرة وقصص شتى نُسجت حول داعش، لكن الجميع اتفق في النهاية أن داعش غير كل الفصائل الجهادية السابقة، وأن مصيرها البقاء.

وعلى جانب آخر، كان حجي بكر مرتديا زيه العسكري، وهو محاط بمجموعة من جنده يتحلقون جميعا حول خريطة توضيحية للمكان، وأخذ يشرح خطة اقتحام مقر جبهة النصرة في الرقة.

- ستقسم قواتنا إلى ثلاثة جبهات، جبهة تتبادل في إطلاق النار مع المتبقي من قوات الجولاني في شمال المدينة.
- ولكن قوات الجولاني هي الأكثر في الشمال وذات منعة ويصعب على جبهة واحدة من جندنا هزيمتها، والأولى لنا ضرب الناحية الغربية من المدينة فهي الأقل عددا.
- يا أبا عمر، ضربنا للغرب مباشرة شيء هم يتوقعونه، وقد أعدوا له عدته وهناك قوات من الحيش العلماني الحر قد استقر في الناحية الغربية أيضا خارج المدينة بجوار قرية أبو كبيع، ومن السهل إعانتهم وإمدادهم بالجند والسلاح بل وتطويقنا لو تحالف جند الشمال معهم علينا.
- فهل الحل يا أمير حجي هو ضرب الشمال الأكثر جندا وعددا؟

- اصبر يا أبا عمر الشيشاني، فالقتال هنا يختلف عما في أرضكم، الأولى لنا اقتحام مقر الجبهة الشمالية، وبما أن من الصعب على بعض الجنود اقتحامها فالمطلوب في أقل تقدير هو إنهاكهم.

- فإذا جاءهم مدد من الناحية الغربية.

- وهو المطلوب يا أبا يحيى، هنا تنطلق الجبهة الثانية لنا في الحصول على الناحية الغربية، وسيكون من اليسر بمكان الحصول عليها، ولذا على الجبهة الثانية محاصرة المنطقة الغربية ولكن دون قتال، والأفضل اختباءها عن أعين جنود الجولاني.

- والجبهة الثالثة ما دورها؟

- الجبهة الثالثة، ستعسكر في الطريق الواصل بين المقر الشمالي والغربي لجبهة النصر، فإن فشلت الجبهة الأولى في إنهاك المقر الشمالي، كانت مددا لها حتى يظن الظان من النصرة أن المقر الغربي قد صار بحوزتنا، فنكون وقتها قد نلنا من معنوياتهم، فحدث المطلوب، وإن نجحت الجبهة الأولى في غايتها، واستطاعوا إنهاكهم، كان من السهل على الجبهة الثالثة

الانقضاض مع الجبهة الثانية على المقر الغربي، وتعسكر الجبهة الأولى في مكان الجبهة الثالثة على الطريق كحماية من هجمات المقر الشمالي المنهك.

وبهذا الأسلوب سيظنون أن القتال هو في المنطقة الشمالية لا الغربية ونحن هدفنا الأساسي المنطقة الغربية والتي إذا حصلنا عليها سهلت علينا المنطقة الشمالية وقتها.

ذهل قادة الجيش المحيطين بحجي، صحيح أنهم متمرسين على القتال منذ الجهاد الأفغاني وإلى الآن، ولكن ما يقوله حجي يختلف عن نوعية قتالهم.

ولذا قال أبو عمر الشيشاني: لا فض فوك، يا حجي هكذا تدار المعارك.

لم يعره حجي انتباهه بل وجه كلامه للجميع قائلا: على بركة الله نبدأ الليلة ما خططنا له وسيقود الجبهة الثانية أبو يحيى، وأما الجبهة الثالثة المنقذة للجبهتين فهي بقيادة أبي عمر الشيشاني.

- والجبهة الأولى التي ستوجه الضربة الأولى؟
- سأكون أنا على رأسها.

- يا حجي لا تفجعنا بنفسك، ويكفي بلاءك في الرقة، و...
- لا مرد لذلك فأخفض على نفسك يا أبا يحيى، هيا وزعوا الجيش كما أمرت، واخطبوا فيهم وألهبوا حماس الشباب، فهي إحدى ثلاث: حياة ونصر، أو شهادة ونصر، أو شهادة وهزيمة، فليس في قاموسي حياة وهزيمة، هيا إلى جنة عرضها السماوات والأرض.

كبّر القادة وانطلقوا إلى ما أُمروا به.

****

المكان: الإسكندرية... كرموز

الزمان: 2014

- أهلا يا آسر تفضل.

قالها أحمد وهو يشير إلى آسر بالدخول إلى منزله، وفي حرج دخل آسر، وما إن جلس على المقعد الذي أشار إليه أحمد، قال: كيف حالك يا أحمد، وكيف حال والدتك؟

- الحال على ما هو عليه... منذ وصول الخبر إليها وهي معتكفة في مسجد القائد إبراهيم، حتى يقتص من قاتل الشهيد محمود رحمه الله.

- رحمه الله تعالى، ولكن ألم تحاول إقناعها بالعودة إلى المنزل فالأوضاع لازالت خطرة وأخشى أن يصيبها مكروه من أي اقتحام للمسجد.

-أمي كمحمود عنيدة، على كل أنا يوميا أذهب إليها كما أني قد أوصيت بها بعض النساء والرجال هناك، وفي كل الأحوال رد فعلها هذا أهون عندي من تدهور صحتها الذي كنت أتوقعه عند سماعها بخبر موت الشهيد، ولكنها فاجأتني بثباتها وإيمانها.

-حفظها الله لك، ورحم الله محمود كان نعم الأخ والمعين، ولكن ما الجديد في قضيته؟

- لا شيء، ولا أظن أنه سيكون ثمة شيء، هناك تصفية حسابات في البلد، وأمثال محمود هم من يدفعون الثمن.

- أوافقك الرأي، وصدقني: قريبا جدا جدا سيتصالحون سويا، وتذهب دماء الشهداء من كل الأطراف هدر.

- صدقت، يا آسر صدقت.

- أحببت أن أودعك وأودع أم محمود قبل سفري.

- سفرك !!!، وإلى أين وجهتك؟!!!

- إلى حيث لا أذل وأحيا بكرامة وعزة.

- **أمريكا؟ ألمانيا ؟ أوروبا ؟ الدنمارك؟**
- **بل العراق**
- **ماذا؟!!! العراق؟!!!**
- **نعم العراق، يا أحمد لولا ثقتي بك وبأسرتك ما كنت لأبوح لك بمثل هذا.**
- **ولماذا العراق يا آسر؟**
- **سأنضم لتنظيم الدولة الإسلامية في العراق والشام.**
- **ماذا؟!!! داعش تقصد.**
- **نعم داعش يا أحمد، هناك حيث دولة الإسلام الحقة لا مجرد نظريات وافتراضات، حيث الكل هناك سواء، حيث تطبق الشريعة على الجميع، ويسود العدل.**
- **داعش؟!!!**
- **نعم يا أحمد داعش، هم ليسوا كالإخوان يتلاعبون على كل الحبال، ولا كالسلفية مجرد نظريات مراهقة، وليسوا هواة كالجماعات الجهادية، بل أناس حملوا على عاتقهم بناء دولة إسلامية حقيقية، نظام اقتصادي ونظام سياسي ونظام عسكري قوي.**
- **وما أدراك أنهم كذلك.**

- هناك بعض أصدقائي على (الفيس بوك) قد التحقوا بهم وقد وصفوا لي الحال هناك ودعوني إلى الذهاب للعراق، بعد أن كانت وجهتي في الأساس لسوريا.
- آسر ما تقوله الآن شيء في منتهى العجب، وأكثر ما يدهشني هو أنك من أسرة ميسورة الحال، ابن ناس كما يقال، فلماذا مثل هذا القرار، ومثلك سيقت له الدنيا.
- يا أحمد، أتريد أن تعرف السبب، السبب هو أنني لم استطع أن أحيا في بلدي بعزة وكرامة أو يكون لي أدنى دور، إما أن أساق فيها كالبهيمة وإما أن يكون مصيري كمحمود، السبب هو أني عاجز حتى أن آخذ بحق صديق لي قُتل مظلوما.
- كلامك موجع جدا يا آسر.
- المهم يا أحمد، أتمنى أن أرى والدة محمود قبل سفري.
- سنذهب الآن إليها في مسجد القائد إبراهيم.

وفجأة رن الهاتف الجوال لأحمد، وما إن رأى اسم المتصل حتى ابتسم قائلا: ها هي أم محمود تتصل.

ثم أجاب على الهاتف مبتسما، ولكن سرعان ما انقلبت ابتسامته لنظرة فزعة وصدمة، ووقف مدهوشا، وقد سقط الهاتف من يديه.

فأسرع إليه آسر متسائلا: خير إن شاء الله يا أحمد ماذا حدث.

أجابه أحمد وكأنه يتكلم من عالم آخر: أمي استشهدت... أصيبت بخرطوش أثناء فض المسجد من المعتصمين.

****

المكان: العراق

صَوارمُنا فِي العِدا قاطِعَات

و أفعَالنا فِي البرا سَاطِعات

و نمضِي عَلى النّهج حَتى المَمات

بتَوحيد رَبيّ وَ سيف رَشيد

فَيا قومِي قوُموا بقَرع السّيوف

فمَا العَيش إلاّ بَظل الحُتوف

نمُوت بعِز وَ نحنُ وقوُف

وَ لا خير فِي العَيش عيش العَبيد

علا صوت النشيد شوارع الموصل، المليئة بالأهالي الذين احتشدوا ليشاهدوا جنود داعش وهم يرفعون أعلامهم ويطوفون بها تلك الشوارع، محتفلين بانتصارهم على الجيش العراقي الذي سام الموصل سوء العذاب.

وعلى مقربة من هذا الحدث، كان قادة داعش، أيضا يحتفلون بهذا النصر الكبير.

- مبارك لجنود دولة الإسلام في العراق والشام يا أميرنا، ففتحنا الكامل للموصل في العراق وإحكام سيطرتنا عليه، وفتح الرقة ودير الزور في سوريا لهو الفتح العظيم، العالم كله يتحدث عن أسطورتنا.

ابتسم البغدادي وهو يشير بالرضا للمتحدث، ثم عاد يلتفت للقادة من حوله قائلا: آن الأوان لتحقيق الحلم، ولا أريد الإفراط في الفرح، فالآن الآن بدأ القتال.

قال أبو عبد الرحمن: وبأي شيء نبدأ؟

قال البغدادي: سنبدأ ببناء دولة الإسلام، وستكون نواتها من الموصل في العراق والرقة في الشام ثم إلى سائر البلاد التي من الله علينا بفتحها.

صمت البغدادي وهلة ثم تغيرت لهجته للهجة آمرة:

من اليوم سنشكل وزارات لدولتنا.

- ولكن نحن لدينا وزارات بالفعل يا أبا بكر!!!

- يا أبا عبد الرحمن، سنشكل وزارات حقيقية، وزارات لدولة قوية، فبعد إحكام سيطرتنا على الآبار البترولية في غالب العراق، قد صار لدينا دخل اقتصادي قوي يحتاج لمن يحسن التعامل معه، ولا مجال فيه للهواة، فالقادم يعني إما النصر وإما الإبادة لحلمنا.

- نحن رهن إشارتكم.

- أرسل إليَّ حجي بالأمس، تصوره في تشكيل جهاز مخابرات، وجهاز إعلامي.

- إعلامي؟!!! كنت أظن حجي سيهتم أكثر بالجند، والسعي لتطوير الأسلحة.

- يا أبا عبد الرحمن، الإعلام من أخطر أسلحة الدول، إن من البيان لسحرا، ألا ترى كيف تقلب قوى الكفر الحق باطلا، والباطل حقا لمجرد امتلاكهم لآلة إعلامية خارقة.

- بالطبع يا سيدي، ما قصدته أن الجهاز الإعلامي للدولة قوي والمتحدث الرسمي باسمنا أبو محمد العدناني لا

زالت كلماته تلهب الأسماع وتجذب إلينا المتحمسين من أبناء الأمة الإسلامية.

- صدقت، أبو محمد العدناني، خير متحدث رسمي لدولتنا، ولكن أريد تطويرا في إعلامنا، إعلامًا ينافس الإعلام الغربي...

صمت أبو بكر البغدادي ثم أردف: حجي يقترح أن يتولى أبو دجانة الأمريكي جهاز الإعلام.

هم أبو عبد الرحمن في الاعتراض، إلا أن أبا بكر البغدادي أشار إليه بالسكوت ثم قال: أبو دجانة كان مخرجا بهوليود قبل أن يسلم، فلم لا نستغل إتقانه لهذا المجال في خدمة الإسلام، وهو بعد شابا يريد إثبات نفسه بصفوفنا.

لم يجب أبو عبد الرحمن فقد علم أن الأمر قد قضي، ولذا حول مجرى الحديث قائلا: وجهاز المخابرات من سيتولى ملف إنشائه؟

أجابه البغدادي: رشح حجي، الأخ أبو بكر القحطاني، لحسن بلائه في الشام وإسقاطه لجبهة النصرة، وقد وافقت على ذلك.

رسم بصعوبة أبو عبد الرحمن ابتسامة على وجهه، لم يكن يشعر براحة، ثقة أبي بكر الكبيرة بحجي، والتسليم لاقتراحاته نذير شؤم على الدولة الناشئة ككل.

****

المكان: ريف إدلب

سار الجولاني ومعه بعض مستشاريه، يتفقد الجند المرابط على حدود مدينة إدلب، وقد دار بينهم هذا الحوار.

قال أبو مصعب: نحن في مأزق حقيقي، حجي وقواته يتقدمون بقوة، والأماكن تسقط من أيدينا بسرعة مذهلة.

- هذا الداهية، لا أدري أي عقل شيطاني قد منح له.
- لا تعطه أكبر من حجمه، لولا الانشقاقات الكثيرة من جندنا وبعض المتواطئين معه ما كان له هذا النصر.
- على كل لا زالت وفود المجاهدين تتوافد إلينا، وهذا بفضل الدعم الخليجي لنا ماليا وإعلاميا، وانصرافهم عنهم.
- بل هذا بفضل الله جل جلاله، وأما عن حجي فأبشركم بنهايته قريبا جدا.

توقف المستمعون فجأة اندهاشا مما صرح به أبو إياس، همّ أحدهم أن يتكلم، إلا أنه لمح قدوم أحد الجنود فلاذ بالصمت، وما إن اعترض طريقهم الجندي والذي قال: يا سيدي هل لي بسؤال؟

ربت الجولاني على كتفه قائلا: لست بسيدك أنا أخوك في الله سل ما بدا لك، ولكن قبلها قل لي ما اسمك؟

- اسمي أبو معاذ المصري.
- مصري أنت، جيد أشد الجنود أنتم.

قالها وهو يربت بقوة على كتفه وتعلوه ابتسامة عريضة، ثم استطرد قائلا: ولكن لا يصح حديث خير أجناد الأرض هذا.

ابتسم الجندي، والذي قال: الجند يتساءلون إلى متى سيظل القتال بيننا وبين دولة البغدادي، ولماذا لا يتوحد الصف، والجميع هدفه بشار.

- وهل داعش هدفها بشار؟ سأسلك سؤالًا يا أبا معاذ، بعد التقدم الذي أحرزناه حتى كدنا نصل للمجرم بشار، ما الذي أوقف تقدمنا؟

بادر أبو إياس بالرد متهما: داعش، فابتسم الجولاني وهو يقول: صدقت يا أبا إياس، إنهم داعش، هؤلاء الخوارج، ولا أجدهم يختلفون عن بشار وحشية وإجرامًا.

قالها وولى الجندي ظهره، متابعا ما كان يفعله.

أما الجندي فابتسم قائلا: بل أنتم الخوارج فقد خلعتم من عنقكم بيعتكم للبغدادي.

****

المكان: بغداد

في إحدى مطاعم بغداد جلس رجل في العقد الخامس من عمره، وقد بدا عليه التوتر الشديد وكان هذا جليا في تردد عينيه بين ساعة يده، ومدخل المطعم، وفجأة انتفض فزعا لاقتحام هذا الصوت خلوته، كان الصوت لفاطمة أخت حيدر وقد كانت ممسكة بسلة ورود، قالت بود: يا سيدي ألا تشتري مني الورد؟

تملقها الرجل وقلب عينيه فيها ثم تولى ببصره عنها، فقالت في إلحاح: أرجوك يا سيدي، اشتر مني ولو وردة فأمي مريضة وهي بحاجة للدواء، ولم نتناول طعاما منذ أيام، ولا

تظن أنني أتوسل فقد كنت من أسرة كبيرة ولولا تقلب الزمان لما آل حالي لما تراه الآن.

نظر إليها الرجل وأخذ يتفحصها، ثم ما إن انهمرت دموعها حتى أخرج الرجل من جيب معطفه ورقة من النقود ناولها إياها قائلا: رجاء وقتي لا يسمح لسماع مآسي أسرتك... رجاء انصرفي.

تناولت في ذل فاطمة ورقة النقود، فلم يتبق لديها من الكبرياء ما يمنعها من أخذها، وفي هدوء أخذت تبحث عن آخر، في حين دلف للمطعم رجلين أحدهما رجل شيعي معمم، والآخر تبدو من هيئته أنه أمريكي، استقرا حيث يجلس الرجل، والذي استقبلهم في حفاوة.

- أهلا مستر جون، أهلا شيخ جعفر.
- نأسف يا سيد عمر عن التأخر، وأسعدنا اتصالك بنا، ونرجو أن تكون قد فكرت في عرضنا وحسمت موقفك.
- أجل يا مستر جون، ولكن قتال داعش ليس بهذه السهولة، والتخابر ضدهم له ويلات لا نقدر على مواجهتها.

- يا سيد عمر، ما تفعله هو لصالح دولة العراق، ولصالح السنة فيها.

- السنة؟!!!

قالها عمر مستنكرا كلام الشيخ المعمم جعفر والذي أكمل قائلا: نعم السنة، وجود داعش سيؤدي إلى المزيد من المجازر ضد السنة ولن نقدر على وقف متطرفي الشيعة على ما سيفعلونه بالقبائل.

صمت قليلا ثم ابتسم بمكر قائلا: تعاونكم معنا، سنذكره لكم جيدا في المستقبل، وسيشفع ذلك في وقف حكم الإعدام عن شقيقك المنتمي لنفس التنظيم.

قال جون: هذا غير الأموال التي سنمنحكم إياها، والشهرة التي ستنالها إعلاميا، و....

قاطعه عمر قائلا: اتفقنا...

ابتسم جون والشيخ جعفر ابتسامة رضا، في حين ابتلع عمر ريقه بصعوبة، فقد كان يشعر أن ما يقدم عليه هي نهايته.

****

المكان: الرقة... سوريا

- لماذا لا يظهر أميرنا أبو بكر البغدادي إلا على أعضاء مجلس الشورى لدولتنا فقط؟

- هذا يا شيشاني لأن ظهوره سيكون مقترن بأمر عظيم للأمة كلها.

كان الحوار بين حجي بكر وأبو عمر الشيشاني أحد مساعدي حجي بكر، وقد احتشدوا بجنودهم على مقربة من مدينة حلب، قال أبو يحيى موجها كلامه لحجي: يا إمام، لا زلت تصر على مشاركتنا في القتال، أليس من الأفضل عدم خروجك من الرقة، فهذه المعركة ستكون أشرس من أسلافها.

ابتسم حجي ثم قال: هل نسيت قول رسول الله صلى الله عليه وسلم من اغبرت قدماه في سبيل الله فهو حرام على النار.

ابتسم أبو يحيى ابتسامة رضا ولم يحر جوابا، في حين نادى أبو عمر الشيشاني أحد الجنود قائلا بالروسية: يا نورلان هل أعددت الخيمة الخاصة بإمامنا حجي.

اقترب الجندي ذو الملامح الآسيوية وأدى التحية العسكرية لقادته ثم أجاب بالروسية: قمت بتجهيزها، وهي الآن مهيأة لاستقبال الإمام.

ثم أردف بالعربية: إن شاء الله.

تنهد حجي قائلا: إذا فالراحة الآن، فأنا منذ الليلة الماضية لم أذق طعم النوم، استعدادا لفتح حلب.

قال الشيشاني: لا تقلق يا سيدي، كلنا هنا على أهبة الاستعداد لهجوم الغد.

أومأ حجي رأسه بالإيجاب، ثم التفت لأبي يحيى قائلا: الجهة الجنوبية لجيشنا فليتناوب على تأمينها الجند و...

قاطعه الشيشاني في سرعة: قد تم تأمينها لا تقلق، لديك رجال على أعلى مستوى من الكفاءة فاطمئن.

ابتسم حجي مجاملا الشيشاني، ثم تأبط ذراع أبا يحيى وسار به إلى خيمته، وما إن ابتعد حتى قال حجي لأبي يحيى: ما رأيك في أبي عمر الشيشاني؟

أجابه أبو يحيى قائلا: ما علمناه إلا أسدا مغوارا مقداما في الحروب.

- ما يثار عنه وعن زوجته أميرة الشيشان أرملة أحد المجاهدين الأشاوس، يجعل القلق يدب في نفسي تجاهه.
- تقرير القحطاني يدفع عنه أي ريبة.
- هل تسلمت آخر تقارير القحطاني؟
- نعم يا سيدي، لقد نفذ كل ما أمر به، لقد صارت لنا أذرع في كل الجبهات المقاتلة في سوريا.
- رائع جدا، وأتمنى أن ينجح في زرع رجال في كل الدول العربية والغربية.
- إن شاء الله يا سيدي، قد وفقت في اختيار رجل مثل القحطاني.
- ومع ذلك، فلا يجب علينا التسليم لكل تقاريره، ولا بد من وجود رجال آخرين يعملون في الخفاء لنا.
- وما السبب في ذلك سيدي؟!!!
- هكذا تدار الدول يا صديقي.

قالها حجي ثم ودع صديقه ودخل خيمته، وما إن أدار أبو يحيى ظهره منصرفًا، حتى سمع دوي الطلقات خلفه، وما إن التفت حتى وجد جماعة من الملثمين قد

أحاطوا بخيمة حجي وأخذوا يطلقون عليها الرصاص، ولم توقفهم طلقات جنود حجي عليهم –بعد اكتشاف أمرهم – عن غايتهم وهدفهم والذي قد تحقق يقينا، ولا يهم في سبيلها دماءهم التي ستراق بعدها.

****

المكان: سجن تسفيرات

كان قائد السجن يقوم بجولته المعتادة في ساحة السجن ليتفقد جنوده وهم يقومون بتعذيب المسجونين، كان يوزع ابتسامته الشامتة بينهم في تكبر وتيه، ثم اتجه إلى حيدر والذي كان جالسا أسفل إحدى مباني السجن مستظلا بظلها من الحر، وفي ابتسامة ودودة قال: كيف حالك يا حيدر، هل فقدت شهيتك في مشاهدة هؤلاء الأوغاد وهم يعذبون.

همّ حيدر بالوقوف، وأخذ ينفض ثيابه مما علق به من أثر التراب وهو يرد قائلا: هي أحسن حالا في كل الأحوال من الجلوس وحيدا بالزنزانة.

وضع قائد السجن كفه على كتف حيدر قائلا: يا حيدر أرجو أن تكون أنهيت علاقتك بذلك الوهابي السامرائي.

- فعلت يا سيدي، لا تقلق وما كان قربي منه سوى لقتل ملل الحبس، وإنك لتعلم مدى حبي لديني وللأئمة.

- أعلم هذا يا حيدر، ويعلم الله أن صدري منشرح لك منذ رأيتك، وأعدك أن حبسك هذا لن يطول، وأنه ولا بد لأمثال من أتى بك إلى هنا من نهاية.

قالها قائد السجن، وأصابته الدهشة لتغير ملامح حيدر المفاجئة، وقبل أن ينطق فوجئ بأن حيدر يقفز عليه وبكل قوته يزيحه جانبا، وأثناء سقوطه التفت للوراء فإذا بأحد المساجين يهوي بسكين نحوه إلا أن السكين قد استقر في كتف حيدر الذي تلقاها عنه، ثم سقط أرضا بجواره، سارت جلبة بين المسجونين والجند، وصارت فوضى بساحة السجن، وانقسم الجند فمجموعة قد أحاطت بالقاتل، وأخرى تطمئن على قائدها، والباقي يحاول خمد ثورة المسجونين، أما حيدر فترك يثعب دمًا.

****

المكان: مجهول... العراق

كان التأثر والحزن الشديد جليا على ملامح البغدادي، وأهم قادة دولة الإسلام، وأعضاء مجلس شورته، وقد ساد

الصمت المكان، كانت نظرات الجميع موجهة إلى البغدادي، وقد بدا وكأنه قد ضَرَبَ عَلَى تلقي نبأ قتل حجي بكر أَطْناب صبرِهِ، عاضا على ناجذيه، أجمع البغدادي قواه وقال في صوت ثابت: رحم الله القائد والأخ الحبيب حجي بكر، وصبَّرَنا على موته، وقد مات شهيدا كما نحسبه... ولكن لن تنسينا الفاجعة ما نحن مقدمين عليه من أمور عظام، فقد مات خير البشر رسول الله صلى الله عليه وسلم، فما ذهل موته خيرة أصحابه من إنشاء دولة الإسلام، ونحن خير خلف لخير سلف؛ ولذا يجب علينا من وضع من يخلف حجي بكر في سوريا الآن ولو مؤقتًا قبل أن ينفرط عقد دولتنا هناك، فأشيروا علي يرحمكم الله.

- ما رأيك بإرسال أحد أعضاء مجلس شورتنا هناك؟
- الوقت أظنه ضيق جدا، وتأمير أحد الجند هناك أولى من إرسال قائد جديد لا دراية له بأراضي الشام، ونحن لا زلنا في حرب.
- فما رأيك في أبي يحيى، هو صديق مقرب من حجي وصاحب مشورته وكاتم سره.

أخذ البغدادي يداعب لحيته وقد أطال التفكير والتأمل في هذا الاختيار، ثم قال: أبو يحيى، والله ما علمت عليه من سوء رجل ذو دين ومروءة، إلا أنه وزير خير منه أمير.

- إذًا فمن؟

- ما رأيكم في أبي عمر الشيشاني؟

- ماذا؟ مستحيل؟

قالها في صوت واحد أعضاء مجلس الشورى، كان رد فعلهم السريع مدعاة لاندهاش البغدادي، والذي قال: ما تنقمون على الرجل.

لاذ الجميع بالصمت، حتى أردف البغدادي: ولا أظنكم تصدقون تلك الشائعات التي يروجها أتباع الجولاني بأن أبا عمر قد شارك في اغتيال حجي، اتقوا الله، ولا تمكنوا أعداءكم من أنفسكم، فالتنازع والتباغض والتشاحن والفتنة هي أول سبيل لذهاب ريحنا.

أرسلوا اليوم رسالة لجندنا في الشام عليها خاتمي نولي فيها الشيشاني أمر جندنا في الشام، وعلى الجميع السمع والطاعة.

ورسالة أخرى للشيشاني نطالبه فيها بالقصاص من قتلة حجي، وننصحه فيها بتقوى الله في جندنا وفي أهل الشام، والإثخان في حرب بشار وجنده، ومواصلة ما بدأه حجي هناك.

سبحانك اللهم بحمدك اشهد أن لا إله الا أنت أستغفرك وأتوب إليك.

بهذا ختم البغدادي مجلسه، فخرج الجميع وألف سؤال وسؤال يطرق أذهانهم، وما إن فرغ المجلس سوى من البغدادي، حتى انهمرت دموع البغدادي في قوة، ولم تنجح محاولاته في إيقافها او كتمها، أخذ يبكي وهو يقول: إنا لله وإنا إليه راجعون... لله ما أخذ ولله ما أعطى وكل شيء عنده بقدر... ها قد عدتُ وحيدا دونك يا حجي... قدر الله وما شاء فعل.

أخذ يكرر: قدر الله وما شاء فعل.

حتى هدأت دموعه، وبلهجة مختلفة قال البغدادي: سأنتقم لمن قتلك يا صاحبي، كائنا من كان.

قالها وهو يتطلع لتلك الرسالة التي كانت بيديه والمكتوب فيها:

من القحطاني للبغدادي: لدي معلومات هامة جدا بخصوص قتل حجي، و...

تجاوز البغدادي ببصره الأسطر التالية حتى وصل إلى آخر الرسالة ومكتوب فيها:

فهذا لا يدع مجالا للشك أن أبا عمر الشيشاني هو المتورط الأول في قتل حجي بكر.

وابتسم على إثرها البغدادي ابتسامة مغضب قائلا: سأجعلك تتمنى الموت ولا تجده.

****

المكان: ريف إدلب... سوريا

- سلم لنا عقلك يا أبا إياس.

قالها الجولاني وهو يحتضن أبا إياس، والذي احمر وجهه خجلا من إطراء الجولاني له، والذي التفت لباقي الحضور قائلا بفخر: راجعني الكثير في اختيار أبي أياس في مجلسنا، لحداثة سنه، ولكن الآن أظن الجميع قد علم لماذا اخترته، وقرّبته؛ أبو أياس جوهرة أحمد الله أنها وقعت بين يدي لأقدمها وأحفظ لها قدرها.

- يا سيدي أرجوك توقف عن إطرائي، فما فعلته كان تنفيذا لتعليماتكم، و...

- لا تتواضع، فمخطط العملية وتنفيذها كلها كانت لك، وليس لأحد فضل بها سواك.

- الفضل كله لله.

- صدقت، رجل عجزت أجهزة المخابرات عن إسقاطه، قد من الله علينا بقتله، ودرء فتنة كبيرة كانت ستعصف بنا.

قالها الجولاني مبتسما، وهو يشاهد جموع الحاضرين يهنئون أبا إياس على نجاحه في القضاء على حجي بكر غريمه، كانت هذه الصفعة الثانية التي توجهها جبهته لدولة البغدادي، بعد إعلان الانفصال عنها، مقتل حجي يعني توقف القتال بين قواته وقوات البغدادي، يعني أنه ثمة فرصة لتوحيد الصف الجهادي مرة أخرى تحت راية القاعدة، و....

قاطع أفكار الجولاني اقتحام أحد الجنود المكان قائلا بفزع: جنود داعش قد أسقطوا ما في أيدينا من قرى حلب، وقد فتكوا بجنودنا هناك.

كان رد داعش على مقتل حجي بكر سريعا، أسرع مما كان يتوقعه الجولاني.

****

المكان: سجن تسفيرات... العراق

في صعوبة بالغة حاول حيدر فتح عينيه، لم تكن الرؤية واضحة وقتها، ولكنه استطاع أن يميز من اللون الأبيض الموجود في كل ما حوله أنه داخل إحدى المستشفيات، لم يمر وقت طويل حتى استطاع أن يرى حيدر ما حوله بوضوح تام، دلفت إحدى الممرضات غرفته، فحاول النهوض، إلا أنه شعر بألم شديد في كتفه، فتأوه والتزم مكانه، فابتسمت الممرضة قائلة: حمد لله على سلامتك... سيسعد جدا قائد السجن لإفاقتك.

ما إن قالتها حتى هرولت إلى الخارج، ولم تمر لحظات حتى دخل عليه قائد السجن، وعلى وجهه ابتسامة عريضة قائلا: حمد لله على سلامتك يا أيها البطل.

حاول حيدر مرة أخرى النهوض لاستقبال قائد السجن إلا أن الأخير قد منعه من ذلك، فقال حيدر: لست ببطل يا

سيدي، وما فعلت إلا الواجب، وما كنت لأدع هذا الوهابي أن ينال منك.

ابتسم قائد السجن وهو يقول: ولاؤك لدينك ومذهبك رغم كل ما أنت فيه، لو دل فإنما يدل على أمر واحد، أنك رجل قل وجود مثله في هذا الزمن.

ابتسم حيدر في خجل في حين أردف قائد السجن قائلا: يا حيدر إنك اليوم لدي مكين أمين، ستخرج من السجن ولو كلفني هذا معاداة الحكومة وأئمتنا أجمعين.

- وهذا لا يرضيني يا سيدي، فأنت لك مكانتك وقدرك، ولا أريدك أن تخسر هذا لأجلي.
- لا زلت أندهش من خُلُقك يا حيدر، وعلى كل لا تقلق فلقد وجدت لك مخرجا مما أنت فيه دون أي ضرر.
- وكيف هذا؟
- أظنك تعرف ما آل إليه أمر داعش، فقد اشتد عودهم وقويت شوكتهم، فبعد اقتحامهم لسجن أبو غريب وتحرير مسجونيه، وعملياتهم الانتحارية والتفجيرات التي أنهكونا بها، والمحافظات الهامة التي سارت بحوزتهم، فكان لزاما علينا مواجهتهم ودرء فتنتهم،

وإلا لذهبت ريحنا عن العراق للأبد؛ ولذا فنحن الآن بصدد تكوين جبهة قوية لمقاتلة هؤلاء الوهابية، جبهة أقوى حتى من الجيش العراقي المنهك.

- وما علاقتي أنا بهذا؟!!!

- قد رشحتك للانضمام لهذه الجبهة، بل لمنصب هام بها، وبذلك لن يقدر أحد على إلحاق الأذى بك.

كانت المفاجأة مدوية على حيدر.

****

الفصل السابع

إرهاصات

المكان: الأماكن الجهادية

- ***ألا فليعلم العالم، أننا اليوم في زمان جديد، ألا من كان غافلا فليتنبه، ألا من كان نائما فليفق، ألا من كان نائما فليفق، ألا فليع من كان مصدوما مذهولا، إن للمسلمين اليوم كلمة عالية مدوية، وأقداما ثقيلة، كلمة تُسمع العالم وتُفهمه معنى الإرهاب، أقداما تدوس وثن القومية، وتحطم صنم الديموقراطية، وتكشف زيفها، فاسمعي يا أمة الإسلام، اسمعي وعي، وقومي وانهضي، فقد آن لك أن تتحرري من قيود الضعف، وتقومي في وجه الطغيان، على الحكام الخونة عملاء الصليبين والملحدين حراس اليهود.***

رجّ صوت البغدادي أسماع المجاهدين في غالب بقاع الأرض وهو يعلن الخلافة الإسلامية بعد سقوط دام لقرون، ويعلن نفسه خليفة للمسلمين، وليكون يوم

الجمعة غرة شهر رمضان، تأريخا جديدا لأمة الإسلام بل للعالم أجمع.

في حين علت تكبيرات المجاهدين وارتجت الأرض لأصواتهم واجتمعت كتائبهم يجددون البيعة لخليفتهم على صوت واحد وفي توقيت واحد قائلين: نبايع خليفة المسلمين الشيخ إبراهيم البغدادي السامرائى الحسينى القرشى البغدادي على السمع والطاعة فى المنشط والمكره وفى اليسر والعسر وعلى أثرة علينا، وألا ننازع الأمر أهله، إلا أن نرى كفرًا بواحا عندنا من الله فيه برهان، وأن نقول الحق أينما كنا ولا نخاف فى الله لومة لائم، والله على ما نقول شهيد.

ونادى قائدهم: تكبير وأجابوا في صوت واحد ارتجت له الأرض: الله أكبر.

كان اليوم عجيبًا والمشهد نادرًا، وكأني بالشمس الحارقة قد شاركَتْ الجميع فرحتهم وصومهم في هذا اليوم فأمسكت من حرها، وقد خرج الغيم ليظل تلك الجموع الغفيرة التي في الشوارع تكبر الله على إعلان خلافة إسلامية جديدة.

****

المكان: إحدى القاعات... بالقاهرة

الزمان: يونيو 2014

- (نخبكم جميعًا... اليوم نعلن انتصارنا على الجماعة، لنعيدها سيرتها الأولى).

قالها بكل فخر نديم بك وهو يرفع كأسه لأعلى، كان يتوسط ذلك الحضور غير القليل من الرجال، كان الجميع يحتفل في هذه الليلة؛ فهذا يبدو من ملابسهم الأنيقة، وكاسات الخمر بجميع أنواعها التي تدور عليهم، والضحكات التي تعلو الحضور.

نديم بك رجل في العقد السادس من عمره، ذو منصب هام في الدولة لم يكن حتى أقرب الأقربين له يعرفون حقيقة منصبه، كان كافيًا لهم أن يسمعوا اسمه لتعلوهم سمات الرهبة والتقدير والخوف، اكتسب نديم بك تلك المكانة ليس فقط في هذا العهد، بل الجميع يعرف أنه ورغم قربه الشديد من نظام مبارك، أنه لم يسقط مع من سقطوا في براثن ثورة يناير، بل كان يتمكن من منصبه رغم اختلاف الأنظمة

والأحوال، كان نديم بك ذلك الرجل الذي يعرف كل شيء عن الدولة بل يعرف كل شيء عن أي شيء، يستشيره رجال الاقتصاد، ورجال السياسة، وحتى الرياضيين، كان عنده جواب لكل شيء، إما لحساسية موقعه والذي لا يعرفه أحد، وإما لكثرة معارفه في كل المجالات.

ورغم غموض منصب نديم بك، إلا أنه كان شخصًا اجتماعيًّا جدًّا، لا تكاد تجد احتفالًا رسميًّا، أو احتفالًا لأحد المشاهير، إلا وتجد نديم بك هناك، حضوره دائمًا في مثل هذا مسعًى للجميع، حتى الفضائيات والقنوات التلفزيونية يلهثون لعمل لقاءات معه، وكانوا يكتفون بتعريفه بأنه خبير استراتيجي للأمن القومي.

ليس لنديم بك نقطة ضعف قد يستغلها خصومه –هذا إن كان له خصوم- اللهم إلا ابنته رؤى، فهي تختلف تمام الاختلاف عن أبيها؛ في بساطتها، وسهولة جانبها، وصفاء روحها، ولم يكن جمالها حبيسًا للروح فقط، فقد انعكس ذلك على جمال خلقتها، فكأنه قد ترقرق في وجهها ماء الجمال، كانت نضرة الوجه بيضاء، أسيلة الخد، ذلفاء الأنف، هيفاء

القوام، لا يقع الطرف على أجمل منها صورة، ولذا فهي دوما المآل لعيون من حولها.

كان نديم بك يعلم ذلك في ابنته، ويخشى دومًا أن تأتيه الطعنة من جانبها؛ ولذلك فقد أحاطها برعايته واهتمامه وأيضًا حُرَّاسه من كل ناحية، لم يعر اهتماما لتضجرها أو نفورها من حرصه الزائد عليها، وعندما كانت تحاصره بأسئلتها عن سبب ذلك، كان يتحجج بأن هذه وصية أمها - رحمها الله- قبل وفاتها، بأن يشدد عليها الاهتمام والرعاية.

كان ذكر الأم بالنسبة لرؤى كافيًا لكي تتوقف عن النقاش، فهي لم ترها ولم تنعم بقربها، لقد ماتت بعد ولادتها بأيام، كانت حياة رؤى تختلف عن جميع الفتيات اللاتي تعرفت بهنّ طوال حياتها، كان عندها كل شيء كل ما تتمناه وما لم يخطر ببالها، كان يكفي أن تقول أريد، فيستجيب الجميع لإرادتها، لم تعرف معنى كلمة الحرمان سوى في مشاعر الأمومة، والأبوة أحيانا، وأكثر منهما الحرية.

كانت كعصفور حبيس في قفص ذهبي، وقد أمن طعامه وشرابه، إلا أنه لا يرجو سوى أن ينطلق بجناحيه ليشق السماء ويتقلب في نعيم الحرية لينتقل من هذه الشجرة لتلك

الشجرة، وليتعرف على مثيله من عالم الطيور، ليجوع يوما ويشبع يوما، ليأمن يوما ويخاف يوما، ليقابل نديمه ويكوّنا عشهما ويُرزقا بصغار يهبون إليهم حياتهما.

كانت هذه رؤى، الفراغ والملل أصدقاؤها، مع ثلة من المعارف المملين الفارغين، حتى جاء ذلك اليوم المشهود، يوم ظهور أمير.

لم تؤمن رؤى بقضية الحب من النظرة الأولى؛ فمذهبها أنه لا بد من طول العشرة وشدة المعرفة بالشخص كي تحبه، وإلا فكيف ينشأ الحب لشخص لا تعرفه، وكيف لنظرة أن تأسر فؤاد القلب، وتحكمه، لم تكن أحبت من قبل، ولكنها كانت نظريتها على أية حال.

لم تكن تدري أنه في تلك الحفلة الشهرية التي اعتاد والدها إقامتها في بيتهم، أن نظريتها تلك في الحب سيإدها طلوع ذلك الشاب عليها بوسامته الشديدة، وابتسامته الهادئة وأناقته، وكأنه قد تسربل بالملاحة، ولاحت عليه ديباجة الحسن.

كيف لنظرة أن تتبعها تلك النيران من الأشواق والحنين، وكأنها تعرفه منذ دهور، بل حتى قبل أن تخلق، خفق قلبها

بشدة عندما تلاقت عيناهما، وكأنه شعر بتلك الرعدة التي أصابتها ولعلها أصابته أيضًا، فأخذ كل منهم يرسل عينيه في نفس الآخر يمعن في التنقيب فيها ويستشف منها ما قد تخفيه الملامح، نعم قد أحبته من النظرة الأولى، ونعم قد أحبها، جزمت بذلك، بعد أن تواءمت نفسهما، وتسايرت أهواؤهما، وقد تحدثت عيونهما بغير لسان، وتقاربت روحهما دون أجساد.

دقات قلبها المتسارعة، وأنفاسها المتلاحقة، وارتعاشة أطرافها، والعرق المتصبب رغم البرد الشديد، أثناء اقترابه منها يصرخون لها بشماتة: أنت تحبينه ومن النظرة الأولى.

- (تسمحين لي بهذه الرقصة)

قالها لها وقد أفاقت -بكلماته وقربه الشديد منها- من خواطرها، لتقع في سكرة عطره الهادئ، ونظرة عينيه التي تخترق روحها، لتستقر بقلبها، وقد أنكرت بعد صوته صوت تلك الموسيقى الكلاسيكية المعزوفة، استسلمت له وهو يسحب يديها بلطف ويحيط خصرها بيده الأخرى، وقد شرعا في الرقص، كانت بين يديه كفراشة تنتقل بين الزهور، حاولت مقاومة انسحابة نفسها له، واستسلام روحها

وجسدها بين يديه، إلا أنها في النهاية استسلمت لم تساعدها قوتها، أو يبعدها كبرياؤها وأنفتها، ألقت جميع أسلحتها، وأسلمت رأسها لصدره، وأنست بناحيته، وتركت العنان لروحها لتعانق روحه، ولعقلها نشوته برائحته، ولجسدها ارتعاشته للمساته، ألف سمعها قرع قلبه المستمر، فأحبت وقتها أن تراه وبصعوبة بالغة وبكل ما أوتيت من قوة، رفعت رأسها لتفحصه عيناها، وما إن تلاقت عيناهما مرة أخرى، وأشعل شهوتها لهيب أنفاسه، حتى غابت فيه، وغاب فيها...

توقف الزمان... وغاب المكان... واختفى الحضور... عن إدراكهما ولم يتبق سواهما وصوت الموسيقى المعزوفة والصمت الذي حلت مكانه لغة القلب...

*****

المكان: مصر

- (بل أسوأ بكثير... سنجعلهم يتمنون أن يعودوا لما كانوا عليه... هذه نهايتهم الحتمية)

قالها زكي بك، ردًّا على كلمات نديم بك، وهو أيضًا يلوح بكأسه مترنحًا، وقد استخف الخمر بعقله، فأومأ نديم بك

رأسه بالإيجاب، وهو يقول: صدقت يا زكي بك... سنفتح عليهم أبواب الجحيم الذي يخشونه.

ثم اجترع كأسه دفعة واحدة وكذلك فعل كل المحيطين به وضحكاتهم تعلو المكان.

ثم أشار نديم بك، للجميع بالهدوء، فصمت الجميع وأنصتوا له وهو يقول:

جهازنا أثبت أنه الأقوى والأكثر ذكاء، لقد سار الأمر كما خططنا ورسمنا.

صمت قليلا مستطردًا: صحيح، فوجئنا بهوجة يناير تلك، وكانت سقطة كبيرة لنا على مدار ثمانين عام تقريبًا، أو لعلها السقطة الأولى لجهازنا، ولأن لكل جواد كبوة، فكانت هذه كبوتنا. قالها وهو يجز على أسنانه، وقد ملأ الصمت المكان، ثم أردف قائلًا: تداركنا الموقف، نعم تداركنا الموقف في خلال عام واحد فقط أسقطنا أكبر جماعة شكلت خطورة علينا في الثمانين عامًا الماضية، وعدنا لموقعنا ومكانتنا، أنقذنا أنفسنا، وطبعا أنقذنا البلاد.

قال زكي بك بصوته الأجش: هؤلاء الأوساخ.. قد كادوا يلقون البلاد في جرف هار، ظنونا لحمًا طريًّا، ولم يعلموا أن لحمنا علقم لا يُمضغ.

ابتسم نديم بك، ثم قال: صدقت يا زكي بك، ولك الفضل الكبير في القضاء على هؤلاء، فلولا اختراق جهازك لهم، ومعرفة ما يدور في كواليسهم، والتأثير على قراراتهم، ما كنا لنصل لما وصلنا إليه الآن.

انتفخت أوداج زكي بك وهو يستمع لتلك الكلمات، في حين أردف نديم بك قائلًا وهو يشير لأحد الحضور: ولا ننسى فضل الرائد أمير مختار، فهو صاحب خطة تدمير تلك الجماعة وأشباهها، ومنفذها في نفس الوقت.

التفّت العيون للشخص الذي يشير إليه نديم بك، نعم إنهم يعرفونه، هو ذلك الشاب الذي لمحوه منذ سنة تقريبا في تلك الحفلة التي أعدها نديم بك، لقد لفت وجوده نظر الجميع يومها، بوسامته الشديدة، وتلك الرقصة التي سلبت لب الجميع، والتي راقص فيها رؤى، قد ملأ الحسد يومها الشباب الموجودين في الحفلة، لم يره أحد من يومها، وها

هو يظهر مرة أخرى، لا أحد يعرفه ولا يعرف شيئًا عنه سوى أن اسمه أمير مختار.

ابتسم أمير في سخرية وهو يلمح نظرات الدهشة والإعجاب التي بدت على الجميع، واقترب من نديم بك والذي كان يشير إليه بالاقتراب، حتى وقف جواره تماما وسط الجميع، وهنا ربت نديم على كتف أمير وهو يقول: أمير مختار المهدي، تذكروا هذا الاسم جيدًا، هذا الشاب حطم ما يسمونه بالتيار الإسلامي الذي كان شوكة في ظهر نظامنا منذ دهور.

لم تفارق أمير ابتسامته الساخرة وهو يتصنع الخجل قائلا: العفو.. يا نديم بك، بل هو بفضل توجيهاتكم.

ثم التف إلى زكي بك قائلا: وبفضل والدي الروحي زكي بك وتوجيهاته ورعايته.

أشار زكي بك بالكأس لأمير وابتسامة الرضا على وجهه.

صاح أحد الحضور قائلا: وكيف يا أمير بك استطعت وحدك أن تُسقط ما عجزت أنظمة الدول عن إسقاطه... إلا أن تكون ساحرًا.

ضحك الجميع بصوت عال، بما فيهم نديم بك، إلا أن أمير اكتفى بتلك الابتسامة السمجة على وجهه وهو يقول: الأمر

ليس بتلك الصعوبة... الأمر لا يحتاج سوى دراسة أفكارهم من كتبهم، وليست دراسة سطحية كما فعل السابقون... والتمييز بين قاداتهم ومشايخهم.

بدا الاهتمام على الجميع وهم يستمعون لأمير، في حين سأل آخر: وكيف ذلك؟

فأجابه أمير: لكل إنسان نقطة ضعف؛ فمنهم مَنْ نقطة ضعفه المال، ومنهم الخوف، ومنهم النساء، ومنهم الشهرة، ومنهم الورع الزائد، كانت نقطة ضعفهم مدخلا لابتزازهم، حتى إذا حصلنا منه على ما نريد، حطمناه وفضحناه، فكسْر وتحطيم الرءوس أسرع طريق لتحطيم المنهج.

ثم شرع يشرح للجميع أساليب إسقاط الجماعة، وقد أبهرهم تناسق كلماته، التي تؤكدها حركات يديه، حتى حشد الأنظار والأسماع ثم القلوب إليه:

الذكاء أن تعرف نقطة ضعف كل منهم وتستغلها ضده، وأهم ما ساعدنا على القضاء عليهم كما سبق وأن ذكرت الدراسة العميقة لمناهجهم، وضرب بعضها ببعض، فالقاعدة تقول: فرق تسد.

هم أشد تنافرًا فيما بينهم، ولو بدا للجميع أنهم تيار واحد فبينهم بعد السماء عن الأرض، يكفر بعضهم بعضا، ويبدع بعضهم بعضا.

استغللنا ذلك، فلما ظهرت الجماعة، حركنا الجماعات المضادة لها، كالسلفيين المداخلة أو الدعوة السلفية أو حتى جماعات التكفير، فبينهم جميعا ما بين المطرقة والسندان.

- لا تنس الدور الكبير للإعلام في القضاء على هؤلاء.
- لم أنْس ذلك، بالعكس فللإعلام دور هام جدا في إظهار عوار هؤلاء... إلا أن أكبر جندنا ضدهم هو سفاهة قادتهم ومشايخهم... فقد استخدمناهم خير استخدام، وكانوا بين أيدينا كالعرائس نحركها كيف نشاء... الذي يؤكد أنهم لا يصلحون حتى لحكم بيوتهم.
- وما مصير رَدة فعل شبابهم والمظاهرات الآن يا أمير بك.
- لا خطورة منها، في ظني وتحليلي، وسيأتي وقت وسيمل الجميع ما يفعله ولن يجدوا أمامهم سوى الرضى بالأمر الواقع؛ ولذا أتمنى من القيادة تركهم فلا

خطورة منهم، فهم الان أشد انقساما، ومواجهتنا لهم توحدهم.

- أحسنت يا أمير... أنت بطلنا الجديد... لا زلت أتفاجأ بك بين الحين والحين.

قالها نديم بك، وهو يشير للجميع بانتهاء الكلمة.

فانفض الجميع حول نديم بك، ليتخذ كل منهم لنفسه موقعًا، وانشغل الجميع بتجاذب أطراف الحديث.

في حين اتخذ أمير مقعدًا يقابل النافذة في نهاية القاعة، جلس وحيدا وأخذ يتفرس الحضور، محاولًا استنتاج رتب من جهل معرفتهم، فالجميع اليوم من أصحاب المناصب العليا في البلاد، بل أعلى المناصب، كل من هنا مصير البلاد بين أيديهم، كان لا يشعر بالراحة في هذا الوسط، لعل لأنه لا ينتمي لهذا العالم،...

*****

تبدأ قصة أمير بداية غير مفهومة، عقل فوجد نفسه في بيت غير بيته وفي كنف أسرة أخرى، لا يعلم سوى أن والده كان يعمل بذلك الجهاز الهام للدولة، لا يذهب خيالك لبعيد فلم يكن سوى عامل (البوفيه) بذلك الجهاز،

ولأسباب غير مفهومة يموت والده، ويصر زكي بك - صاحب إحدى المناصب العليا بذلك الجهاز- على أم أمير بأن تعيش هي وأمير معه ومع زوجته في فيلتهم الكبيرة، ليتولوا شئون أمير وتعليمه خصوصا وأن الله لم يرزقهما بالأطفال.

موقع غرفة أمير وأمه في أقصى البيت، رغم ضيقها فقد سكنتها الشمس، تحوي سريرين لأمير وأمه ومكتب ودولاب، لم تكن معاملة اللواء زكي وزوجه لهما يتخللها أي منغص، بل كلها حب وعطف، خصوصا مع أمير فهما لم يرزقا بالولد، فصبوا كل حبهم وعاطفة الأبوة والأمومة تجاه أمير، حتى إن والدة أمير أصبحت تغار من تعلقهما به وتعلق أمير أيضا بهما، إلا أنها سرعان ما تحمد ربها إلى ما آل إليه حالهما، فمع عناية الجميع بأمير فأشد ما أسعدها هو تفوق ابنها الدراسي، هذا ما استهلا به حياتهما في هذا المجتمع الجديد.

إلا أن الأمور لا تدوم، ومن المحال دوام الحال...

فها هو أمير ينمو عوده، ويبدأ عقله في تمييز وإدراك ما حوله بنظرة حائرة بين الطفولة والرجولة، فيجد زكي بك-

الرجل الذي يدين له بالفضل، ويراه مثلا أعلى يحتذى به- رجلا لئيم الطبع جشع، سيئ الخلق سبَابًا لعّانًا سكيرًا يكاد لا يترك زجاجة الخمر من يديه، بدأ بأن يضيق ذرعا من سوء خلق هذا الرجل مع من حوله، والعجيب بأن معاملة الرجل له مختلفة، فهو فعلا يعتبره ولدًا له، ويقربه منه ويحنو عليه، إلا إن ذلك كله لم يكن لأمير كفارة لأفعال الرجل بالآخرين.

كانت زوجته (نورهان) تصغر زوجها زكي بما لا يقل عن خمسة عشر عاما، وكانت جميلة جدا بكل ما تعنيه الكلمة، فملامحها الأوروبية وأناقتها توحي لمن يراها أنها إحدى الأميرات أو الحوريات قد هبطت لتوها من الجنة، كان الجميع يحسد زكي بك عليها، رغم جهالتهم بعائلتها أو أصلها، اختفى تعجبهم من ارتباط زكي بك بمجرد أنهم رأوها، فانقسموا بين مؤكد أن أصولها تركية، وبين قائل أنها من أسرة فقيرة انتشلها زكي بك وقد افتتن بجمالها غير المعهود في أعينهم.

كانت نورهان بالنسبة لأمير الأم الحنون أو الأخت الكبرى، مفزعه وكاتمة أسراره، كان يجد الراحة التامة

في جلوسه معها، والتحدث إليها، إلا أن أكثر ما يحيره اتجاه نورهان، أنها باستثناء ساعاتها معه، دائما حزينة وساكنة في مكانها، تتحاشى الجميع بما فيهم أم أمير، لم يعرف أيضا أمير لِمَ لَمْ تنشأ صداقة بين أمه وبين نورهان؟! علاقة فاترة تشمل التحيات النادرة والحديث المتقطع للضرورة.

هذه كانت حياة أمير الذي لم يختط بعد السواد أعلى شفتيه، حتى حدث ما غير حياة أمير وقلبها رأسا على عقب، ففي إحدى الأيام وأثناء عودة أمير من النادي تاركًا نورهان التي كانت تصحبه هناك بمفردها، ولشعوره ببعض التوعك قد أمرت السائق أن يوصله للمنزل حتى تنهي مجلسها مع أصدقائها، دخل أمير غرفته، وما إن فتح الباب إذ به يجد زكي بك يعلو أمه وهما عاريان تماما، وصرخات وأنين الشهوة تنبعث من كليهما، فشهق أمير من هول ما رآه، فانتفضا عندما وجدا الصبي ينظر إليهما، وصرخت الأم وهي تستر جسدها ببعض لباسها المبعثر فوق السرير، في حين أخذ زكي بك يرتدي ثيابه في سرعة، وما إن انتهى حتى انصرف دون أن ينطق بأي

كلمة، وقف أمير مدهوشا لا يدري ولا يفهم ما يحدث كان في العاشرة من عمره، لم يعنه عقله على تحليل ما رآه لتوه، إلا أنه ثمة غصة في حلقه، ودمعة مكبوتة بداخله، وحزن عميق يتخلله؛ فقد علم أن ما حدث جريمة لا تغتفر بحقه، وبحق نورهان، وبحق والده.

****

- (أمير بك... تفضل)

قالها (الجرسون) وهو ينحني لأمير مقدما له شراب (الويسكي) قاطعا بذلك ذكريات أمير، والذي أخذ ينظر بحقد لزكي بك، والذي كان بدوره يتحدث بصوت عال أجش، وقد تعالت ضحكاته ومعها تعالت هزات بطنه العظيمة وكرشه الكبير.

وبعد رشفة من الكأس عاد أمير لذكرياته...

****

تحولت جنته المزعومة إلى جحيم، فقد تغيرت معاملته بعدها مع كل من حوله صار انطوائيا جدا على غير عادته، حتى أمه والتي كان يفزع لجسدها كلما شعر بالخوف أو الحزن لتحتضنه فيسكن لحضنها، صار

جسدها مقززا له، هي نفسها صار ينفر منها، كانت دموعها وتوسلها له وتبريرها لهذا اليوم يزيد من مقته لها، ولم تشفع نظرة الحسرة والندم التي يلمحها عليها بأن يغفر لها، وحتى كثرة إغداقات زكي بك بالهدايا وشدة التدليل له تزيد من اشمئزازه لهما، فهو يعرف أن زكي بك يشتري غضبه وسكوته بمثل هذا، زادت عزلة أمير وتأمله لحياته مع مرور الأعوام، وقد بلغ أشده، وعقل كل ما لم يكن يدركه من قبل، عرف أن أمه مجرد خليلة لولي نعمته زكي بك، وأن ما شاهده طفلا ما هو إلا لقاء حميم بينهما.

لكم ودّ وقتها لو يبقر ذلك الكرش الضخم الذي كان يحمله زكي بك بسكين حاد، وتنامت الفكرة في عقله، خصوصا مع كل مرة يعرف فيها أن زكي قد زار أمه، كان ينتحب ليلًا عندما يجد أثر زكي في المكان، بقايا سجائره، أو جزء من ملابسه، أو حتى رائحته التي تلبست بالمكان وبجسد أمه.

وفي ذلك اليوم الذي كان أمير عائدًا من مدرسته الثانوية، تنامت فكرة الانتقام في عقله، فها هو قد جهز السكين الحاد الذي سينتقم به لشرفه وشرف والده، سيدلف على

زكي بك في قيلولته وبكل برود سيغرس السكين بجسده، ويحدث ما يحدث بعدها، ولو سجنوه ولو أعدموه ولو قطعوه إربًا، فكيف يحيا وكل يوم يغتصب عرضَه ذلك الخنزير الضخم...

وصل أمير للمنزل، وتناول طعامه في هدوء، فوجئ بأن زكي بك خرج من المنزل، ولكنه لم يبال، فخطته مستمرة إلا أنها ستكون ليلًا، الليل أفضل في كل الأحوال، ولعله يقدر على الهرب بعدها.

مرت الساعات ببطء شديد، ولم يعد زكي بك، كان أمير كعادته منطويا عن الجميع، يرد بيسير الكلام على من حوله، ظل ينتظر وينتظر، حتى ملّ الانتظار، وقد خارت قواه وغلبه النعاس، فدخل غرفته واستقل سريره ونام.

وفي منتصف الليل، تسلل أمير غرفة زكي بك في هدوء شديد، وخفة ملحوظة ملتحفًا بالظلام، وقد أخفى تحت ملابسه ذلك السكين الحاد، أخذ يبطئ من خطواته كي لا يشعر به أحد من النيام، كان حريصا على عدم إيذاء زوجة زكي بك، فهي خارج دائرة انتقامه، ولم ير منها شرًّا قط، لذا فعليه أن ينتبه جيدا وهو يصوب ضربته لغريمه.

أخذ يقترب أمير من السرير محاولا كشف قناع الظلام الدامس في الغرفة، إلا أن حرصه الشديد لم يسعفه بالاصطدام بإحدى كراسي الغرفة، فسقط أرضًا محدثًا جلبة شديدة بالغرفة، وقد فقد سكينه في الظلام، وهنا أضاء مصباح الغرفة.

وعرف أنها النهاية.

****

-(أمير.. أمير.. ما هذا الشرود الشديد... أين سافرت بك أحلامك...)

قالها نديم بك، وهو يوقظ أمير بك من شروده، ووجومه.

- آسف يا نديم بك، شردت قليلًا.

- أكيد، شردت في المكافأة التي سنمنحك إياها.

ثم أخذ نديم بك يقهقه في صوت عال، وهو يقول: تستحق يا أمير، ما فعلته قد عجز عنه الجميع، ولقد...

قاطعه أمير قائلًا بجدية: مكافأتي!!!، لا أريد مكافأة، ما فعلته لوطني، ولكني أريدك اليوم في أمر هام، لذا امنحني بعضا من وقتك.

بدت علامات الاهتمام والدهشة في وجه نديم بك وهو يقول: إذن ننتظر نهاية الاحتفال بانتصارنا الكبير، ونذهب لمكان هادئ ونتحدث.

ثم رفع كأسه وهو يضحك قائلا: أما الآن فهو للاحتفال، وفقط.

ثم انصرف مبتعدا عن أمير، والذي عاد بذاكرته للوراء مستكملا مسلسل ذكرياته، المؤلمة.

*****

- (أمير !!!! ما تفعل هنا ؟!!! وما هذا السكين ؟!!! انطق!!!)

كان هذا صوت نورهان، وهي تتفرس بغضب بالغ أمير الساقط أرضا وبجواره السكين، رفع رأسه ليجد أنه ليس في الغرفة سواهما، لم يكن زكي بك موجودا وقتها، نفذ بجلده ذلك الوغد.

- أجبني يا أمير... انطق.

لم يجب أمير ونكس رأسه، بين قدميه وأخذ يبكي بحرقة، تبدلت ملامحها الغاضبة لشفقة شديدة، ثم اقتربت منه واحتضنته، وهي تهدئ من روعه.

- من كنت تريد بالسكين ؟!!!

غمغم أمير بكلام مختلط ببكاء، لم تفهم مما نطق إلا قوله: انتقام أمي زكي.

زفرت بقوة وكأنها تخرج ذلك الهم من داخلها وهي تقول: أعرف كل شيء، أعرف خيانتهما لنا، وخيانات زكي المتعددة لي...

تأملها أمير وهو ساكن بين يديها بتعجب، وهي تردف قائلة: لا تتعجب أني اعرف، كل هذه الأعوام أتحمل، خيانته وسلاطة لسانه وسوء خلقه....

- لماذا تتحملين كل هذا؟

- لأني مثلكما ضعيفة، ليس لي من الأمر شيء.

- ضعيفة؟!!!

- نعم، أتظن أنك وأمك هنا وفاء من زكي لوالدك؟!!! والدك كان مجرد عامل لا قيمة له بالنسبة لزكي بك، ومن سوء طالعكم، أن زكي بك قد صادف أمك وقد أعجبته، وزكي لو أُعجب بشيء فيستحيل أن يوقفه أحد، شبك حباله حولها، نعم رفضته وحاولت وحاولت، حتى جن جنون زكي، وزادت لهفته لها، ولما علم أبوك

ما يضمره الرجل نحو أسرته، واجهه، إلا أن المواجهة لم تطل، كعمره الذي أنهاه زكي، ولم يكن لوالدتك سوى الاستسلام، الفقر والضعف الشديد والخوف عليك أنهكوا مقاومتها فأعلنت الإذعان، مقابل العناية بك.

كان كل ما تحكيه نورهان لأمير أجوبة عن كل ما كان يدور بخلده طوال حياته القصيرة ولم يكن يجد لديها جوابا، إذا فاللوم فقط ليس على أمه، بل على الفقر والضعف الشديد وعليه نفسه، وجوده هو السبب، لقد عاش عمره مع قاتل والده، مغتصب أمه، ومغتصب لصفاء نفسه، فقد تيقن وقتها أن قلبه بدأ عهدا جديدا لم يعد ذلك القلب الطفل العاشق، قد صار قلب أسود مرباد.

- وأنت يا نورهان، لماذا تطيقين حياة مع مثله؟

- أنا؟!!! أنا مثلي مثلكم، إحدى رغبات ونزوات زكي بك، إلا أنه لم يجد ثمة ما يضغط علي به فتزوجني.

- أمير، طال انتظاري لاكتشافك الحقيقة، فأنا أدخرك للانتقام من هذا الوغد.

- سأقتله.

- لا ليس الآن، والانتقام ليس بالقتل فقط.

- كيف إذن؟

كانت وقتها لا تزال محتضنة أمير، فأخفضت رأسها اتجاهه، وقربت شفتيها من شفتاه، فأحس بلهيب عبير أنفاسها وعطرها يجتاح كيانه، وقد أفرغت على فمه قبلة طويلة أشعلت الشهوة الكامنة بنفس الشاب، وأسكره مذاق برودة ريقها، والتي خالطت ريقه، وما أن أفاق أمير من هذه السكرة، انتفض فجأة وأزاحها من عليه مبتعدا عنها، قائلًا بانفعال شديد: ما...ماذا تفعلين؟ كيف تجرئين.

- أمير... أنا أحبك.

قالتها وفي عينيها نظرة رجاء واستعطاف وضعف.

- كيف تحبينني... أنت كأمي.

قهقهت في صوت عال قائلة: أمك تكبرني في العمر كما أنها كل يوم في أحضان زوجي، ألم تأت للانتقام، سأعلمك كيف يكون أول انتقام لك من زكي، ها أنا أمامك زوجته خذ مني ما أخذه من أمك، هكذا يكون الانتقام، وأعدك أنه لن يكون آخره.

نظر إليها أمير في تعجب، وقد سرى الرعب في جسده، كيف يفعل ما يُطلب منه، لطالما عاملها على أنها كأمه، بل

هي أشد رعاية له منها، لم ينظر إليها يوما بنظرة رجل لامرأة، بل طفل لأمه أخ لأخته، كيف له أن يغير تلك المشاعر فجأة.

وأثناء ما كان يفكر في الأمر، نهضت هي وأخذت تقترب منه ببطء ودلال، أخذ يتبعها بصره، إنها جميلة جدا فعلا وملامحها لا تظهر حقيقة سنها فهي تبدو صغيرة عن شبيهاتها، ثم شرع يتأمل مفاتنها وهو يقول في نفسه:

ولم لا... سأنتقم منه شر انتقام، انتقام أفضل من الموت.

كانت متوسطة الطول ممتلئة الجسد بيضاء، كان شعرها كسنابل البر يلهث خلفها، إنها حقا لفاتنة، التصقت بجسده ولفحه لهيب أنفاسها وسرى في جسده خدر لذيذ، وهو يذوق لذة ريقها، إنها أول مرة يقبّل فيها امرأة، لم يعرف قبلها متعة التقبيل، انتصبت حينها شهوته، وقد خلعت عنها ثياب نومها الوردي وتعرت بالكامل أمامه، غمرت أنفه رائحة جسدها، وذلك العطر الهادئ المختبئ خلف ثيابها، فأخذ يغتصبها بعينه، ثم كان بينهما ما بين الرجل وامرأته، وما إن قضي كل منهما حاجته، حتى غادر في صمت دون أن يتكلم ولا أن تتكلم.

غيرت تلك الليلة من أمير، فقد شعر بأنه قد صار رجلا، قد انتهت براءته بعدها، وتعاقبت الليالي بينهما، مثلما تعاقبت من قبل بين زكي وأمه إلا أن زكي قد كبر سنه وزهد فيما يرغب به الرجال، أما أمير وزوجة زكي فقد كانا يزدادان قربا، ليس فقط جسديا، وحتى عقليا، فقد صارت معلمته، تعلّم منها الكثير، تعلم منها الطموح والصلابة، تعلم منها كيف يستغل وكيف لا يُستغل، تعلم منها كيف يصل لمبتغاه ورغم كل شيء، وتعلم منها كيف ينتقم، أثرت فيه وفي نفسه تأثيرا بالغا، رغم أن علاقته بها كانت لإطفاء نار شهوته وانتقامه لا أكثر، لم يكن يحبها ولكنه يشتهيها، وكان يزعجه منها إلحاحها عليه بأن يقول لها: أحبك.

كان يقولها كذبا لأنها كما علمته: الغاية تبرر الوسيلة، صارت تسعى له بين ذوي المناصب ليقبل في الكلية الحربية، وقد نجحت في ذلك فقد مرت الأعوام واستوى أمير على أشده، وقد توفيت والدته، بعدما أصيبت بسرطان الرئة، لم يذرف عليها دمعة كانت في نظره خائنة، وقد تعلم من عشيقته كيف لا يبكي.

انتقل من (فيلا) اللواء زكي بك، ليستقل بحياته بعدما صار، ضابطا ملتحقا بنفس الجهاز الذي يعمل به زكي بك، ورغم ما سرقه الدهر من عمر نورهان، وانقطاع صلتهما الجسدية، لا زال حبل الود واصلا بينه وبينها، بتمام الصلة، معترفا بجميل معروفها فيه، فقد استأنفت ماضي إفضالها عليه وكانت سببًا مباشرة في التحاق أمير بهذا الجهاز، مع علم أمير التام أنه ولولا تفوقه الجسدي والعقلي ما كان أيضا ليصل لهذه المرتبة، ولكن توسطها وزكي بك له في كشف الهيئة سهلا عليه الكثير، وما كانت قوة بنيته وعقله ليدخلا ابن عامل بسيط في هذا الوسط.

لم تكن مشاعر أمير طبيعية فقد نشأ بنفسيتين مختلفتين تماما، وكان مشتتا بينهما، وكأنه منبت فلا أرضا قطع ولا ظهرا أبقى، لا يقوى أن يعيش كربيب لزكي بك، ولا يقدر على الانفصال عن هذا المجتمع، شعور بالغربة لا ينفك عنه، خصوصا وأن مجتمعه الجديد لا يتقبله، صدمه ذلك مع أول احتكاك خارجي له، فقد كان زملاؤه الضباط يكثرون سؤاله عن أهله وطبقتهم، لم يكن لديه ثمة جواب

إلا أنه ربيب لزكي بك، فتتعالى ضحكات الجميع عليه، ثم يديرون إليه ظهورهم في غطرسة وكبر...

تذكر وقتها كيف جرى لأحضانها، يشكو ما يجده ممن حوله، فتهدئ من روعه كعادتها، وتقول له: اجتهد في أن تكون الأفضل، وأنا على يقين أن كل هؤلاء في يوم ما سيحسدون ما ستكون عليه، ولا تنس انتقامك من ذلك الخنزير، هذه هي الغاية لنا.

****

المكان: مجهول

- ما فعله البغدادي من إعلان الخلافة وتوقيت ذلك، كان مردوده عظيم، وخطوة عبقرية منه، وقد ضرب أكثر من طائر بنفس الحجر، فبعد أن غلب على ظننا سقوط دولته بمقتل رجلها الحقيقي حجي، إلا أن البغدادي فاجأ الجميع بإعلان الخلافة الإسلامية؛ وبهذا ربح تعاطف كل الجهاديين مع دولته، فحسم تردد غالب جند الجولاني والذين هرولوا إلى دولته يبايعونها، وقضى على أسطورة القاعدة، بل واكتسب تعاطف كل من خالفه

يوما، فالخلافة على كل حال حلم كل الإسلاميين مع اختلاف طوائفهم.

- يا سيدي، أراك بالغت في إطراء البغدادي، وكأنك فرح بما وصل إليه حاله.
- يا (ع) لن تهزم عدوك قبل أن تعرف حقيقة قدره ومنزلته، وهذا البغدادي داهية، وكنت أرجو أن يكون دهاؤه لنا لا علينا.

صمت ثم التفت إلى (ش) قائلا: وكيف حال الصحوات بالعراق.

- يا سيدي حركة الصحوات السنية في العراق من الجماعات الأخرى التي تعادي البغدادي، أتت بثمارها وبها استطعنا اختراق بعض أجهزة دولة البغدادي.
- رائع يا (ش) وما النتيجة؟
- يا سيدي الأمر جلل، البغدادي صنع دولة بالفعل، فاقتصاد دولته أقوى مما كنا نتصور، وهذا بعد إحكامه السيطرة على غالب آبار البترول في بلاد السنة بالعراق، ومرتبات العاملين بدولته أفضل من جميع

البلاد العربية، ناهيك عن التطور المذهل في صناعة الأسلحة إلا أنه.

صمت (ش) وهو متردد في مواصلة الحديث، وقطع تردده صوت يقول بفارغ صبر:

- وماذا؟

- للبغدادي جهاز مخابرات، وقد كشف عن الكثير من عملائنا هناك، وهو الآن حسب ما أتتنا من معلومات يقوم بتصفيتهم.

- ماذا؟ هل كشف رجال الصحوات؟!!

- نعم يا سيدي للأسف الشديد غالبهم قد كشف أمرهم، وقد أرسلوا إلى رجالنا هناك برءوسهم.

- حتى رجالنا بالعراق كشف أمرهم؟!!!!

- للأسف، أجل يا سيدي

- إذا فلا مناص من إرسال (ص).

ذهب القلق من نفوس الجميع فمجرد ذكر (ص) بعث في نفوسهم الثقة في نهاية دولة البغدادي للأبد.

****

المكان: مصر

جلس نديم بك وأمير بعد انتهاء الحفلة، في ذلك (الكازينو) المطل على النهر، كان أمير يخفض رأسه حياءً، لا يتعدى نظره موضع قدمه، في حين جلس نديم بك يدخن (سيجارته) متفحصا أمير في تعجب شديد، ليس فقط لإلحاح أمير على اللقاء ثم صمته المفاجئ الآن، ولكن أيضًا لتلك النظرة الخجولة المنبعثة من عينيه، وذلك الحياء الذي قرر وفجأة أن يحيط بأمير، لم ير وقتها أمير الصارم والذي لا تفارقه ابتسامة السخرية الدالة على ثقته الشديدة بنفسه، كل من رآه ساعتها شابًا خجولًا صامتًا، لا زال القدر يفاجئه.

وَأَدَ هذا الصمت صوت أمير الذي قال في هدوء: نديم بك، لا أعرف من أين أبدأ؟ وإنـ...حـيث.... لعل....

قهقه نديم بصوت عال، فلفت بذلك انتباه رواد (الكازينو)، وهو يقول: ماذا حدث لك يا أمير، أم أن الخمر قد لعبت بعقلك، أمير المفوه يتلعثم بالكلمات.

أخذ يضحك مرة أخرى نديم وهو يلمح ذلك الخجل على ملامح أمير، وقال وهو يحاول إيقاف ضحكه: من يراك الآن يقول، إنك قادم لتخطب عروسك.

ثم انفجر ضاحكا، ولكن سرعان ما تبدل الضحك لعلامات دهشة وغضب، بعدما قال له أمير في هدوء: نعم... هو ذا... يشرفني أن اتقدم لخطبة ابنتكم رؤى.

- من؟ رؤى ابنتي!!!

وهنا وفي صوت عال جدًّا، أخذ يصيح نديم بك، بثورة شديدة قائلا: ماذا أفقدت عقلك أيها المجنون؟!!! ما تظن بنفسك أيها المشرد اللقيط ؟!!! هل تظن أن منصبك هذا يؤهلك لتجرؤ للتقدم لخطبة ابنتي؟!!! ابن الشاويش يتقدم لخطبة ابنتي؟!!!!

ثم ساد الصمت بينهما، إلا أن نديم بك فجأة أخذ يقهقه في هيستيريا: هذا ما فعلَتْه الأفلام؛ ابن الجنايني يريد أن يتزوج بنت الباشا.

ثم تبدلت ملامحه كرة أخرى لملامح الغضب وهو يقول لأمير منكس الرأس: مجرد ورود الأمر على خاطرك، هذه تعني نهايتك يا ابن الجنايني... أقصد الشاويش.

ألقى تلك الكلمات وهو يغادر المكان فجأة، بخطوات مسرعة، في حين جلس أمير في هدوء يتأمل النيل، وقد عادت إليه

ابتسامته الساخرة، وهو يقول بصوت مسموع: أو نهايتك على يد ابن الجنايني، يا نديم بك.
كان على ثقة تامة بأنه المنتصر في تلك المعركة، بل في كل المعارك، رؤى ستكون له، وعلى إثرها، ستنتهي أسطورة نديم بك.

****

المكان: بغداد
جلس عمر يتناول كوب الماء البارد في توتر شديد، ويداعب جواله بين الحين والحين، حتى سمع رنة هاتفه فأجاب مسرعا: السلام عليكم يا شيخ جعفر.
فأتاه الجواب: وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته.. كيف حالك يا أخ عمر.

- يا سيدي الحال لا يسر، فبالطبع قد تنامت إلى أسماعكم خبر مقتل بعض قادة الصحوات السنية، وأخشى أن يكون الدور عليّ.
- يا أخ عمر.. لا داعي للقلق، فأنى لهم أن يعرفوا بتعاونك معنا، أو حتى يصلوا إليك.. وقد غيرنا مكان إقامتك، وأهلك في مكان أمين حتى ينقشع هذا الهم.

- أهلي المحتجزين لديكم؟!!

- محتجزين؟!!! اتق الله يا أخ عمر زوجك وابنتك في مكان أمين حتى لا تصل إليهم أيدي داعش، فبعد أن أرسلت إلينا قائمة بأسماء بعض المنتمين إليهم وأماكن تواجدهم وبعض القبائل الموالية لهم، لن يكون جزاء إحسانك معنا إساءة، ولا تنس كمَّ الأموال التي حصلت عليها بسبب تعاونك معنا، وتعيينك في أهم الوزارات عندنا بالدولة، وحتى شقيقك قريبا جدا سيتم العفو عنه... وبعد هذا كله تتهمنا باحتجاز أهلك... اتق الله، والله لولا يد لك علينا لكان ردي أشد مما تتخيل.

- العفو يا سيدي، ما قصدت هذا، ولكن أرجو منكم العناية بهم، و...

انتفض عمر للجلبة الحادثة خارج منزله، فأطل برأسه من النافذة وإذ بجماعة من جنود الجيش العراقي تقتحم عليه منزله، وقبل أن ينطق أو يدري ما يحدث، وجد نفسه محاصرا بين ستة من الرجال المسلحين، فقال لهم بخوف: ماذا تريدون مني، أنا عمر السامرائي وكان معي على الهاتف الآن الشيخ جعفر، ولن يرضيه ما تفعلونه الآن و....

قاطعه صوت عميق: وهذا ما أردنا سماعه، ونحن جنود دولة الإسلام.

ملأ الرعب وجه عمر، وانهمرت الدموع والتوسلات، إلا أنهم جروه إلى خارج منزله كالذبيحة، وقد أحاطه أحدهم من ظهره ممسكا برقبته، في حين وقف الآخر أمامه يصوره بكاميرا، لم يقدر عمر من شدة الخوف على النطق، بل كان مستسلما وسكين الجندي يُقطع رقبته...

وعلى الجانب الآخر....

جلس الشيخ جعفر ومعه جون في ذلك المكتب الفخم، يتناولان كأسا من النبيذ، وقد علت ضحكاتهم...

قال جون في حزن مصطنع: حزين جدا لمقتل عمر... ولكنك يا شيخ جعفر المسئول.

- **أنا يا جون.. وكيف هذا عمر كان أحد رجالنا.**
- **لقد قصّرت يا جعفر في حمايته، وكل هذا من أجل.**

صمت قليلا ثم قال في خبث: من أجل زوجته الشهية.

تعالت ضحكات الاثنين مرة أخرى في حين أردف جون قائلا: أرجو أن تستحق هذه المرأة أن نخسر لأجلها أفضل عملائنا.

اقترب جعفر من جون وكأنه يسر له بقول: تستحق جدا، وسترى بنفسك الليلة.

وتعالت ضحكاتهم مرة أخرى.

****

المكان: مصر

في حديقة فيلا نديم بك الواسعة، سارت رؤى في خطوات بطيئة، مداعبة بكفها هاتفها الجوال، تمنت أن يتصل أمير، انتظرت اتصاله طوال الليل، فلم يتصل، تأوهت في حزن ثم جلست في إحدى المقاعد المتناثرة، ووجهت وجها لتلك النافورة التي تتوسط الحديقة، إنها تفتقد أمير، وتفتقد خلسة لقاءاتهما، سيرهم تحت المطر، رقصاتهم على الموسيقى الكلاسيكية في منزل أمير، مقابلاتهم البريئة في غرفة نومها، ورغم الحراسة وتشديد الوثاق على حركاتها، إلا أن أمير يعرف دائما كيف يدبر للقاء، مع أمير لا يوجد مستحيل، لكم تشتاق لأعجب كلمات العشق والتي يعزفها على مسامعها، نظرة عينيه الحزينة، دفء قبلاته، مع أمير تشعر بأنها حية، قلبها ينبض، ولا حياة بلا قلب ينبض.

اتفقا على أن يفاتح أمير والدها بخصوص ارتباطهما، وقد جاهد أمير ليصل لمرتبة لا يُرفض فيها، ونجاح غير مسبوق يشفع له عند والدها.

ولكنه لم يتصل منذ الأمس، وحتى والدها لم يأت للمنزل إلى الآن، زاد ذلك من قلقها، حتى انتشلها من أفكارها صوت هاتفها الجوال، وإذ بشاشته تعلن على أن المتصل أمير.

- أمير، لقد افتقدتك جدا، لِمَ لَمْ تتصل أمس، لم...

قاطعها صوت أمير: - حبيبتي، اسمعي ما سأقوله لك بلا نقاش.

فأخذت تستمع لكلماته، وقد اتسعت عيناها من أثر المفاجأة، فقد كان ما يقوله أمير ما هو إلا إعلان الحرب، على أقرب إنسان إليها...

على والدها....

****

المكان: سوريا

- ما رأيكم في اقتراح أبي إياس ؟

- أظنه قرارًا صائبًا يا سيدي.

- **وأنا كذلك أظنه ولكني أحببت المشورة... فوحدة الفصائل الجهادية المختلفة هنا في سوريا فقط من يقدر على الوقوف أمام تمدد داعش، فبعد إعلان البغدادي الخلافة، وانسياق غالب الأخوة المجاهدة لدولته دون وعي وراء حلم الخلافة جعل موقفنا في غاية الضعف، وسمح بانتشار الفكر الخارجي في صفوف الأخوة، لم يعد ثمة سبيل أمامهم بعد سقوط ثورات الربيع العربي، وإخفاقنا في القضاء على بشار، وتنازع الجميع، إلا هؤلاء الخوارج؛ ولذا كان لزاما علينا توحيد صفنا وجمع كلمتنا على كلمة سواء، وانصهار جميع الفصائل تحت راية جهادية واحدة لتأمن الأمة شر هذه الشرذمة الضالة التكفيرية المجرمة الخارجة.**
- **ولكن أفكارنا تختلف عن غالب هذه الفصائل، فكيف لنا التعامل مع هؤلاء؟**
- **بعد انشقاق كثير من قادة جندنا الآن وانضمامهم للبغدادي، وسقوط الكثير من الأراضي التي كانت تحت سيطرتنا، فليس ثمة سبيل سوى الوحدة.**

- أقترح يا سيدي، توجيه الدعوة أيضا لأبي عمر الشيشاني.
- ماذا تقول يا أبا إياس؟
- أقول ما ينبغي أن يقال يا سيدي، ولو سمحت لي أن أبين قولي، والرأي لكم في الأخير.
- تفضل.
- لقد طال الصراع بيننا وبينهم وعدونا واحد، ولم يستفد من صراعنا سوى بشار وجنده، أعرف أنهم هم من بدأ الصراع، ولكن ألا ننهيه نحن، لقد تحالفنا مع قوى هي أبعد عنا منهم، بل هم الأقرب من كل الفصائل الجهادية لنا، تتحد رايتنا ورايتهم ضد العدو المتربص، حتى يمكّن الله لنا ويكون ما يكون، والشيشاني رجل فاضل وبيننا وبينه اتصالات، وقد أظهر حسن معدنه بأن أفرج عن بعض أسرانا لديه، بل قد أعاننا من قبل عندما أحاط بنا جند بشار، فلو أرسلنا إليه ثلة من العلماء المجاهدين، يخاطبون صلحه ورضاه، وتوحد كلمتنا، فلا أظنه يرفض.
- وهل سيوافق البغدادي على هذا؟

- غالب جند داعش يدين بالولاء للشيشاني، فمروءته في الحرب معنا، وإثخانه في الجيش النصيري، واختلافه التام عن حجي، جعلت له يد قوية على الجند.

صمت أبو إياس ثم أردف وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة ساخرة: ولا أظنه يرفض، لو منيناه بنيابتكم على الفصائل الجهادية وأن يكون الرجل الثاني في هذه الوحدة المباركة، فحفْظ الدماء السنية والقتال الذي طال خير من مناصب زائلة.

- ولكن؟..

قالها الجولاني إلا أن الجمع الموجود قاطعه قائلا في صوت رجل واحد:

- القول ما قاله أبو إياس.

ابتسم أبو إياس ابتسامة رضا، في حين علا القلق ملامح الجولاني، لقد صار لأبي إياس كلمة مسموعة لمجلس شورى جبهة النصرة، وهذا نذير بصراع جديد، بينهما صراع الذئاب.

****

المكان: مصر

- **ماذا تقول يا غبي؟ اختفت؟ ما تعني بقولك اختفت.**
- **يا سيدي، لقد كانت هنا ولكنها فجأة اختفت كأنها تبخرت، ولم تترك سوى الرسالة التي تقول إنها غادرت للأبد.**
- **أيها الأحمق، ابحث عنها الآن، وإلا ستكون نهايتكم جميعا.**

أغلق الهاتف نديم بك، وفي سرعة أجرى اتصال من جواله إلا أنه لا مجيب، وفي عصبية بالغة، ألقى بهاتفه أرضا، وقد اشتعل وجهه بنار الغضب، وأخذ يتمتم قائلا: إذن فقد بدأت الحرب يا أمير... هذه نهايتك حتما.

ثم توجه لهاتف مكتبه، ورفع سماعة الهاتف وهو يقول: أوصلني بحاتم الآن.

ارتجف الصوت المقابل وهو يقول: حاتم من يا سيدي.

أجابه نديم بك في قوة: وهل هناك في إدارتنا غيره، حاتم بدران.

كان وقع الاسم على الصوت المقابل له، مخيفا جدا...

فحاتم بدران، لا يُذكر اسمه إلا مرتبطا بنهاية إنسان.

****

المكان: الرقة

استقبل الشيشاني رسل الجولاني في حفاوة بالغة، وقد تألقت صفحته، وقد هيأ المكان لاستقبالهم، وبعد تبادل كلمات الترحاب والثناء، جلسوا جميعا فتناولوا وجبة من الطعام الشهي قد أمر الشيشاني خادمه بإعدادها، وما إن انتهوا حتى اجتمع بهم الشيشاني في منزله الخاص، وقد كان حاضرا معه ثلة من مستشاريه المقربين.

تساءل أحد الرسل: كانت أمنيتنا مقابلة الأخ أبو يحيى، فأين هو.

بدا القلق على وجه مستشاري الشيشاني في حين أجاب الشيشاني بهدوء: الأخ أبو يحيى لديه عمل كثير، قد كلفناه به.

كانت إجابة الشيشاني غير مريحة للموجودين، فالجميع يعلم أن أبا يحيى كان الرجل الثاني لحجي في الشام، وعدم وجوده في مثل هذا الاجتماع الهام، فهو نذير لتنحية الشيشاني له من دوره كمستشار.

قال أحد الرسل: يا سيدي قد طال الصراع بين القوى المجاهدة، ووالله ما جئنا إلا للإصلاح ما استطعنا، ونذكركم بقول الله تعالى: {واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا}، فالاتحاد فيه خير عظيم، والفرقة شرها وخيم {الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا كل حزب بما لديهم فرحون}، فاللهَ اللهَ في الوحدة والاجتماع، وسوف تُسألون عن الدماء التي تتساقط من هاهنا ومن هاهنا، فاتقوا الله واتقوا عصمة دماء المجاهدين.

هذا ما جئنا لأجله وقد تحالفت القوى الجهادية الإسلامية تحت راية واحدة بقيادة الجولاني، ولم يتبق سوى دولة الإسلام.

ابتسم الشيشاني قائلا: جزاكم الله خيرا على النصيحة وقد صدقتم في مقالتكم، ولكن كيف لدولة أن تخضع لحكم جماعات، ولماذا لا تجتمع الجماعات الجهادية تحت راية دولتنا ونحن الأقوى والأكثر ترابطا وتنظيما.

صمت الشيشاني وهو يستشف وقع كلماته على رسل الجولاني ثم واصل كلامه: الله علم أني لا أريد منصبا أو مكانة، بل كما قلتم توحيد الصف أولى من هذه السفاسف،

ولكن خليفتنا البغدادي لا أظنه سيرضى إلا ان تكون جميع الجماعات تحت راية دولة الإسلام.

ظهر التوتر على ملامح رسل الجولاني وأخذوا ينظرون لبعضهم البعض حتى قال كبيرهم: سندعو الجولاني لذلك عسى الله أن يصلح الأمر، ولكن بعد إعطاء الأمان له ولجبهته.

ابتسم الشيشاني ابتسامة رضا وقال: لكم مني هذا.

استأذن الرسل بالانصراف، وقد سمح لهم الشيشاني تحت حراسة من جنوده، وقد انطلقت السيارات بهم منطلقة من الرقة إلى ريف إدلب مقر الجولاني، وما إن خرجوا من الرقة حتى تفاجأوا بجموعة من السيارات التابعة لدولة الإسلام تعترض طريقهم، فتوقفت سيارات جنود الشيشاني وقد دلف منها قائدهم، متجها للسيارات المعترضة طريقهم، وما إن اقترب من هذه السيارات حتى علا صوته: السلام عليكم... إخوتي في الله، هداكم الله ماذا تريدون.

لم يجبه أحد ممن استقل هذه السيارات حتى أخرج أحدهم رسالة وسلمها للقائد، وما إن تسلمها القائد في تعجب ودهشة، وقد فضها وأخذ يقرأها وما إن انتهى حتى أدى

التحية العسكرية لمن سلمه هذه الورقة، وفي حركة آلية عاد للسيارة التي أقلت رسل الجولاني، ودون أن يتكلم صوب بندقيته إليهم وقال في حدة: ما من فرار من تنفيذ أمر خليفة المسلمين ثم صاح: الله أكبر.

وقبل أن يفهم الرسل ما يدور حولهم كانت رصاصات القائد تخترق أجسادهم.

****

المكان: مصر

قطعت رؤى مسافة كبيرة، بهذه السيارة الفخمة والتي قد أقلتها من مكان بجوار منزلها، لمكان لا تعرفه، فكل ما تعرفه الآن هو أنها ستقابل أمير، وأنه لا سبيل لهما سوى ذلك، كما أوضح لها أمير.

وأخيرا بعد مرور ساعتين كاملتين، توقفت السيارة أمام تلك الفيلا المنعزلة، وأشار لها السائق بالنزول، وما إن هبطت من السيارة، حتى وجدت أمير يقف أمام البوابة، فركضت نحوه، وألقت بجسدها في حضنه، دون أن تتكلم، وقد انهمرت دموعها، في حين احتضنها أمير في حنو شديد،

وهو يقول: لا تقلقي يا عمري، كل شيء سيحل قريبا، ثقي بي.

رفعت رأسها لتتطلع لعينيه وقالت: أنا لا أثق إلا بك يا أمير.

أخذ أمير يداعب خصلات شعرها، ثم قال: هيا بنا... فهذا منزلك الجديد.

كانت الفيلا في غاية الاتساع وكانت مليئة بالأثاث، فاتخذا منضدة وجلسا عليها.

- ما هذا المنزل، لم تخبرني عنه من قبل، أم تراه وكرا لمقابلة المعجبات والحسناوات.

- لا معجبات ولا حسناوات في حياتي غيرك، فالنساء بعدك يا عمري سراب.

ابتسمت له في حين أردف قائلا: هذا منزل هدية من صديقة.

- صديقة؟!!!!

- لا يذهب عقلك لبعيد، إنه هدية من نورهان.

لم تعلق رؤى فهي تعلم أن نورهان، بالنسبة لأمير أسرته؛ ولذا غيرت مجرى الحديث فقالت: وماذا بعد.

- وماذا بعد، بعد يومين ستكونين ملكة هذا المنزل وملكة حياتي.

- وأبي؟!!!

- سيرضى بالأمر الواقع، ولن يجد ما يفعله.

- أنا خائفة جدا يا أمير، فأنا أدرى الناس بأبي، أبي سينتقم شر انتقام.

- ثقي بي، ودعك من والدك الآن، فلدي سؤال في غاية الأهمية.

- ما هو ؟

- ما عدد الأولاد الذين تريدين إنجابهم.

ضحكت رؤى، في حين ابتسم أمير واحتضنها وأخذ يتأمل عينيها وتتأمل عينيه حتى قال: لو تدرين كيف كانت حياتي قبلك، فلقد أتيت لصحراء حياتي فأنبتي بها الزهر، ونشرت عطر الياسمين بها، وأبدلت سوادها نورا، وكوابيسها رؤًى...

تنهدت رؤى، وقد أفرغت على خده قبلة، ومالت برأسها على صدره، دون أن تتكلم... فلم يزل القلق يراودها، فهي على يقين أن والدها لن يصمت بل سيكون انتقامه شديدًا... شديدًا جدًّا.

****

دلف أمير مكتبه في هدوء كعادته، إلا أن نفسه تلامس السحاب من نشوة الانتصار، بكل يسر قد حاز على حبيبته، وبعد يوم ستكون له، لم يكن يخشى انتقام نديم بك، فماذا يمكنه أن يفعل.. ابنته راشدة، ومنصبه وزكي بك يحميانه من نديم، صحيح وأن منصب نديم يفوقهما، إلا أنه يعلم أن مكانته الآن في هذا الجهاز لا تهتز بعد أن كان السبب الرئيسي في سقوط تلك الجماعة، وروى في أمان في منزله المنقطع عن البلد والذي لا يعلم أحد عنه شيء سوى نورهان، وهي أعز صديقة له، وأسعدهم بعلاقته بروى، رغم توتره في البداية من معرفتها بالأمر وخشيته أن تسكر الغيرة عقلها، إلا أن نورهان فاجأَتْه بسعادتها، وقد رأت في علاقته بروى سبيل قوي في الانتقام من زكي بك، بل وأهدت إليه هذا المنزل، يعلم أمير أن نديمًا لن يسكت، وسيحاول الانتقام، ولكن نجم أمير الآن في أوجه، فلا سبيل له إلا بالتخلص أولا من زكي بك حامي أمير، وهذا ما يسعى إليه أمير، يضرب نديم بزكي، تأكد أمير من أن خيوط اللعبة في يديه الآن وقد أحكمها، ولم يكن يدري أن الرياح تأتي بما لا تشتهي السفن.

فوجئ أمير باقتحام نديم بك مكتبه وفي رفقته شاب نحيل كان أمير يعرفه جيدا وقد سرت قشعريرة بجسد أمير حينما رأى هذا الشاب.

- أمير بك، افتقدتك جدا منذ تلك السهرة.

لم يجبه أمير، فقد كان التوتر مسيطرا عليه منذ رؤيته لذلك الشاب.

فواصل نديم حديثه قائلا: الواضح أنك مشغول الآن، أحب أعرفك بصديقي.

وأشار لذلك الشاب ثم استطرد: أظن أنك تعرفه جيدا، على كل سأعرفك عليه، حاتم بدران المسئول عن قسم المراقبة والتسجيلات بجهازنا.

ثم مال نديم على أذن أمير وهو يقول بصوت منخفض: طبعا أنت تعلم نوع التسجيلات.

- ماذا تريد يا نديم بك الآن، فأنا مشغول ومعي بعض التقارير التي يجب أن أنهيها.

لم يعر نديم بك اهتماما لكلام أمير، واستقل إحدى المقاعد وجلس وأشار لرفيقه بالجلوس، ثم قال بجدية: ما فعلته يا أمير لا يغتفر، ولولا زكي بك لكانت نهايتك الآن.

ابتسم أمير بسخرية قائلا: لا أعلم ما الذي تتكلم عنه يا نديم بك، أرجو التوضيح.

انفجر نديم بك ورفيقه ضحكا، تغلّب نديم على ضحكاته ثم أخرج من جيب بدلته قرصا مدمجا، وناوله لأمير والذي تناوله في تعجب قائلا: وما هذا؟!!

- شاهده يا أمير، وبعدها نتكلم.

ثم نهض نديم ورفيقه للخروج، وأثناء الخروج قال نديم لأمير الذي لم يحل وجهه عن القرص المدمج: أرجو أن تنتهي منها الآن، وإلا ستندم.

قالها وغادرا الغرفة، اتجه أمير إلى جهاز حاسبه، وقام بتشغيل الاسطوانة، وبعد لحظات اتسعت عيناه من الرعب فما رآه مرعبا حقا، إنها نهايته.

****

المكان: مجهول بالعراق

تعالت ضحكات البغدادي، وهو يستمع للقحطاني وزير المخابرات في دولته، يصف له حالة الشيشاني بعد علمه بقتل رسل الجولاني، عن طريق جنود دولة

الإسلام، في حين واصل القحطاني حديثه: فلم يسعه في النهاية إلا أن يقول السمع والطاعة لأمير المؤمنين.

صمت القحطاني ثم أردف قائلا: لا أدري يا خليفة المسلمين، لماذا لا تأمرنا بقتله، فقد ثبت تورطه في قتل حجي بكر.

- ليس هكذا تدار الأمور يا قحطاني، لهذا الخائن شعبية واسعة في وسط الأخوة المجاهدة، وقتله أو حتى محاولة قتله فهذا يعني شق الصف في سوريا، والوقت لا يسمح بذلك الآن.

ضحك فجأة البغدادي قائلا: دع لنا غنمه وعليه وحده الغرم.

ابتسم القحطاني، في حين سأله البغدادي: وما حال جبهة الجولاني؟

أجابه القحطاني في جدية: وقْع الأمر عليه كان كالفاجعة، فقد قُتل خير رجاله ومستشاريه، وهو يعلم أن رجله الشيشاني قد كُشف أمره، و....

قاطعه البغدادي: وهذا المكنى بأبي إياس...

- الجميع ألقى بمسئولية ما حدث عليه، وقد استغل ذلك الجولاني في إضعاف نفوذ أبي إياس على مجلس شورته، كعادة الجولاني لا يرتضي إلا أن يكون الرجل الأول.

- أريده يا قحطاني.

- من يا خليفة المسلمين؟

- أبو إياس، فمثل هذا الشاب تنهض به دول.

امتعق وجه القحطاني، فما يكلفه به البغدادي هذه المرة، أمر شبه مستحيل.

****

المكان: مصر

- كيف يا نديم بك حصلت على مثل هذا؟ كيف؟

بدا أمير وهو ينطق بهذه الكلمات في حالة من القهر، في حين ابتسم نديم بك في انتصار وهو يقول: كل صغيرة وكبيرة عن عملائنا وموظفينا ورجالنا لدينا فيه تسجيل، فلا تتفاجأ بالفيديوهات التي توضح علاقة المصونة والدتك وزكي بك، أو علاقتك أنت ونورهان، وتخطيطكما للانتقام، إلخ إلخ....

كما قلت من قبل لكل إنسان نقطة ضعف، وهذا عملنا استغلال نقاط الضعف.

- أيها الخبيث كيف تجرؤ أن....
- قبل أن تتعدى حدودك، ما كنت لأستخدم مثل هذا، ولكن أنت تحديتني، وظننت أنك من اليسر أن تأخذ مني ابنتي، وهذا درس لك يا أمير، قدّر قوة خصمك ولا تستهن بها.
- وماذا تريد مني الآن.
- لا تخف، لن أجعل جسد أمك وجسدك ونورهان عرضة لكل العيون، ويكفي عيني لتحفظ ما رأته،...

كانت كلمات نديم بك كالخنجر في قلب أمير، لقد استطاع اللئيم أن يقضي على أمير، فمن أين لأمير أن يعرف بوجود مثل هذه التسجيلات، كل صغيرة وكبيرة مصورة، شعر أمير بالخزي والعار، عرضه وشرفه تلتهمه أعين نديم بك، الذي استطاع أن يعرّي أميرًا بالمعنى المجازي والحرفي، إحساس الخزي والعار هو ما امتلك أميرًا، يعلم جيدا أن نديم بك بهذا قد سيطر عليه للأبد...

- وماذا تريد مني الآن يا نديم بك... كرر أمير السؤال وهو في حالة ضعف شديد، وقد كان الكلام يخرج منه بصعوبة بالغة.
- أولا أريد ابنتي، التي اختطفتها.
- وثانيا؟
- أن ترحل من مصر كلها؟
- ماذا؟
- كما قلت لك، أن ترحل من مصر كلها، لا وجود لك بيننا يا أمير هنا.
- وكيف ذلك، وعملي، و...
- اليوم، سيتصل بك مكتب مدير المخابرات العامة المصرية، وسيكلفك بمهمة خارج البلاد.
- مدير المخابرات العامة، وما شأني به؟
- ستعرف كل شيء، ولكن وقبل أي شيء، لا تذهب للفيلا التي بها ابنتي، وسأعتبرها هدية منك لها ولي، ولا أظن أن نورهان ستحزن.

لم يعلق أمير، فكل ما يقدر على فعله هو انتظار مصيره والذي بات بيد نديم بك.

****

المكان: العراق... سجن تسفيرات

كان المشهد مفاجئ لجميع المسجونين وهم يرون زميل الأمس قد ارتدى زيا عسكريا وفي يديه سلاحه وهو يأمر وينهى في جنود السجن، إلا أن أثر المفاجأة زال عندما أخذوا يحللون الموقف، فحيدر الوحيد الذي لم ينل قسطا من عذابهم، كان دائما مميزًا وسط الجميع، غير أنه شيعي، وفي النهاية اهتدت عقولهم إلى أن حيدر كان عينا قد زُرعت وسطهم، ولكن هل يحتاج هؤلاء لزرع عين وسطهم، فكل شيء تسجله كاميراتهم....

رمق البعض أبا الحسين السامرائي بلوم شديد، فهو مَن قرّبه منهم وأحسن به الظن، كان خطأ مثل هذا غير مقبول ممن هو مثله، ولكن زادت دهشتهم وهم يلاحظون تلك الابتسامة التي علت وجه أبي الحسين، وهو يراقب تحركات حيدر وأوامره للجند.

تقابلت أعين أبي الحسين وحيدر فارتسمت ابتسامة خفية على ملامحهما، إلا أن الأخير أشاح بوجهه مواصلة عمله.

أما أبو الحسين فكانت نشوة النصر تمكنت منه حتى أنه لم يستطع إخفاءها، فقد سارت الأمور كما كان يخطط لها، بل أفضل مما خطط لها، قد اقترب موعد الخروج... والانتقام

****

المكان: القاهرة

تفضل يا أمير بك، يسعدني جدا لقاء أسطورتنا.

أشار مدير المخابرات المصرية بيديه لأمير بالجلوس، فجلس أمير وقد رسم ابتسامة باهتة على وجهه، فإن قلبه يغلي نارا، قد مر بكل هذا في يوم واحد، وها هو الآن لا يعرف ما الذي أتى به إلى هنا، ولا يعرف حتى مصير رؤى.

- أمير بك، تعجب جهازنا من اقتراح نديم بك اسمك للقيام بهذه المهمة، وزال تعجبنا بعد ما علمنا ما حدث بينكما.

شعر أمير بالحنق الشديد، فقد اتضح أن الجميع يعلم بكارثته، لم يُجب أمير، بل اكتفى بالاستماع للمدير والذي واصل حديثه قائلا:

- ولكن قبل البدء في شرح المهمة ودورك فيها، أحب أن أقول إن هذه المهمة هي الأولى من نوعها، لم ينجح

فيها أحد قط، هي أشبه ما يكون بالمهمة المستحيلة؛ ولذا أرجو أن تفكر جيدا في قبولها من عدمه.

- أرجو يا سيدي التوضيح.

- نعلم أن إسناد هذه المهمة لك، عقوبة عن صراع بينك وبين نديم بك، إلا أن معرفتك بالتيارات الإسلامية، ومهاراتك التي نعرفها، جعلتنا نفكر جديا في الاستعانة بك في مثل هذه المهمة.

بدا الاهتمام على وجه أمير والذي قال متسائلا: وأي نوع من المهام هي؟

أجابه مدير المخابرات قائلا:

بالطبع تعلم، الأحداث في سوريا والعراق، وظهور تلك الكيانات الإسلامية هناك.

- نعم أعرف، كما أعرف أن غالبها مخترق، من دول عدة.

- ولكن لم يستطع جهاز مخابرات في العالم، اختراق الدولة الإسلامية في العراق والشام أو ما يطلق عليها داعش من قبل، الكل فشل، وهي الأقوى بين الجماعات هناك.

- داعش؟!!!

- نعم، فزراعة عميل داخل داعش، وتكليفه بمهام معينة، مهمة مستحيلة، لم ينجح أحد فيها من قبل، الجماعة تتمدد بقوة يوما بعد يوم، وفشل الجميع في اختراقها أمر مقلق جدا، واستراتيجيتهم تختلف عن كل الجماعات الإسلامية التي واجهناها؛ فهي تختلف عن القاعدة جدا.

صمت مدير المخابرات ثم أردف قائلا: فكر جيدا، فنحن فعلا في خطر من وجود هذه الجماعة والتي لا نعرف مخططاتها تجاهنا، نديم نحن قادرون على إيقافه عنك، فلن تضطر لإنفاذ المهمة إذا لم ترد، ولكن اعلم أنه لو أحد قادر على إنفاذها فلا يوجد سواك.

صمت أمير، فقد كان اسم داعش كافيا ليعلم أمير أن نديم بك يرسله إلى حتفه.

وإلى مصيره المحتوم، كما كان على يقين أنه لا مفر من قبول هذه المهمة.

****

الفصل الثامن

بداية جديدة

على أطراف محافظة صلاح الدين العراقية، تحركت تلك المجموعة من الملثمين في خطوات مدروسة اتجاه ذلك المعسكر الذي يشق سماه في علو وزهو العلم العراقي، حتى استقرت على بعد أمتار منه، وفي آلية انقسمت هذه المجموعة إلى مجموعتين، واصلت إحداهما طريقها إلى الجانب الشرقي للمعسكر، في حين توقفت الأخرى عند الجانب الغربي للمعسكر، وما إن اتخذ كل جندي مكانه حتى ألقى من يديه بندقيته ليلتقط (كاميرا فيديو ديجيتال حديثة الصنع) من حقيبته الصغيرة المعلقة بظهره، وصوب الكاميرا اتجاه المعسكر.

يا أسود الشرى، إن مهمتكم هذه لا تقل أهمية عن مهام إخواننا المقاتلين، فإنكم في جهاد عظيم، أنتم بأيديكم تأرخون لدولتنا انتصاراتها وإثخانها في أعداء الله، وإن الحرب الإعلامية هي أشد الحروب على الإطلاق، ولطالما انتصر فيها أعداء الله فنسأل الله النصر فيها.

هذه الكلمات الحماسية التي ألقاها آسر، كانت كمؤشر لبدء مجموعته في العمل، علت ابتسامة فرح على وجه آسر، الذي لم يكن هو نفسه الوجه القديم، فقد كانت هيئته مختلفة تماما، فقد نمت لحيته بشكل ملحوظ، وطال شعره حتى أسدل على كتفيه، وذلك الزي العسكري الثقيل، الذي زاد من وسامته، كان يجلي ما آل إليه حال آسر.

كان قلبه يرقص فرحا، فقد اختص بتأريخ هذه اللحظات الهامة من مصير الأمة، لم يكن قرار تركه لمصر ولأسرته، وقدومه هنا في دولة الإسلام بالأمر الهين ولا السهل، قد واجه كل الصعوبات في سبيل وصوله لهنا، هنا أرض الخلافة التي كانت حبيسة الكتب والنظريات، ها هي حقيقة أمامه، وها هو يعيش نهضتها وانتصاراتها، بل ويؤرخ لذلك.

ليتك معي الآن يا محمود لتعلم أنك كنت تقاتل مع الجانب الخاطئ... قالها آسر وتنهد في أسى، ثم أردف: رحمك الله يا صديقي.

ثم التفت لجنده قائلا: لا تتركوا شاردة ولا واردة إلا وقمتم بتصويرها و..

-يا سيدي مدرعة أبي العلاء تقترب.

صرخ بها أحد الجنود في حين قال آسر: الآن بدأ العمل، وأمسك بجهازه اللاسلكي، قائلا: المجموعة (ب) فلتتجه عدساتكم لمدرعة أبي العلاء، ثم وجه حديثه لجنده قائلا: وأنتم عليكم تصوير المعسكر ونهايته إن شاء الله.

ظهرت المدرعة وهي تشق الأرض في سرعة اتجاه المعسكر، وهنا صوب آسر عدسة كاميرته اتجاه المدرعة والتي كانت تخترق الطريق غير مكترثة بتلك الطلقات القليلة التي انهالت عليها، وأخذت المدرعة تقترب وتقترب، وما إن اصطدمت بسور المعسكر حتى دوى انفجار هائل جدا، وارتجت الأرض رجا، لدرجة سقوط بعض الكاميرات من بعض الجنود، أما المعسكر فقد تحول لكومة كبيرة من التراب ملتحفة بسواد الدخان والنيران الصاعدة من بقايا المعسكر، تعالت الصيحات مرددة: الله أكبر.

وهنا ظهرت مجموعات من مقاتلي الدولة، لتشتبك في قتال مع من تبقى من الجنود، والذي سرعان ما حسم النصر فيه لمقاتلي الدولة، وقد بدأ بعضهم باقتحام ما تبقى من المعسكر، وأما الباقي فأخذوا يطاردون الفلول الهاربين.

كل هذا تتابعه عدسات آسر وجنده، حتى انتهى التصوير بلقطة علو راية الدولة على هذه الأرض، وسقوط علم دولة العراق أرضا.

ملأت صيحات التكبير المكان، وسادت الفرحة ودموعها الأوجه، فقد قاموا بتدمير أكبر معسكر للجيش العراقي في محافظة صلاح الدين، والآن فقط يستطيعون الجزم بأنهم قد حرروا المدينة بأكملها من الجيش الرافضي.

أما آسر وإخوانه فقد كانوا يسجلون هذه اللحظات لحظات النصر في فرحة تامة، و......

فوجئ الجميع بطلقات من النيران والقذائف التي تنهال عليهم من كل جانب، تحولت وجوههم الفَرِحة لوجوه قترة مغبرّة من الرعب، مع تساقط جنودهم من كل جانب، قال أحد جنود الدولة: الثبات الثبات، إياكم

والتولي والهروب، في حين صرخ آخر: أبشروا بجنة عرضها السماوات والأرض، حاول الجنود معرفة من أين تأتي تلك الرصاصات، إلا أن الغيوم والدخان حالوا بينهم وبين ما يشتهون، كان السواد يملأ المكان ورائحة الدم والدخان تزكم أنوف الجميع.

صرخ آسر في جنده: استعدوا للقتال، فإما نصر وإما شهادة،...

وما إن قالها حتى اخترقت إحدى الرصاصات كتفه، فكتم ألمه الشديد، وبصعوبة بالغة حاول أن يتبين مصدرها، وما إن بدأ السواد في الانقشاع حتى ارتسم على وجهه علامات الرعب،، فما رآه فوق كل التصورات، فقد كان جيشًا كاملًا؛ من جند وطائرات ومدرعات، يهاجمونهم الآن، فأدرك أنها النهاية، فنطق الشهادة وأغمض عينيه و هو يشعر بتلك الرصاصات تخترق جسده....

****

- أبشر يا حيدر... لقد أوصلنا رسالتك إلى عائلتك.

بهذه الكلمات ابتدر قائد السجن حيدر عند دخوله مكتبه، فأدى حيدر التحية العسكرية ولم يستطع إخفاء علامات اللهفة وهو يقول: شكرا لك يا سيدي، شكرا لك.

فقام إليه القائد واحتضنه قائلا: لا داعي للرسميات فيما بيننا يا بني، فأنت تعرف مكانتك عندي، وتعرف أني أدين لك بعمري.

- أنا خادم لجند الحسين عليه السلام يا سيدي.

ربت القائد على كتف حيدر وهو يقول: هذا ظني فيك يا حيدر...

تساءل حيدر: وكيف حالهم الآن، وهل نالهم من الإمام المرجع أي أذى؟

- نعم يا حيدر، فهذا الحقير نتوقع منه هذا؟

تلاشت ابتسامة حيدر ثم قال في حدة: ماذا فعل بهم؟ وكيف وجدتموهم يا سيدي؟

- لا يهم كيف وجدناهم، ولا أظن أنه سيسرك معرفة ذلك، ما يهم الآن أنهم يقطنون في بيت واسع على أطراف بغداد، ولديهم فيه ما يكفيهم.

تنهد حيدر في ارتياح قائلًا:

- شكرا يا سيدي، شكرا لك.

- هل تشتاق لرؤيتهم يا حيدر؟

قال حيدر في لهفة: أشتاق!!! ليست الكلمة التي تصف الحال، فإني أفتقد الجميع، وكأني بلا روح، وأنا متيقن أنهم كذلك، وخصوصا والدي و....

أشار إليه القائد بالصمت وقال في حزن: والدك لم نعثر عليه بعد يا حيدر.

امتعق وجه حيدر وهو يقول في اندهاش: وكيف هذا؟ ألم يكن والدي معهم.

لا يا حيدر، والدك اختفى ولا ندري مكانه بعد، ولكنني أؤكد لك أنه قريبا جدا سيكون معكم.

في حزم قال حيدر: يا سيدي هل تسمح لي بإجازة أرى فيها أهلي وما حل بهم.

بالتأكيد يا حيدر، لك هذا.

قالها القائد، ثم انحنى ليلتقط ذلك الظرف الذي كان على مكتبه، ثم يلتفت إلى حيدر قائلا: وأريد منك أن توصل

هذه الأوراق الهامة للشيخ جعفر ببغداد، فهي خاصة بما تحدثنا عنه من قبل.
أومأ حيدر رأسه بالإيجاب ثم أدى التحية العسكرية للانصراف، إلا أن القائد أوقفه قائلا: أجازتك ستبدأ من الليلة، ونهايتها بعد ثلاث ليال، فهناك زيارة مرتقبة من القادة العسكريين للسجن، وأريدك أن تكون معي.
- أنا رهن إشارتك يا سيدي.
قالها وهو ينصرف، وما إن أعطى القائد ظهره، حتى علت على وجهه ابتسامة ساخرة، الأمور كلها تسير كما أراد...
فقد حان وقت الانتقام.
****
بدا الإعياء الشديد على أبي الحسين السامرائي، وهو مستلقٍ على كومة كبيرة جدا من التراب، وقد أحاط به بعض المسجونين وكان العرق يتصبب منهم في غزارة، وقد ملأت أجسادهم الأتربة العفنة.
قال أحدهم: يا شيخنا هلا ارتحت قليلا، وسنقوم نحن بكل شيء، فقد بلغ منك المرض مبلغه، و...

قاطعه السامرائي قائلا: يا أخي، وهل لي أن أفوت أجر هذا العمل الكبير.

قال آخر: يا سيدي، لازلت غير مستبشرا بالنتائج، ولا مطمئنا لهذا الحيدر.

قال السامرائي وهو يغالب ألمه: يا أخي، دع عنك تلك الوساوس، فحيدر هذا أرسله الله لنا ليخرجنا من هنا، ويكون شوكة في ظهور هؤلاء، وهو الآن منا يعتقد جل أفكارنا.

- هذا ما يقلقني، أنه ليس مثلنا في كل شيء، ولا يزال في قلبه بقايا من مذهبه القديم، ودخن من بعض عقائدنا.

- هذا طبيعي يا أخي، فالماء يحتاج لوقت رغم وجوده على النار ليسخن، وكذلك البشر، ليس من السهل تبدلهم من حال إلى حال مرة واحدة، لا بد من التدرج.

ساد الصمت، حتى قال السامرائي: حفر نفق من ناحيتنا ونفق من الناحية الأخرى لهي فكرة عبقرية أوحاها لي حيدر، ألا يكفي هذا تأكيدًا لحسن ولائه لنا؟

قال أحدهم: أتمنى أن يكون حيدر صادقًا في أنه قد أوصل رسالتك يا سامرائي لبعض إخواننا في الخارج ليقوموا بالحفر في الجهة المقابلة.

- هو صادق إن شاء الله، وأنا الآن على يقين أنه في الجهة المقابلة هناك من يحفر وهو على وشك الوصول إلينا، فقد مضى على هذا الأمر أشهر.
- ولكن ما أتعجب منه يا سيدي، هو أنهم لم يكتشفوا حالنا إلى الآن، مع سذاجة الفكرة فإني لا أراها عبقرية كما وصفت.

ابتسم السامرائي وهو يقول: لا أدري لم كل هذا التحامل على الرجل، الإسلام يجبّ ما قبله، وأما عن عدم اكتشافهم لأمرنا فهذا بفضل الله ومنه، والفضل أيضا في هذا فيمن لا تثق به، حيدر هو المشرف على حراسة هذه الجهة، كما أنه هو من أمدنا بأدوات الحفر.

ثم التفت للجميع وهو يقول: لا تضيعوا وقتكم بارك الله فيكم في القيل والقال، نريد أن نحفر الليلة عددا لا بأس به من الأمتار قبل حلول الصباح، حتى يتسنى لنا إخفاء عملنا قبل دورية التفتيش في الغد و.......

قاطع كلمات السامرائي صوت باب الزنزانة وهو يفتح، فتسمر الجميع في أماكنهم من هول المفاجأة، قد كان التوقيت هذا عجيبًا لأن يدخل عليهم أحد الجنود.

****

المكان: اللواء 7... سيناء

كانت ثمة صداقة محدثة بين تلك الثلوج البيضاء وهذا المكان النائي، الذي ظل دهورًا يعاني الوحدة والعزلة، وها هو القدر قد جمع بينهما في هذه الشهور من السنة، ورغم حداثة هذا الرباط، فقد تمكّنت بينهما الألفة، وقرنت بينهما وحدة الهوى، ولأن عادة الأصفياء حكمت بأن الضيف هو من يأتي بعطاء لمضيفه، ولأن ضيفنا خصيب الجناب، جزل العطاء، فقد أهدى كسوة لمضيفه، ولأن من كمال البر أن ننفق مما نحب، فقد أهداها له من بعضه، وقد قبل المضيف الهدية، حتى صار ذلك المكان النائي الصلد، لوحة جميلة من بياض الثلج، كان الكون كله وقتها سعيدا بهذا المحفل، حتى هؤلاء الجنود الذين تحملوا هذا البرد القارس، مقابل أن يشاهدوا هذه اللوحة الفنية التي ما رأوا مثلها قط في أعمارهم القليلة.

كانوا خمسة منّ عليهم الله بمتابعة هذا المشهد، في حين كان باقي الجنود يغط في النوم متدثرين بألحفتهم، ظلوا في خشوع يتأملون قدرة الخالق وبديع صنعه في الكون، حتى قال أحدهم: سبحان بديع السماوات والأرض، لأول مرة أرى الثلج، وما كنت أظن أن أراه سوى في الأفلام الأجنبية أو المسلسلات التركية.

ضحك الجميع، وقال أحدهما ولم تفارقه بعد ضحكته: المسلسلات التركية هذه هي التي سلبتك لبك يا عم مهند.

بدت ملامح الغضب على الأول، وتعالت ضحكات الكل، حتى هو وبعض لحظات تلاشى غضبه وضحك معهم.

وهنا أخرج أحدهم هاتفه الجوال، ليلوح به فخرا أمام الجميع، فتعالت صيحات استهجان من الجميع وقال بعضهم: ستودي بنفسك إلى التهلكة، ألا تعلم عقوبة من يسرب الجوال في الكتيبة؟!!! ستحاكم بمثل هذا ؟!!!

فأجابه صاحب الهاتف وهو يهز كتفيه بلا مبالاة: ومن سيدري؟!!!، الكل هنا يهرب ويسرب ما يريد، دخان، جوال، صحف مصورة فاضحة، صل على من سيشفع لك.

تمتم الجميع بصوت منخفض وتوقير: عليه الصلاة والسلام.

ثم انفجر آخر ضاحكا وهو يقول: (الصول) برعي دخلت عليه غرفته، فوجدت في يديه مجلة فاضحة، وقد تسرب العرق من كل جسده وهو يلهث كالكلب العطش، من الشهوة. ضحك الجميع مرة أخرى، فقال أحدهم: أراهن أنه لا يترك الاستمناء طوال يومه، مسكين.

- ولكن ماذا يعني اسم برعي، ولماذا كل صول أو شاويش يجب أن يكون اسمه عطية أو برعي!!!! الواضح أنهم يصطفوهم اصطفاءا.

تعالت الضحكات منهم، ثم هدأت شيئا فشيئا، وهم يستمعون لتلك الأغنية التي قام بتشغيلها صاحب الجوال من جواله:

(إيه يا بلاد يا غريبة.. عدوة ولا حبيبة.. في الليل تصحى عيونك ونجومك مش قريبة.. بلاد معرفش ناسها ولا عارفاني بيبانها.. وماليش شبر في أساسها.. ولا طوبة في حيطانها يا خطوية الغريبة)...

كانت كلمات الأغنية مع صوت محمد منير، باعثا للشجن والحرقة في نفوس الخمسة، فأخذت تنهيدات

الشوق تنبعث منهم، وزفراتهم المكلومة تتحرر من صدورهم.

- أشتاق جدا لأهلي، لحنانهم وبذلهم لي، حتى غضب والدي ودموع والدتي وشقاوة أخوتي التي لم أكن أتحملها يوما، الآن أشتاق لها أكثر من أي شيء آخر.
- وأنا زوجتي لم أمكث معها سوى شهور، سامحك الله يا أبي؛ أصررتَ على أن أتزوج قبل دخولي التجنيد، وها أنا أفارقها رغما عني، وأتقلب في جحيم الفراق.
- أما أنا فليس هناك مَن أشتاق له، التجنيد بالنسبة لي نعمة، على الأقل هناك مبيت وطعام وشراب و.........

قاطع حديثهم الدافئ في تلك الليلة الباردة، دوي رصاص من كل الاتجاهات، ففزع الخمسة وقبل أن يتناولوا حتى أسلحتهم كانت الطلقات الغادرة تخترق أجسادهم في سرعة مذهلة، تغتصب بذلك أحلامهم وأمانيهم، وحتى تغتصب إدراكهم بأن هذه هي اللحظات الأخيرة.

ودوى صوت انفجار شديد بالكتيبة ليدمر المكان كله بمن فيه، وقد احتدمت الهيجاء، لتسدل الستار عن تلك الصورة

الجمالية للصداقة بين الثلج والأرض... ليرسم القدر صورة بين النيران والدماء اسمها الموت.
كان على الجانب الآخر تلك الجماعة الملثمة والتي كانت حاملة لراية مكتوب بها: جند بيت المقدس.
كانت هذه الجماعة تكبر في فرحة بالنصر التي حققته منذ قليل، كان الجميع ملثم إلا واحدا قد خلع النقاب عن وجهه وقد نظر للحطام والدمار الذي أمامه بتشف واحتقار وهو يقول في فخر: هذه أول خطوة في انتقامي لك يا أمي، ولك يا أخي.
ثم أطلق طلقات متتابعة من سلاحه، وهو يكبر وعلى إثره الملثمين.
قد كان هذا الشخص هو أحمد.
****
أخذ القحطاني يداعب أوراق ذلك الملف الضخم أثناء انتظاره إذن البغدادي له بالدخول، وما إن خرج نائب البغدادي من مكتب البغدادي، حتى أخبره بطلب البغدادي له، فأعدل شماغه، ودلف إلى مكتب البغدادي، كان المكتب فخم جدا وكانت شاشات للعرض في كل مكان، وكان البغدادي جالسا

على مقعده وفوقه شاشة ضخمة يظهر فيها خريطة لحدود دولته.

- السلام عليكم يا خليفة المسلمين.
- وعليك السلام ورحمة الله وبركاته، أهلا برئيس جهاز مخابرات دولتنا.

أشار البغدادي للقحطاني بالجلوس، فاتخذ القحطاني له مقعدا أمام البغدادي، في حين أخذ البغدادي يتفحص ملامح القحطاني عسى يكتشف من خلال ذلك مراد الرجل، ولما عجز، قال في نفاذ صبر: ما وراءك يا قحطاني؟

- يا سيدي، هذا ملف أحدث المنضمين لجنودنا، و....

قاطعه البغدادي: أليس هذا الملف من عمل وزير حربنا، فلماذا لم تسلمه له ولماذا تأتيني به؟!!

تنحنح القحطاني ثم قال في ابتسامة: هذا صحيح لو كان الأمر طبيعيًّا.

التقط البغدادي الملف من يد القحطاني وقد بدا عليه الاهتمام فقال وهو يطالع أوراقه: هل ثمة شيء خاص بالملتحقين الجدد؟

- انظر يا سيدي في هذا الملف، ستجد تقارير عن آخر خمسة قبلوا في جيشنا، وسأدع لكم التقييم.

مرت دقائق ليست بالقصيرة، والبغدادي يطالع الملف في اهتمام وبجدية، وظل القحطاني يراقبه في صمت، وما إن انتهى من قراءته للملف حتى أغلقه، وظل ناظرا نظرة مطولة للقحطاني، حتى قطع ذلك الصمت وهو يقول: أمير المصري، أليس كذلك؟

لمعت عينا القحطاني وهو يقول في حماس: بالفعل هو يا سيدي.

- تقريره مدهش للغاية، تجاوزه لكل المراحل التدريبية بهذا التفوق، لشيء مقلق فعلا.

- ولهذا يا سيدي بحثت وراءه.

اعتدل البغدادي وهو يسأل في لهفة: وماذا وجدت؟

- وجدت ما توقعته يا سيدي.

صمت القحطاني، وقد علم أن الفضول قد امتلك البغدادي، فقال بفخر: حسب ما أبلغني به أحد مصادرنا العليا بمصر، فأمير قد أرسلته المخابرات العامة المصرية.

****

ألقى أمير بجسده التعب على ذلك السرير، وأخذ ببطء يقلب عينيه بين أركان تلك الغرفة الضيقة التي صارت غرفته.

- يوم متعب جدا يا أخ أمير أليس كذلك.

التفت أمير لصاحب الصوت فقد كان أبو إسحاق شريكه في الغرفة، كان أبو إسحاق شابا طويل القامة نحيف الجسد جدا أسمر اللون، تزين ذقنه لحية قصيرة جدا تناسب صغر رأسه.

أجابه أمير: فعلا يوم مرهق جدا والتدريبات اليوم كانت متعبة جدا.

- من أين أنت يا أخ أمير.
- من القاهرة.
- جورباتي، تقصد.

لم يفهم أمير ما يقصده أبو إسحاق وقبل أن يسأل عن معنى الكلمة، قهقه أبو إسحاق بصوت عال وهو يقول: جورباتي باللغة النوبية تعني: فلاحًا، ونحن نطلقها على سكان وجه بحري.

- ولكني لست فلاحًا!!!
- هكذا نسميكم، كما أني أحببت ان أداعبك.

- أنا أبو إسحاق النوبي من بلاد النوبة.

- أعلم أنك مصري من اللهجة و..

- لست مصريًّا، أنا نوبي.

قال أمير في دهشة: وما الفارق.

ابتسم أبو إسحاق وهو يقول: الفارق كبير عندنا في النوبة ولكن ليس هذا أوان الحديث عن هذا، وراءنا يا جورباتي أياما طويلة سنقضيها معا بإذن الله ونتحدث فيها كما نشاء، أما الآن فعلينا أن نستسلم للنوم؛ لأن وراءنا يومًا آخر مرهقًا جدًّا.

قالها وما إن مرت ثوانٍ حتى سمع أمير صوت غطيطه العميق، وهم أن ينام إلا أن القلق الذي ساوره، حال دونه ودون ما يشتهي، تذكر انتقامه الذي قد حال القدر بينهما، وتذكر نديمًا ومواجهته القوية له، وانتصاره عليه، مرتين؛ مرة بأنه قد حرمه من حبه الأول، رؤى خفق قلبه في قوة بمجرد ما خطر على باله، يا ترى ما رأيها فيه الآن بعد أن تركها دون حتى وداع، وبماذا سمم نديم أفكارها، وكم قصة نسجها لها كي يبعدها عنه، وأما النصر الثاني فقد كان بإلقائه في تلك النار، وإلى مصيره

المحتوم، في هذا المكان، صحيح أن خبرته واسعة في التعامل مع أبناء التيار الإسلامي، فقد خبرهم في تعامله مع جماعة الإخوان المسلمين أو السلفيين أو الجماعة الإسلامية أو.. أو... دائما كان لهؤلاء مدخل ونقاط ضعف كثيرة قد خبرها من طول معاملته معهم، ودراسة أفكارهم، لكن الأمر هنا مختلف فهو أمام منهج مجهول بالنسبة إليه، وأرض تختلف عن مصر، وجنسيات متنوعة، فهذا أمريكي وهذا روسي وهذا كازخستاني وهذا أسترالي، العقليات والثقافات متنوعة والمأرب لهم واحد وهو أن يكونوا من ضمن جنود دولة داعش.

أخذ أمير يتذكر تفاصيل ومشقة سفره والتحاقه بداعش وكيف رتب للأمر، وأخذ يتذكر أول يوم له معهم وكيف كانت أحداثه، وكمّ الاختبارات الصعبة التي اجتازها هو وقلة من المنضمين للدولة، وقد أظهر فيها إمكانياته ومهاراته العالية، هذا هو السبيل لاكتساب ثقة هؤلاء، الجرأة والقوة والمهارة، و.....

وفجأة اقتحم مجموعة من الجنود غرفة أمير، وحتى قبل أن يسأل أمير ما هناك، فإذا بأحدهم يصدم رأسه بكعب

البندقية، شعر أمير بأن الدنيا تظلم حوله، وقبل أن يغيب أمير عن الوعي، كان آخر ما سمعه على لسان أحدهم: احملوا هذا الخائن، فالقائد يريده حيًّا.

****

جلس نديم وحاتم في حديقة فيلا نديم، وقد أشعل الأول سيجاره، متأملا سحاب الدخان الصاعد منها في خيلاء، وأما الآخر فقد ركز بصره إلى تلك الأرجوحة، والتي كانت تجلس عليها رؤى، ظل يراقبها في صمت، لم تعد هي نفسها رؤى المليئة بالحيوية والنشاط، كان الحزن قد استوطن ملامحها الشاحبة، كانت تهز الأرجوحة بآلية في بطء شديد وكأنها قد سافرت بعقلها لمكان آخر، في حين ظل جسدها يتأرجح دون وعي...

- إلى متى ستستمر هذه المظاهرات اللعينة، ألا يمل مثل هؤلاء؟!!!

لم يجب حاتم فقد كان عقله منشغلًا برؤى، فانتبه نديم لذلك فقال: دعك منها ستنساه على أية حال.

وهنا انتبه حاتم لكلام نديم، فأشاح نظراته عنها، وقال لنديم: أشفق على حالها يا سيدي، فبعد رحيل أمير بهذه الصورة، وإصابتها بانهيار عصبي و...

- إياك أن تردد هذا الكلام مرة أخرى.

قالها نديم بغضب شديد، وقد اشتعلت عيناه نارا.

- آسف يا سيدي لم أكن أقص..
- مثل هذا الأمر يا حاتم لو خرج من فمك مرة أخرى فاعلم أنها نهايتك، أنت تعلم مركزي بالدولة وخبر مثل هذا سيهدم كل ما بنيته.

أومأ حاتم رأسه في ندم، في حين عاد نديم لصورته الأولى الهادئة وقال: لم تجبني على سؤالي، إلى متى سيستمر هؤلاء في هذه المظاهرات السخيفة.

- لكل شيء نهاية يا سيدي، هذه الجماعة قد ماتت إكلينيكيا، وما يحدث لها الآن ما هو إلا فرفرة الطير المذبوح.
- آمل ذلك، من كان يصدق أننا قضينا على ذلك الورم السرطاني الخبيث القابع في بلادنا منذ عهود.

ابتسم حاتم قائلا: كانت هذه من مهام أمير، وارجو أن يوفق في مهمته الجديدة.

ابتسم نديم وهو يقول: لا أظن ذلك، فقد كشفوا أمره هناك.

تعالت ضحكات الاثنين، في حين ظلت الأرجوحة تتحرك في بطء شديد.

****

- مرحبا بك يا أبا خالد، لقد تشرفت بلقاء الأسد الجسور.

بهذه الكلمات استقبل الجولاني ضيفه والذي ظهر عليه وعثاء السفر، وأثر التعب، وما إن تصافحا حتى هم الجولاني بتقبيل يد ضيفه والذي سحبها بسرعة قائلا: اتق الله يا أخي.

فابتسم الجولاني قائلا: هكذا أمرنا أن نفعل بعلمائنا وقاداتنا، فما بالك بأبي خالد السوري، سيد المجاهدين وأحد المقربين من شيخ الإسلام أسامة بن لادن رحمه الله، واليد اليمنى لإمامنا الظواهري.

- دعك من هذا يا جولاني، فإنك لتدري مقتي لهذا المدح، وقد نها عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم، نسأل الله العفو والعافية.

- يا سيدي، قد أمرنا أن ننزل الناس منازلهم، وهاهم إخوانك من المجاهدين بجبهة النصرة، قد اجتمعوا ليقابلوا الأسطورة التي لطالما سمعوا عنها، وقد تطوع بعض الإخوة منهم لخدمتك، وقد اتخذنا لك مكانا لترتاح فيه، ولنلتقي بالمساء، فما رأيك.

- ما قطعت هذه المسافة الطويلة، من جبال أفغانستان إلى هنا للراحة، لدي مهمة لا ينبغي تأجيلها، وبعدها إن شاء الله ستكون الراحة.

أشار الجولاني لأبي خالد السوري بالجلوس في وسط ذلك المجلس المعد والذي جمع كبار قادة جبهة النصرة، فجلس الأخير، ولم يستطع الجولاني إخفاء أمارات القلق التي رسمت على وجهه، والتي أصابت غالب الحضور.

قال أبو خالد: أولا: ما هي آخر التطورات هنا يا أخي الكريم..

أجاب الجولاني: بفضل الله، قد حررنا الكثير من المدن والقرى من قبضة بشار وعصابته، وهي الآن تحت أيدينا، هذا غير المدن الأخرى التي يشاركنا فيها بقية الجيش

الحر، وأحب أن أبشرك أننا على مقربة كبيرة من حدود الجولان.

- ولكن نظام بشار حتى الآن يعقد سيطرته على دمشق وما جاورها من مدن، ولقد كنتم على مقربة منهم فماذا حدث؟!

أجاب الجولاني وقد تبدلت ملامحه: لقد أوقف تمددنا جماعة البغدادي، فقد ضربونا في ظهورنا أثناء تقدمنا فخشينا أن يسلبوا البلاد التي حررناها، فأوقفنا المسير حتى نحكم السيطرة على بلادنا.

قال أبو خالد في حزم: وهل فعلتم؟

طال صمت الجولاني الذي لم يجد ما يقوله، فقد هزم مرات أمام جماعة البغدادي، فلا واصل بذلك معركته في دمشق، ولا استنقذ ما سلب منه على يد البغدادي.

- يا سيدي، الحرب كر وفر، ولولا أن جنودنا يتحرجون من قتال إخوانهم لكان النصر لنا على البغدادي.

جاء هذا الصوت من خلف الصفوف الأولى لقادة الجولاني، ولم يميز أبو خالد صاحبه ولذا تساءل: من صاحب الصوت؟

فوقف أبو إياس وهو يقول: أبو إياس يا سيدي.

ابتسم أبو خالد وهو يقول: أبو إياس، سمعت عنك الكثير، ولم أكن أظنك بعد حديث السن.

ثم التفت أبو خالد للجولاني وهو يقول: لقد أحسنتَ في اختيار هذا.

احتقن وجه الجولاني والذي ابتسم في ضيق وتوتر قائلا: أبو إياس من أحسن جنودنا، ولقد أثبت ذلك في أكثر من موضع.

نظر أبو خالد في إعجاب لأبي إياس وهو يقول له: وما الحل من وجهة نظرك يا أبا إياس.

- يا سيدي، كان ثمة حل اقترحته من قبل إلا أن يد الغدر نالته، وأفشلته.
- وما هو يا أبا إياس؟
- أن نتحد والشيشاني ونكون جبهة قوية نردع بها بشار وأعوانه، وقد أبدى الشيشاني موافقة مبدئية، إلا أنه يخشى رد فعل البغدادي عليه.
- وما رأيك الضمان المناسب له، ليجعله يقدم على مثل هذا.

تردد أبو إياس في الإجابة، وقد كان ينظر للجولاني، الذي كان الغضب قد أخذ منه كل مأخذ، وقد لاحظ أبو خالد نظرات التردد في عيني أبي إياس، بسبب وجود الجولاني، فابتسم قائلا: لعلك تحرجت من قائدك، ولا أظنك تقصد سوى أن يتأمر الشيشاني هذه الجبهة المتحدة.

نزلت هذه الكلمات كالصاعقة على كل الموجودين، بما فيهم أبو إياس، في حين ظل أبو خالد هادئا جدا، وقد واصل حديثه قائلاً: يرى الشيخ الظواهري، أن تنفيذ أي وسيلة تجمع الصف، وتوقف سيل الدماء المجاهدة أولى من تركها، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب، ولا أظن أن الجولاني متشوف لإمارة الدنيا، فلتكن الإمارة للشيشاني، إذا كان هذا هو السبيل الوحيد لوحدة صف المجاهدين في سوريا، خاصة لتباين فكره مع الفكر التكفيري للبغدادي.

صمت أبو خالد قليلا ثم أردف قائلا: وسأذهب بنفسي للشيشاني، أعرض عليه هذا العرض.

ثم نظر نظرة مطولة لأبي إياس وهو يقول: وأتشرف بصحبتك في طريقي إليه.

ابتسم أبو إياس، في حين تحولت نظرات الجميع للجولاني، والذي قد بدت ملامحه في غاية الثبات، في حين أن ثمة نار مشتعلة داخله، وقد كان صوت واحد فقط يرن في عقله: أنه لا سبيل له سوى الدفاع عن حلمه، مهما كانت العواقب.

****

الفصل التاسع

الحلم

لم يدري آسر كم مر من الوقت وهو مغشيًا عليه، كل ما يدركه الآن أنه بدأ استعادة وعيه، وخير دليل على هذا ذلك الصداع الشديد الذي يشعر به، وتلك الآلام التي تناثرت على جسده، كان لا يرى سوى الظلام حاول جاهدا أن يفتح عيناه المغلقة، وبصعوبة بالغة فتح عيناه، كانت الصورة ضبابية غير واضحة، لكنه استطاع تمييز بعض الأمور، هو الآن محمول على كتف أحدهم وهو يجري به في الصحراء القاحلة، وخلفهم يجري بعض الجنود لم يقدر على تمييزهم، ازداد الصداع عندما حاول تدقيق الرؤية، فآثر أن يغمض عيناه، ولم تمر لحظات حتى غاب عن الوعي مرة أخرى، وبعد وقت لم يدري كمه، فتح آسر عينيه في صعوبة، فإذا به لا يشعر بذلك الصداع ولا بتلك الآلام، وإذ به واقفا على قدميه مرتديا لثياب عربية غريبة ميزها بأنها تعود للعصور القديمة، لعلها عصور الجاهلية، بدا ذلك واضحا من تبرج النساء وعري بعضهن، وتلك اللحى غير المهذبة، و...

يقينا هو الآن يحلم، أو لعله قد مات، ولكن هل بعثه سيكون مع هؤلاء؟!!!، هو الآن يرى العصر الجاهلي كما تخيله، أصنامًا وتماثيل ضخامًا بدائية الصنع يراها تحوط به في كل جانب، قال في نفسه: إن قدماء المصريين بالتأكيد كانوا أمهر وأتقن في صنع التماثيل، إن الأفلام السينيمائية بالغت في إظهار جودة صنع تماثيل تمثل العصر الجاهلي، فما أراه أمامي تماثيل كأن قد صنعها طفل لم يتجاوز مراهقته بعد.

كانت رائحة الدماء تملأ المكان ولم يدر آسر ما هو مصدرها، ولعلها دماء الجزور التي يقربونها لآلهتهم.

هل هو يحلم هل سيكون بعثه مع هؤلاء، يبعث المرء على آخر عمل مات عليه، ولكنه مات مجاهدا في سبيل الله، ويبعث المرء مع من أحب، ولطالما مقت الكفر وأهله، إذا فهو حلم، وفي الأحلام كل شيء مباح، أخذ يسير في الطرقات وينظر في تعجب لما يراه، أين هو الآن يا ترى، في أي مجتمع هو فقبائل العرب كثيرة، وطبائعها مختلفة، ولقد درس بعضها.

لازالت رائحة الدماء تفوح حوله بقوة، هو الآن في سوق هذا المكان، وهذا واضح فالناس حوله يذهبون ويرجعون

يقضون حوائجهم في الشراء والبيع، وها هو أحد النخاسين يبيع العبيد والجواري الحسان، آه لو كان معه بعض الدنانير لفاز بإحداهن الآن، فكل شيء في الحلم مباح، مد آسر يده في جيب عباءته الغريبة، وبالفعل وجد صرة مليئة بالدنانير، ابتسم آسر وقال: في الأحلام كل شيء مباح.

اقترب من الجمع الذي اصطف ليشاهد العبيد والإماء فبين راغب في الشراء، وبين من يشاهد ليستلذ ولو بالنظر.

مر بنظره على الإماء؛ كلهن جميلات يسلبن لب أي حازم، فأي واحدة منهنّ يختار، عليه أن يختار بسرعة قبل أن يستيقظ من الحلم، أو يوقظه أحدهم، ولكن إلى أين سيأخذها وهل له دار، لا يهم يكفيه أن يتخيل الأمر وفي الأحلام كل شيء مباح.

وقعت عيناه فجأة، على أَمَة جميلة، بل كانت في غاية الجمال، شده إليها ذلك الحزن المرسوم على وجهها، وانكسار عيناها، كانت بعضهن تحيط بها يطيبن خاطرها، قال آسر في نفسه: الواضح أنها كانت سيدة قومها، وهن جواريها، لعنة الله على حروب العرب القديمة، التي تجعل

مثل هذه أمة لأحد هؤلاء عطني الرائحة، مدمني الخمر، سأشتريها وأكرمها ما دمت حالما.

طال انتظار آسر وهو يقاوم ذلك الملل ورائحة الدماء التي تزكم أنفه، حتى جاء وقت بيع الجارية الحزينة، زاد عدد الناس بمجرد تقدم هذه الأمة، الواضح أن الجميع يرغب فيها، قال النخاس بصوته الأجش: هلم يا قوم فهذه السيدة في قومها وقد أسرت في آخر حروب قومنا وهي ممن يصح فيها قول القائل:

وَيَا رُبَّ يَوْمٍ قَدْ لَهَوْتُ وَلَيْلَةٍ... بِآنِسَةٍ كَأَنَّهَا خَطُّ تِمْثَالِ

يضيء الْفِراشَ وَجْهُهَا لِضَجِيعِهَا... كَمِصْباحِ زَيْتٍ فِي قَنَادِيلِ ذُبَّالِ

كأن على لباتها جمر مصطلٍ... أصاب غَضًى جَزْلًا وكُفَّ بأَجْذَالِ

وهَبَّتْ له ريحٌ بمختلف الصُوى... صَباً وشمالاً في منازلِ قُفَّالِ

وَمِثْلِكِ بَيْضَاءِ الْعَوَارِضِ طَفْلَةٍ... لَعُوبٍ تُنَسِّينِي إِذَا قُمْتُ سِرْبَالِي

لطيفة طيِّ الكشحِ غيرِ مُفَاضةٍ... إذا انْتَقَلَتْ مُرْتَجَّةٍ غيرِ مِتْفَالِ
إِذَا مَا الضَّجِيعُ ابْتَزَّهَا مِنْ ثِيَابِهَا... تَمِيلُ عَلَيْهِ هَوْنَةً غَيْرَ مِجْبَالِ

قال آسر في نفسه: ألا يتق هذا الله ما هذه الأبيات الفاضحة التي ينشدها، ولكن لو كان هذا حلما فهذه الأبيات أعرفها ولا شك، فأين قرأت هذه الأبيات الفاضحة، اللهم غفرانك. ولكن لحظة لو كان كل ما حولي عبارة عن ما سجل في عقلي الباطن، فمن هذه المرأة التي أراها لأول مرة، ومن هؤلاء الناس الذين يحيطون بي وإنها للمرة الأولى التي أراهم فيها.

- خمسمائة دينار، من يزيد على الرجل.
- ألفي دينار.

بهت الجميع لهذا المال، وزال أثر المفاجأة من وجوه غالب الناس عندما وجدوا أن صاحب القول هو ذلك الرجل البدين جليل الكراديس الذي يظهر أنه عظيم الشأن من كثرة العبيد حوله فهذا يظله وهذا يستخدم مروحة يدوية ليخفف عليه حدة الجو، والباقي يقفون مطيعين.

- مرحبا بك يا أبا أمية بن خلف.

إذا فهو ذلك الكافر الرعديد، الذي عذب بلال بن رباح، ذلك ما جال في خاطر آسر وقتها، قبل أن يلمح نظرات الجارية إليه، كانت كالسهم الذي أصاب قلبه مباشرة، خفق قلب آسر في قوة، كانت نظرات استعطاف وكأنها تقول له: لا تدعني لهذا البدين الجلف.

قال آسر بأعلى صوت له: خمسة آلاف دينار.

بدت السعادة الشديدة على وجه الخناس وهو يقول: خمسة آلاف دينار لأخي العرب.

زمجر أمية بن خلف وهو يبتعد عن النخاس وعن المجلس، قال آسر في نفسه: الواضح أن المبلغ كبير لدرجة أن هذا لم يجادل حتى أو يحاول، أو لعل الأمر لا يعنيه لدرجة أن يدفع خمسة آلاف دينار.

نظر آسر للجارية فإذا وجهها قد أشرق كالشمس، لم يجد وصفا يقوله لنفسه إلا أنها قد خُلقت من غير ما خُلق به بنو آدم.

وفي سرعة أنهى آسر إجراءات شراء الجارية، والتي لم تفارقها الابتسامة، وما إن صارت بحوزته حتى قالت: يا سيدي شكرا لأنك أنقذتني من ذلك الرجل.

ابتسم آسر قائلا: ما اسمك؟

فأجابته على استحياء: فاطمة.

ابتسم آسر، فقد صارت فاطمة ملكه الآن، ويحل له أن يفعل معها ما يتمنى من وصال.

قالت فاطمة: يا سيدي، هل لك أن تسديني معروفا آخر، تمتلك به وفائي وقلبي بعده.

قال آسر: بالتأكيد، يا حبيبتي.

- حبيبتك!!

قالتها فاطمة ثم ضحكت باستحياء، وأردفت قائلة: لقد كنت وسط قومي أميرة، لولا تلك الحروب التي أذلت قومي وأذلتني، وإن لي صبوة وعشق للشعر لا أقدر على الصبر عنه، ولقد كنت وقتها أسمع عن النابغة الذبياني الشاعر، وأحفظ من شعره الكثير ولقد تمنيت أن أحضر مجلس له أستمع لشعره، ولقد سمعت أنه اليوم هنا في السوق، وقد

اجتمع عنده الشعراء، فهل لي بحضور ذلك المجلس، وبعد انقضائه سترى مني ما يسرك.

قالت الجملة الأخيرة بتغنج، طار له فؤاد آسر، والذي همّ أن يضمها لصدره وقد اشتعلت شهوته، إلا أنها برفق أزاحته عنها وهي تقول في دلال: سيكون ما تشتهيه، ولكن ماذا قلت يا سيدي على طلبي؟

- وأنا أيضا محب للشعر والشعراء، ولطالما تمنيت أن أرى الشعراء مثلك وخاصة الذبياني، ولكن أين مجلسه هذا؟

- أظنه في آخر السوق يا سيدي.

طال المسير بهما حتى بلغا نهاية السوق حتى وصلا إلى قبة أدم قد احتشد الناس حولها، فسارعت خطواتها في لهفة وهي تقول مستحثة إياه أن يسرع الخطى: ها هي ذا يا سيدي.

لحقها آسر وما إن اقتربا وتخطوا الصفوف وكانوا على واجهة القبة، فإذا برجل عظيم الهيئة وقد توسط المجلس، وقد جلس على يمينه رجلان وعلى يساره امرأة، وبين أيديهم جلس البعض، وجلس في خارج القبة الرجال والنساء

يشاهدون ذلك المشهد الشعري الجميل، وأما آسر وفاطمة فوقفا يشاهدان، ويتابعان الحوار الذي كان محتدًّا بين الجلوس، وخصوصا بين المرأة وذلك الشاعر النحيف حاد النظرة، قال الرجل الذي يتوسط المجلس والذي يظهر بأنه الذبياني: ما أشعرك يا أبا بصير.

وأشار وقتها للرجل الضرير الذي يجلس عن يمينه، فقالت فاطمة لآسر بلغة الخبير: إنه يقصد الأعشى.

- أي أعشى؟

كتمت ضحكاتها بكفها وسألت: ألست بعربي يا سيدي، إنه الأعشى أشعر العرب.

قال: تقصدين الشاعر الفحل الأعشى، أهو ذلك الضرير؟

قالت متعجبة: ومن غيره.

ثم أشارت بيدها لامرأة جالسة معهم وقالت: أتدري من تلك التي على يسار الذبياني.

هز رأسه نافيا ثم قال: لا أدري ومن تكون ؟

قالت وهي تحرك يدها بفخر وزهو: هذه أشعر النساء.. الخنساء.

قال مندهشا: الخنساء الصحابية الجليلة!!!.

تعجبت لعبارته فقالت: صحابية؟!!! لا أفهم قولك يا سيدي، إنـها الشاعرة الكبيرة.

أشار بيده لرجل نحيل كان ينشد شعره: ومن هذا النحيل الذي ينشد الآن شعره في فخر؟

أخذت تتفحصه، ثم هزت كتفيها قائلة: لا أدري يا سيدي.

أمسك بذراعها وتقدم بها خطوات وهو يقول: إذًا دعينا نشاهدهم، فلطالما يا فاطمة تمنيت رؤيتـهم مثلك.

أخذوا يتطلعون على الحوار الذي دار بين الشعراء، وما إن اقتربوا حتى سمعوا المرأة وهي تقول بعلو صوتها في أنفة: هل حان الوقت بأن أنشد شعري؟

فقال لها الذبياني: أنشدي يا أخت بني سليم.

فأنشدت شعرا، هيج هذا الشعر قلب آسر خصوصا مع إلقاءها الأسيف للأبيات، وما إن انتهت حتى التفت آسر فإذا غالب عيون الناس قد دمعت ونظر إلى فاطمة فإذا هي قد اغرورقت دموعها، فناولها منديلا تجفف به دموعها.

هب الذبياني قائما وهو يشير للخنساء قائلا: والله لولا أن أبا بصير آنفًا أنشدني لقلت أنك أشعر الإنس والجن.

فعلا الفخر مُحيّاها، حتى قام الرجل النحيف مغضبًا، وقال: والله لأنا أشعر منهما ومنك يا ذبياني وحتى من أبيك.

سادت الفوضى المكان بين عبارات استهجان وتقليل من الشاعر النحيف، إلا أن النابغة الذبياني ابتسم وفي هدوء قال: يا حسان بن ثابت، يا ابن أخي، إنك لا تحسن أن تقول.. وفي فخر أنشد:

فإنك كالليل الذي هو مدركي *** وإن خلت أن المنتأى عنك واسع

فلم يحر حسان جوابا وساد الصمت، فقال آسر في تعجب لفاطمة: حسان بن ثابت شاعر رسول الله صلى الله عليه وسلم؟!!!

- أي رسول هذا؟ يا سيدي ما الذي ترجف به، إنك لتتحدث كآل يهود، أيهودي أنت؟!!
- أعوذ بالله.
- بالله؟!!! هذا كلام اليهود بعينه، من أين أنت يا سيدي، وأرجو ألا تكون يهوديا.
- ولماذا؟ أتمقتين اليهود.
- أمقت كل من ليس على ديني.

- وما دينك؟

ابتسمت ثم اقتربت لتهمس في أذنه وهي تقول: ستخبره الليلة.

سرت قشعريرة في جسد آسر، بمجرد أن اشتمّ عبير أنفاسها، وقبل أن ينطق فإذا بها تواصل متابعة الحوار بين الشعراء.

كانت رائحة الدماء لا تزال تزكم أنف آسر، وهروبا منها جمع آسر تركيزه في مشاهدة هذا النقاش بين الشعراء.

قال النابغة الذبياني: يا خناس، خاطبيه أنتِ وأحسني في الرد على زعمه.

ابتسمت الخنساء وهي تلتفت إليه، وبنظرة علو قالت: ما أجود بيت في قصيدتك التي عرضتها آنفًا؟

بفخر وبثقة وفي أداء مسرحي قال حسان: قَوْلي:

لنا الجفنات الغر يلمعن بالضحى *** وأسيافنا تقطرن من نجدة دما

وفي إعجاب بالأبيات ساد صوت إعجاب الناس وثنائهم على الأبيات.

أما الثلاثة النابغة والأعشى والخنساء علتهم ابتسامة ساخرة، فقالت الخنساء: قد أضعفت افتخارك في ثمانية مواضع في بيتك هذا.

تساءل حسان بدهشة: وكيف ذلك؟

قالت: قلت: «لنا الجفنات»، والجفنات ما دون العشر، ولو قلت: «الجفان» لكان أكثر. وقلت: «الغر»، والغر بياض تكون في الجبهة، ولو قلت: «البيض» لكان أكثر اتساعًا. وقلت: «يلمعن»، واللمع شيء يأتي بعد شيء، ولو قلت: «يشرقن» لكان أكثر؛ لأن الإشراق أدوم من اللمعان. وقلت: «بالضحى»، ولو قلت: «بالدجى» لكان أكثر ظرفًا. وقلت: «وأسيافنا»، والأسياف دون العشرة، ولو قلت: «سيوفنا» كان أكثر. وقلت: «يقطرن»، ولو قلت: «يسلن» لكان أكثر. وقلت: «من نجدة»، والنجدات أكثر. وقلت: «دما»، والدماء أكثر من الدم.

تعالت صيحات الإعجاب والتصفيق بين الحضور، وأما حسان فقد طأطأ رأسه في حياء ولم يجد ما يقوله، فابتسم الذبياني وهو يقول: يا حسان، أخفض على نفسك ما لك والخنساء!!!

ابتسم الجميع وهنا أعلن الذبياني أن خير شعراء العرب بعده هو الأعشى ثم الخنساء ثم حسّان.

وانتهى المجلس وانفض المجلس، وهنا هرول آسر اتجاه حسان بن ثابت الذي علاه الحزن، وما إن اقترب منه حتى قال: السلام عليكم يا شاعر الإسلام.

فنظر إليه حسان باستنكار قائلًا: أي إسلام يا هذا، وما هذه التحية؟ أيهودي أنت؟

قال آسر مبتسما: اعتبرها يا سيدي نبوءة، ولكنك ستكون أشعر العرب وسيأتي تأييدك من عند رب السماء.

وأشار بيده إلى السماء، وفي اندهاش قال حسان: رب السماء!!! ماذا تريد أيها الغريب؟

قال آسر: قول أو نصيحة تختصني بها.

نظر حسان نظرة مطولة لآسر وهو يقول: لا أدري من أنت؟ وما هي حالك؟ وكيف توافق نصيحتي واقعك، ولكني أقول لك: إن القلم والعلم يفعلان ما لا تفعله السيوف، فبهما الحياة، والسيف نذير الموت أو الأسر.

وقبل أن ينطق آسر، انصرف حسان، مع بعض أصحابه، ولم يعقب، ووقف آسر وفاطمة، وحدهم بتلك الصحراء، فقالت

فاطمة في تعب: أين منزلنا يا سيدي، فلقد تعبت من طول الوقوف.

- أي منزل هذا، و...

شعر آسر وقتها بأن النار تشتعل فوق صدره، نارًا حقيقية، وهنا صرخت فاطمة بصوت عال وهي تشير إلى صدر آسر: يا سيدي، النار تشتعل في صدرك، الغوث الغوث.

لم يقْوَ آسر على كتم ألمه فصرخ بصوت عال، صوته كان عاليا جدا، وفاطمة بجانبه أيضا تصرخ، لم يسعفه أو حتى يلتفت إليه أحد.

ظل يصرخ والدخان ينبعث من صدره، وصوت فاطمة رويدا رويدا بدأ يتلاشى والمشهد كله بات يتلاشى، حتى اختفى كل شيء حوله وعاد الظلام مرة أخرى.

إلا أنه وسط الظلام سمع صوتًا يقول: لقد كتب الله له النجاة، وأخرجت الرصاصة من صدره، ادعوا الله له بالشفاء.

فأدرك أنه كان حلمًا وأنه قد عاد.

****

تنفس الجميع الصعداء وزال عنهم الخوف والفزع بمجرد أن ظهر لهم الشخص الذي دخل عليهم فجأة أثناء حفرهم لنفق الهروب، فلم يكن سوى حيدر، فقال السامرائي وهو يلاحق أنفاسه: اتق الله يا أخ حيدر، والله لقد كادت نفسي تخرج؛ فقد ظنناك أحد الجنود.

- اعذرني يا شيخنا لم أكن أقصد إفزاعكم، ولكن الأمر جد خطير.

وقبل أن يسأله السامرائي ما وراءه قال حيدر: لقد منحت إجازة لمدة ثلاث ليال تبدأ من هذه الليلة، وبعدها ستكون زيارة من مراقب كبير وبالتالي سيكون ثمة مراقبة شديدة وفحص لكل السجون قبل زيارته و...

قاطعه أحدهم قائلا: وماذا تريد يا حيدر.

قال حيدر في تحرج: يجب ان تنهوا عملكم خلال الليلتان القادمتان، وإلا فتوقفوا عن العمل لفترة أظنها تطول.

قال السامرائي: ليلتان ألا ترى قصر المدة جدا.

قال حيدر: يا سيدي، الفرصة سانحة كما خططنا الآن، سأكون أنا خارج السجن فالشبهة لن تطالني بمساعدتكم، و...

- **إذا يا حيدر لا يهمك سوى أن تنجو بنفسك.**

أشار السامرائي للقائل بالصمت وهو يقول: حيدر له كل الحق في ذلك، سنعمل بكل جد على انهاء الأمر في المدة التي قلت عليها، ولكن هل من في الخارج يعرفون هذا؟

أومأ حيدر رأسه في إيجاب: نعم يا سيدي، قد أرسلت لهم اليوم رسالة بميعاد الانتهاء، ولم يتبق سوى أمتار لو عملتم بجهد أكبر سيكون ما تريدون.

- **سيكون يا أخي ما طلبت والله المستعان.**
- **ليس هذا فقط يا سيدي ما أردت جئت به إليكم.**
- **ماذا أيضا يا حيدر تكلم يا أخي.**
- **إن كتب الله لكم النجاة هنا، فأرجو ألا تنسى وعدك يا شيخ.**
- **لا تخف يا حيدر، سيكون الإمام المرجع بين يديك لتفعل به ما تشاء، بل وأسرته كلها.**

قال الجملة الأخيرة وقد رسم قوله بتلك الابتسامة الماكرة، فبادله إياها حيدر وهو يقول: أستودعكم الله الذي لا تضيع ودائعه.

وأغلق باب الزنزانة وواصل جماعة السامرائي الحفر.

****

المكان: جبال مدينة الشيخ زويد... سيناء

في إحدى الخيام المنتشرة في تلك البقعة وسط جبال مدينة الشيخ زويد اجتمع ثلة من الرجال، وكان من بينهم أحمد، كانت هيئته قد اختلفت تماما فقد حلق رأسه بالكلية وقد طالت لحيته واستحالت بشرته إلى السمار الشديد، كان النقاش قد احتد بين الموجودين وكان أحمد يتابع النقاش في صمت وتأمل، محدقا في تلك الرايتان التي تخفق فوق رءوسهم أما إحداهما فقد كانت راية دولة الاسلام وأما الثانية فكانت لبيت المقدس وأسفلهم رايات أخرى لم يميزها، اليوم سيتحدد فيه مصير الجماعات الجهادية في سيناء، فهل فعلا ستجتمع راياتها وستبايع داعش وتصير ولاية تابعة لها أم ستظل جماعة بيت المقدس كما هي، الخلاف الآن على أشده بين القادة فهذا يريد الانضمام لدولة الاسلام لتجتمع راية الجماعات الجهادية تحت راية الخلافة، والآخر لا يريد أن يصير أمرهم في يد جماعة لا يعرفون بعد نهجها ولا أهدافها وأن البيعة أولى للقاعدة فهي الأم على كل حال وهي الأساس، مع طول مكث أحمد في هذا المكان عرف كيف

يخبر أحوال المجاهدين فيها لم يكونوا دائما على قول رجل واحد وهذا لاختلاف أفكارهم ومناهجهم، فبعضهم كان ضمن جماعة التكفير والهجرة وهم شر الناس يكفرون كل الناس ماعدا أنفسهم وأتباعهم وهم السكان الأصليين للجبال والأعلم بمسالكها وأسرارها ولهم الفضل في انتصاراتهم على الجيشان المصري والإسرائيلي، وكلمتهم الأقوى هنا وهم أصحاب اقتراح الانضمام لتنظيم الدولة.

وأما البعض الآخر فكان من السلفية الجهادية وهؤلاء ألين جانبا انتماؤهم للقاعدة وللظواهري لا يكفرون إلا الحكام الذين لا يحكمون بما أنزل الله، وهؤلاء يذكرونه بشقيقه محمود إلى حد ما.

وآخرون مثله جاءوا للانتقام وفقط، وغالبهم من أهل سيناء قد ضاقوا ذرعا بما يحدث لهم ووجدوا أنه لا سبيل للانتقام سوى القوة.

كانت هذا ما هدي إليه احمد في تحليله لصحبته الجديدة إلا أنه ثمة أشخاص لا يدري ما سبب التحاقهم بهذا المكان فلا هم تكفيرين ولا سلفية جهادية وليس لهم

أي دافع للانتقام، وهؤلاء هم من أتوا به إلى هنا، وأخذ أحمد يتذكر يوم ما أتى قائده في الجيش اللواء عاصم المصري ليلا ليعزيه في وفاة أخيه وأمه بعد انتشار قصتهما على صفحات وقنوات الإخوان المسلمين وعلى الانترنت، كان اللواء عاصم مختلف تماما عن آخر مرة رآه فيها فقد كانت تجمعهما علاقة وطيدة حتى بعد إنهاء أحمد لخدمته العسكرية، لما يتمتع به اللواء عاصم من شخصية طيبة لأبعد الحدود وكرم وحسن خلق، كان من الغريب أن يأتيه ليعزيه في هذه الساعة المتأخرة، ثم وبعد وقت قليل يسأله هل تريد الثأر لأخيك يا أحمد، وكان رد أحمد حاسم بكل تأكيد يا سيدي، ولم تمضي أيام حتى كان منضما لجماعة بيت المقدس، وهناك وجد البعض ممن هو مثل اللواء عاصم، بعض قادة من الجيش المصري قد انشقوا وهم الآن يتولون تدريباتهم القتالية، ولكن ما الدافع لهؤلاء للانضمام لهذا التنظيم، كانت الأسئلة تراود أحمد دائما إلا أن إجابته كانت دائما : لا يهمني سوى الانتقام من كل جندي أو عسكري أو ضابط أو رتبة أعلى شارك في قتل محمود ومن كان على شاكلته، كانت تلك النار المتأججة داخله لا يخبئها سوى

الاغتيالات التي يقوم بها وهجومهم على الدوريات والكتائب وما إن يرى الدماء تسيل أمامه حتى تأجج النار داخله أكثر ليسفك دماء أكثر، لا يهمه كان على خطأ أو صواب المهم أن تهدأ نفسه من نار الانتقام، قد صار الآن وحيدا قضي على أسرته الصغيرة دون جرم منهم أو تجاوزات فليذوق من هذا الكأس كل من رضي أو صمت أمام هذا الظلم.

- إذا فالجميع الآن وافق على إعلان بيعتنا لدولة الإسلام وللبغدادي خليفة لمسلمين.

نطق بذلك أحد قادة التنظيمات الجهادية، فأجاب أحد المعارضين السابقين لهذا الاعلان: والله لولا أن الرابح الوحيد من انشقاقنا هم الطواغيت ما كنا لنرضى بذلك، ولكن توحيد الكلمة أولى من أي شيء آخر، ولذا فكل يمد يده لإعلان البيعة.

وهنا بسط الجميع أيديهم مبايعين وساد صوت التكبير وأعلن الجميع البيعة لأبي بكر البغدادي ولدولة الإسلام، وكان من بينهم أحمد فقد علم أن بعد هذه البيعة المعركة ستصير أشرس بكثير.

****

انطلقت السيارة التي تقل أبا خالد السوري وأبا إياس وكانت ثمة سيارتان تحوطان سيارتهم التي كانت متجهة من ريف إدلب إلى الرقة حيث أبي عمر الشيشاني، كانوا على بعد 15 كيلو متر من مدخل مدينة الرقة، وكان الحديث دائر بين أبي خالد وأبي إياس.

- يا أبا إياس، هل تتوقع نتائج مثمرة إثر لقاءنا مع أبي عمر الشيشاني.
- أنتم ادرى واعلم.
- دعك من التملق، إنك لصاحب رأي وأود أن أعلمه.
- يا سيدي، أبو عمر رجل ذو دين وهو حريص مثلنا على الدماء المجاهدة، كما إني على يقين أنه والبغدادي على غير وفاق، ولولا خوفه من ذهاب ريح المجاهدين هنا لكان أول الفارين منه.
- ولكن بعد الحادثة الأولى الجميع توقع أن يقوم البغدادي بتصفية الشيشاني ولكنه لم يفعل ونخشى أن يكون ما حدث في الماضي مكيدة منهما.
- لا أظن يا سيدي، ولو أذنت لي فإن وجهة نظري أن البغدادي في حاجة ماسة للشيشاني، فالأمر هنا في

الشام لم يستتب بعد له، والجند في تعلق شديد بالشيشاني لعدله ودينه، فأي محاولة لتصفية الشيشاني أو حتى عزله نتائجه لغير صالح دولة البغدادي هنا.

- جيد ولكن كيف يأمن البغدادي جانب الشيشاني الذي قد يستقل عنه كما حدث من قبل.

- أظنك يا سيدي تقصد الجولاني، وانشقاق جبهة النصرة، الأمر مختلف هذه المرة فالشيشاني محاط برجال البغدادي كأبي يحيى، وحتى القحطاني لا يكاد يترك الرقة، فأي محاولة للشيشاني بالانشقاق سيكون مآلها الفشل، خاصة وأن ولاء الجند لدولة الاسلام أما جبهة النصرة فولاءها للقاعدة.

- ما يقلقني يا أبا إياس من هذه الزيارة، هؤلاء لا يضمن منهم عهد ولا ذمة.

- يا سيدي، الأمر مختلف لكم مكانة في نفوس كل المجاهدين بما فيهم مقاتلي دولة البغدادي، فلا داعي للقلق منهم، وأما الشيشاني ففرق كبير بأن ينشق وجنده وهو بمفرده، وأن ينشق ونحن معه.

- يسر الله الخير حيث كان، وسلمنا الله من غدر هؤلاء.

هم أبو إياس بالتأمين لولا أنه ظهرت فجأة مجموعة من السيارات المسرعة في الاتجاه المعاكس وكان يعلو المكشوف منها بعض الجنود الملثمة، حاولت السيارات المحيطة بالموكب إيقاف تقدم هذه السيارات، إلا أن طلقات الرصاص المنهارة عليهم حالت بينهم وبين ذلك، وعلى إثر الرصاصات انفجر اطار السيارة الأولى، مما أدى لانحرافها عن الطريق وسقوطها على جانب الطريق ثم اشتعالها، وأما السيارة الثانية فقد أصابت الرصاصات كل من فيها، فتوقفت السيارة التي تقل أبا خالد وأبا إياس، وكذلك السيارات المقابلة وقد هبط منها أربعة من المقنعين المسلحين، وما إن اقتربوا منهم حتى أمرا من في السيارة بالخروج، وفي ثقة خرج أبو خالد وهو يقول: انا أبو خالد السوري رسول الشيخ الظواهري وقد أخذت الأمان من الشيشاني، فما الذي تفعلونه رحمكم الله، أهذا أمانكم؟!!!

لطم أحد المقنعين وجه أبي خالد السوري، على اثرها أدمي وجهه وسقط أرضا، فتتبعته الأبصار، هم سائق السيارة بإخراج بندقيته ليصوبها نحو أحدهم إلا أنهم جميعا اطلقوا رصاصاتهم فسقط قتيلا، وهنا استغل أبو

إياس انشغال الجميع عنه فقفز في سرعة وخفة ليلكم الجندي الذي بجواره بقوة وقبل أن يسقط تترس به أبو إياس أمام الطلقات التي توجهت نحوه، وهنا وفي رشاقة عجيبة لا توافق سنه قفز الشيخ أبو خالد السوري ليسدد بقدمه ضربة قوية على صدر أحد الجنود والذي سقط أرضا، وفي سرعة تناول أبو خالد ذلك السلاح الساقط وصوبه لأحد الجنود، بينما أبو إياس كان يطلق الرصاصات اتجاه الجنود الواقفين في سرعة، كان الأمر سريعا جدا، وما إن انتبه الجنود الآخرين الذين كانوا يشاهدون المشهد عن بعد، حتى خرجوا من سياراتهم في سرعة اتجاههم، إلا أنهما قفزا في سرعة داخل السيارة، والتي تلقت وابل من الرصاص، أدار أبو إياس محرك السيارة وقد استجاب له وما إن تحركت السيارة للأمام حتى أطلق أحد الجنود الملثمة قذيفة اتجاهها، وما إن رآها أبو إياس منطلقة اتجاههم حتى حاول الانحراف بالسيارة، إلا أن الوقت لم يسعفه، ما إن ارتطمت القذيفة بالسيارة حتى سمع تمتمات أبي خالد بالشهادة وشعر بالجحيم يخترق كيانه وبالموت يسحبه.

****

كان الاجتماع السنوي لكافة أعضاء الهيكل التنظيمي لتنظيم الدولة في تلك القاعة التي تشبه المجالس النيابية لكثير من الدول، فقد كانت على شكل هرمي يبدأ برأس المنصات ثم تتسع كلما نزلت لأسفل، وكان يجلس على رأسها وأعلى منصة لها البغدادي مرتديا عمامته السوداء وقميصه الأسود، وفي المنصة التي هي أسفل منها كان يجلس أعضاء مجلس شورته بشكل دائري، وفي المنصة التي تليهم كان أهل الحل والعقد والتي تضم أمراء وقادة جيش الدولة، وفي المنصة الرابعة كان يجلس الهيئة الشرعية والتي تضم قضاة الدولة ورؤساء المحاكم الشرعية، وفي المنصة الخامسة جلس القحطاني وبجواره قادة فريق الاستخبارات للدولة، وفي المنصة السادسة كان يجلس المسؤولين عن وزارة بيت المال، وفي المنصة السابعة كان يجلس وزراء وعلماء الدولة من مختلفي التخصصات، وفي المنصة الثامنة كان يجلس مديري الهيئات العامة في كافة مفاصل الدولة.

أخذ البغدادي يقلب وجهه بفخر وهو يتابع هذا المشهد الذي مضى وقت ليس بالقصير لإعداده، لقد شكل بالفعل حلمه بصناعة دولة بل حضارة سيتحاكى عليها العالم.

قال أحد الرجال الذين بالقاعة بصوت عال:

- إنه لنبأ عظيم وأخبار مفرحة، قد قضي الأمر إذًا ببيعة الجماعات الجهادية في سيناء، والجماعات الجهادية في ليبيا، الدولة تتمدد في كل البقاع والله إنه لفتح كبير.

ارتجت القاعة بتكبير الجميع في صوت واحد.

اسكتهم مقاطعة البغدادي لهم وهو يقول في حزم: الكلمة الآن لوزير الحرب ما تعقيبك على إعلان بيعة هؤلاء لنا.

صوبت الأبصار اتجاه وزير الحرب الذي قال:

ألا يرى الجميع أن انضمام بعض الجماعات التكفيرية لدولتنا أمر علينا لا لنا، ولعل قائل يقول: وما الجديد في هذا فكثير منهم انضم لنا في العراق والشام وأماكن شتى.

والجواب: أن الأمر هنا مختلف، فكل من انضم إلينا منهم يعملون تحت أعيننا وقد أمر الخليفة بأن يذوبوا في بقية الجنود حتى يختفي معهم هذا المنهج، ورغم ذلك نحن نتجرع من تسرعهم وتعطشهم للدماء حتى الان، فما بالك

وبيننا وبينهم هذه المسافات، والرأي عندي أن نتمهل في قبول بيعتهم.

أتم أبو جندل كلمته ثم جلس بعدها، فقال البغدادي وهو يشير إلى القحطاني قائلا: هل من خطر أمني اتجاه بيعة هؤلاء يا قحطاني.

وقف القحطاني وقد أخرج بعض الاوراق من حقيبته ثم أخذ يقلب فيها وما ان انتهى حتى قال: الأمر هناك في غاية التعقيد، فجل قادة التنظيمات الجهادية في سيناء كانوا جنودا في الجيش المصري، مما يدعو للريبة من هؤلاء، لولا تأكدنا من انقطاع الاتصال بينهم وبين القيادة المصرية،... ولكن لا ندري مآرب هؤلاء وما سبب انضمامهم لهذه التنظيمات، خصوصا وان اختراق مثل هذه التنظيمات الجهادية لأسهل ما يكون، وما جماعة جيا الجزائرية عن أذهانكم ببعيد.

ونفس الكلام ينطبق على الجماعات المجاهدة في ليبيا، في القلب شيء منهما والرأي التروي في قبول البيعة منهما.

نظر البغدادي في حيرة للقاعة ثم قال بصوت عال: هل من رأي آخر هنا بخصوص هذه القضية؟

ساد الصمت القاعة إلا أن البغدادي لمح إحدى الأيدي المرتفعة، وما إن دقق النظر حتى وجد أنه أبو إياد الأمريكي، قائد الجناح العسكري والتدريبات في سوريا وهو نائب للشيشاني المتغيب عن الاجتماع لوعكة صحية كما ادعى.

- ماذا لديك يا أمريكي.

ضحك الجميع من نعت البغدادي له، إلا أن الأخير اكتفى بالابتسامة وهو يقول: نحن لم نشهد تمدد منذ وقت طويل لدولتنا، ولو دولتنا توقف تمددها للحظة فإن النقصان هو ما سيصيبها، ولا زالت الخسائر تنهال علينا منذ فترة، ولا حدث ضخم ولا انتصار مجلجل كان من نصيبنا منذ فترة ومثل هذا يجرئ علينا اعداءنا، وتنسج خلفه الأقوال، إذا فالصواب تحمل هذه السلبيات مع محاولة الإصلاح ما يمكن لنا إصلاحه ما وسعنا ذلك، وما لا يتم الواجب به فهو واجب، وأما عن كونهم تكفيرين خوارج فليس الكل كذلك كما يعلم الجميع، وحتى الخوارج منهم هم أهل خير وصلاح وإن كانوا تكفيريين فمن الكفر فروا كما قال ذلك عن سابقيهم علي بن أبي طالب رضي الله عنه، نتق الله

فيهم ونستخدمهم في توسع دولتنا، ونرسل لهم معلمين ودعاة ومقاتلين من عندنا يبين لهم أمر دينهم ويناصحهم، ونولي فيهم المعتدل السني المعتقد، ونجعل من هؤلاء جند له فهم أشد في الحرب والقتال، وأما عن اختراق تنظيمهم ودخول قادة الجيش فيهم، فالكل يعلم أن كثير من قادة الجيش المصري بهم خير ويحبون الدين ولا أكاد أنسى حادثة المنصة وقتل السادات صاحب تلك المعاهدة الكافرة، لم تكن سوى من ضباط الجيش، وعلى كل لن نستطيع الجزم بذلك إلا بعد قبول بيعتهم لنا، هذا رأيي بعد إذن الجميع.

قالها أبو إياد وجلس، في حين ظهر الانبهار على وجوه الحاضرين بما فيهم البغدادي نفسه، فقد نطق هذا الشخص عن كل ما كان يدور بخلده وقد زور هذا الكلام في نفسه ليلقيه، إنه لحري به أن يقرب مثل هذا الشخص ويعلي مكانته في دولة الاسلام، قد تيقن الان البغدادي سبب نفوذ الشيشاني في سوريا، فبمثل هذه العقليات تكون السيادة.

قال البغدادي: والآن وقت الاستفتاء على ما قيل، وأنا أعلن أني أوافق على كلام أبي إياد، فمن يوافق عليه، رفع

غالب الحضور أيديهم بالموافقة، فابتسم البغدادي وهو يقول: من الآن هذا الملف في يد وزير الحرب والقحطاني.

ساد الصمت للحظات قبل أن يقول البغدادي: حان الكلام على الملف الاقتصادي، وعلى صاحب بيت المال أن يتكلم.

قام رجل في العقد الخامس من عمره فأثنى على الله وصلى على النبي محمد صلى الله عليه وسلم ثم قال: بين أيديكم شرح وافي لميزانية الدولة وابشركم أنه رغم زيادة النفقات فإن الفائض كبير جدا يتخطى 20 مليون دولار.

ولكن ما أود طرحه اليوم هو أمر قد كلفني به خليفة المسلمين والآن قد انتهيت من إعداد تصور كامل عن الموضوع.

صمت الرجل قليلا وأخذ يبحث في الورق الذي أمامه ثم قال:

أحب أن أبشركم إخواني أنه سيتم بحول الله وقدرته وجود عملات رسمية خاصة بدولتنا المباركة بدلا من الدولار، وستكون عملات من الذهب والفضة، وعلى إثرها سنوجه صفعة أخرى للنظام العالمي بعد إزالة حدود سايكس بيكو وبه نخرج من هيمنتهم الاقتصادية.

علا صوت التكبير في القاعة، فأشار البغدادي للجميع بالصمت، فصمت الجميع، في حين واصل الرجل قائلا: لا يخفى على الجميع أن ضرب عملات من الذهب والفضة سيحقق نهضة اقتصادية لنا والتحرير من فرض أي حصار اقتصادي علينا، وسيتولى الأمر مجموعة من رجالنا، بحيث تساوي قيمة دينار الذهب عندنا 100 دولار تقريبا، ودرهم الفضة ربع هذه القيمة تقريبا، وستكون مدة تعميم التعامل بها في كافة مناحي الحياة هنا في مدة لا تقل عن ثلاث سنوات، وستطرح خلال أشهر من هذا الاجتماع، وفي الملف الذي بين أيديكم أيضا تصور كامل لهذا الأمر.

أخذ الجميع ينظر للملف المعد أمامهم ...

ومرت الساعات حتى انتهى هذا الاجتماع، وما إن أعلن عن انتهاءه حتى هم الجميع بالانصراف، إلا أن البغدادي نادى بصوت مسموع على القحطاني وأبي جندل أحد قادة الحرب وأبي إياد.

فتوجهوا ناحية مكتب البغدادي وكانت الدهشة تعلو محيا القحطاني وأبي جندل لطلب البغدادي مقابلة أبو إياد، فما عهدوا عليه مقابلة أحد القيادات الثانوية، وما إن دلفوا

مكتبه حتى حييه بتحية الاسلام فرد عليهم وأشار لهم بالجلوس، وظل يتفحص ملامحهم قبل أن يقول: لماذا تركتم هذا المصري الجاسوس حيا إلى الآن؟ لا بد وأن لك سبب قوي لعدم الانصياع لأمري.

رمق أبو جندل أبا إياد بلوم ثم قال: أبو إياد يا سيدي هو من تركه وأصر على حمايته.

وهنا وجه البغدادي نظرة متسائلة لأبي إياد والذي شرع يقص للبغدادي ما حدث بينه وبين أمير.

****

وقف أمير وسط الجنود في الصف للبدء بالتدريبات اليومية، علم أمير لماذا ينتصر هؤلاء، إن هذه التدريبات العسكرية لا يمارسها إلا الجيوش العظيمة في العالم حتى أن الجيش المصري لا يمارس بعضها لقلة الإمكانيات، كيف لتنظيم وليد الوصول لمثل هذه الإمكانيات العالية، وكيف لتنظيم أن يكون له جهاز مخابرات وكيف لهذا الجهاز اختراق بعض الدول خاصة مصر، هذه المعلومات الهامة لابد أن تصل للقيادة في مصر، ولكن كيف خاصة

بعد الذي حدث، وهنا اخذ يستعيد أمير ما حدث بينه وبين قائده أبو إياد الأمريكي...

بدأ أمير في استعادة الوعي، فإذا به مقيد اليدين والقدمين وملقا في ذلك المخزن الواسع، بدأ ينظر فيمن حوله فوجد القائد أبو إياد الأمريكي ميزه من المرات القليلة التي رآه فيها في اليوم الأول وهو يتابع اختبارات الجنود الجدد الملتحقين، ووجد بجانبه ثلاثة من الرجال المقنعين وفي أيديهم السكاكين المشفرة، ابتلع أمير ريقه في صعوبة، في حين قال أبو إياد: أمير مختار ضابط في إحدى الجهات السيادية بجمهورية مصر العربية وربيب زكي بك، الضابط المعجزة الذي أسقط كما يشاع عنه تنظيم جماعة الإخوان المسلمين، خبير بشؤون الإسلاميين، استعانت به المخابرات العامة لتجنيده بدولة الإسلام .

صمت أبو إياد ثم استطرد ساخرا: أو أضطر لذلك.

اتسعت عينا أمير في تعجب، ثم سرعان ما ابتسم ابتسامة ساخرة وهو يقول: لم أكن أدري أن أخباري سريعة الانتشار بهذه السرعة.

أمر أبو إياد الجنود المحيطين بمغادرة القاعة وما إن انصرفوا حتى قال: كما هو متضح من الملف الخاص بك، أنهم في مصر أرادوا التخلص منك ولذا أرسلوك إلى هنا.
وفي خطوات بطيئة سار اتجاه أمير ثم مال بجسده إليه وهو يغمغم: نديم أرسلك لتلقى حتفك فتبتعد عن رؤى.
طاش عقل أمير بمجرد أن سمع اسم رؤى، وكيف لهؤلاء أن يصلوا لكل هذه المعلومات التي لا يعلمها سواه وسوى نديم.
نديم؟!!! هل له علاقة بهؤلاء مستحيل، إذا فكيف.
علا صوت ضحكات أبي إياد وهو يقول: أتدري يا أمير ما هي عقوبة من يتجسس علينا.
- الموت يا سيدي؟!!!
- الموت هي أقصى أمانيه يا أمير، وقد جاءني أمر من الخليفة البغدادي نفسه بذبحك بعد إقامة حد الحرابة عليك، فما رأيك.
ابتلع أمير ريقه في صعوبة إلا أنه استجمع ما تبقى من شجاعته فقال في أنفة مصطنعة: وما يضير الرجل لو قتل

في سبيل وطنه، وغدا سأصير بطلا شعبيا في بلدي وسأكرم خير تكريم.

ضرب أبو إياد بكفه اليمني على فخذه ثم قال: تعرف ما مشكلتك يا أمير إنك لا تعرف إلى أي جانب يحسن لك أن تكون.

صمت أبو إياد وأخذ يدور حول أمير الملقى على الأرض ثم تابع حديثه: مجتمع أهانك وأهان ذكرى والدك وشرفه، ثم استغلك لتنتقم له، ثم تفانيت لأجله ووهبته مواهبك وقدراتك ثم ماذا، لم تزل ابن الرجل العامل البسيط ولا تستحق رغم كل ما وصلت إليه وأوصلتم له أن تكون واحدا منهم فضلا على أن تصاهرهم وعندما كانت ثمة مهمة مآلها الموت اختاروك أنت دون ابناءهم، بل يسهلون علينا سواء بقصد أو بدون قصد معرفة ملفك بالكامل، مثل هؤلاء لماذا تقاتل لأجلهم، لماذا؟!!!

- أنا لا أقاتل لأجلهم بل أقاتل لأجل وطني.

أطلق أبو إياد ضحكاته الساخرة ثم قال عقبها: وطن وما تعريف وطن؟!!! هل الوطن هو النظام الذي يحكم أم الأغنياء الذين يعيشون في أبراجهم العاجية أم تقصد بالوطن

البسطاء الذين تسمونهم الشعب، هؤلاء تقاتل لأجلهم ضد من؟!!! ضد الأنظمة التي مصت دمائهم ولا زالت، أم ضد دولة لم يروا منها سوءا، ما الفارق بيننا وبين أي نظام يحكم في مصر.

- الفارق يا سيدي أن مصر لن يحكمها سوى مصريين مهما كانوا ومهما فعلوا، لا قطاع طرق شرذمة مجهولة الهوية قد صنعتهم أمريكا وأمدتهم بكل شيء ليكون مبررهم لاحتلال أراضينا وتقسيمها.

تعالت ضحكات أبي إياد الهستيرية، ثم حاول أن يتماسك إلا أن الضحكات كانت تغلبه، حتى قال وهو يقاومها: أهذا الذي قد لقنوك إياه، ولماذا تحتاج أمريكا لصناعة دولة كدولتنا لكي تبرر لها ما قلت، يا سيدي أمريكا كما يظهر للأعمى محتلة فعلا لأرضك، اقتصادك ديونك، المعونات التي تعيش عليها دولتك، الأسلحة التي يمدونك بها، وأمام هذا العطاء فتنفيذ طلباتها أوامر وولاؤك التام لها، وليس بلدك فقط بل كل البلاد العربية رهن إشارتها مهما حاولت الأنظمة المختلفة بما فيها نظام المفلسين أن تدعي غير هذا، كلهم عرائس تحركها أمريكا لغايتها، فلماذا إذا تحتاج أمريكا

لصناعة ما تسمونه داعش، وهي بالفعل تملك المنطقة ككل؟!!!.

لم يحر أمير جوابا، كانت كلمات أبي إياد لها تأثير بالغ في نفسه ولعل كلماته هذه وافقت ما كان يخشى حتى بأن يصرح به بينه وبين نفسه، نعم ماذا حصل عليه رغم كل خدماته السابقة إلا الازدراء والفضيحة، وأما مقولته عن أمريكا فلم يجد فيها ما يخالف الواقع، بالفعل الكل يسعى لرضى أمريكا وإنفاذ مخططاتها التي هي نفسها صانعة داعش فكيف؟!!!

ابتسم أبو إياد فقد وجد أن كلماته وقعت في نفس أمير، فقال في هدوء: يا أمير قد اطلعت على ملفك كاملا، فوجدت لديك من المواهب التي ستعلو بها في دولتنا بلا شك ولا أخفيك أني متوقع أنك ستبلغ في دولتنا أعلى المراتب، هنا دولة الاسلام حيث لا فرق بين غني وفقير، قوي وضعيف، لا ذو حسب ونسب أو رجل من العامة، المرد هنا لتقواك لله ولمواهبك وقدراتك التي ستكون في خدمة الدولة، وأظنك لا تعلم أنني ضابط سابق بالمخابرات الأمريكية، منّ الله علي بالإسلام وأنا بأمريكا فدرست الإسلام وعلمت أن مجتمع مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم ليس لها وجود إلا في

هذه البقعة من الأرض، فأتيت مثلك جنديا لا أملك إلا قدراتي ومواهبي وإرادة، وها أنا الآن أمامك نائب لأمير الدولة في الشام وقائد الجناح العسكري للدولة.

تطلع أبو إياد لأمير وهو يستشف أثر كلماته في نفس الأخير ثم أردف: يا أمير، سأعرض عليك عرضا أظن فيه نجاتك إن أردت، ما رأيك أن تعلن توبتك وانضمامك لدولتنا، ولك مني أن أوقف قرار قتلك.

- من الطبيعي أن أوافق فرارا من الموت، ولكن ما ضمانك لولائي بعدها؟!!!
- أنت ضماني بالتأكيد، فما سأطلبه منك سيكون عربون ولائك لي أقصد لدولتنا.
- وكيف هذا؟

وهنا بدأ أبو إياد بشرح مراده من أمير، والذي اتسعت عيناه من أثر المفاجأة فما كان يطلبه منه أشد عليه من الموت في حد ذاته.

****

كان الجولاني جالس في ساحة منزله الواسعة يتأمل أطفاله الذين انشغلوا بألعابهم وبين الحين والآخر يرسل لهم ابتسامة أو تعليق لفعل من افعالهم أو تشجيع لهم، كان هذا هو المكان الذي يرتاح فيه بعد ساحات الحرب التي يخوضها أحيانا بنفسه، فجأة رن هاتف جواله فالتقطه قائلا في حنق: ألا استطيع أن ارتاح قليلا مع أهلي.

وما إن أجاب حتى صدمه ما سمع فقد كان المتصل يخبره بمقتل أبي خالد السوري ومجموعته فاتسعت عيناه وفي عصبية قال: انا لله وانا اليه راجعون، سننتقم من قتلة هؤلاء إنه بلا شك الشيشاني وعصابته.

قال المتصل: ولكن يا سيدي لم يعلنوا حتى الآن.

فأجاب الجولاني: ومن غيرهم يجرؤ على فعل هذا، فأبو خالد السوري لهم حب في قلوب جميع الفصائل الجهادية وهم كانوا في منطقة بعيدة عن بطش النصيرية.

تنهد الجولاني ثم تساءل: عليكم بإرسال مجموعة لالتقاط جثثهم، وارسلوا رسالة للظواهري تنعون إليه خبر استشهاد أبو خالد السوري على يد الدواعش، وأنا قادم إلى المعسكر الآن.

- الله المستعان يا سيدي.

اغلق الجولاني هاتفه في غضب، إلا أنه تنهد قائلا: لا نقول إلا ما يرضي ربنا، ثم أمسك بأحد برأس أحد أبناؤه قائلا وقد ارتسمت ابتسامة على وجهه: يا عبد الرحمن، ربك كشف عني هم كبير، هذا فضل الله.

ثم لمعت عيناه قائلا: قد أزيلت عني كل العراقيل لتحقيق حلمي.

****

فتح آسر عيناه في صعوبة وبطء، وجد ألم شديد في صدره فتأوه في ضعف، وهنا هب أحد الجنود الجالسين بجوار فراش آسر، وهو يقول: حمد لله على سلامتك يا سيدي، لقد كان نجاتك أمر شبه مستحيل إلا أن الله قد من عليك بالحياة.

قال آسر في ضعف: وما الذي حدث وأين نحن الآن.

- نحن الآن في مشفى مدينة الموصل، ولقد قام الجيش العراقي بخداعنا وقد احاطت بنا بعض قواته من كل الجهات إلا أن أبا جندل وكأنه ملهم فقد كانت ثمة قوات لا ندري عنها شيء تقوم بتأميننا فأنقذت ما يمكن انقاذه

واشتبكت مع الجيش فنجا مننا القليل وقد حملناك معنا وسرنا بك ليلتان في صحراء العراق قبل أن ينجدنا بعض الاخوة، ولقد ايقنا بهلاكك فقد نزفت الكثير من الدماء إلا ان بعض الاخوة قاموا بكي جراحك أكثر من مرة ليتوقف النزيف وما إن وصلنا لهنا حتى أخرجنا من جسدك أكثر من رصاصة أصابتك في صدرك، كما قلت لك يا سيدي لقد من الله عليك بالحياة.

- جزاكم الله خيرا عني.
- وخيرا جزاك يا سيدي نحن هنا أخوة وأنت على ثغر من الثغور وقليل من يقوم مقامك، فحياتك حياة لنا جميعا.
- ولكني سأترك هذا الثغر يا أخي، فثمة ثغر من الثغور يحتاجني أكثر.
- لا أفهم قصدك يا سيدي.

ابتسم في تعب آسر، فقد تذكر وصية حسان له، وقد عزم على أمر إن كتب الله له الشفاء.

****

ما إن بلغ الشيشاني أمر قتل أبي خالد ومجموعته حتى بدا عليه الانزعاج، قد تيقن أن هذه المرة ستكون نهايته على

يد البغدادي، ولكن كيف للبغدادي أن يغتال أبو خالد السوري، لطالما سمع البغدادي وحجي من قبل يمتدحون الرجل وعقله وإخلاصه، وأكثر من مرة صرح البغدادي بتمني انضمام أبو خالد السوري لدولته لرجاحة عقله وحلمه، فكيف له أن يتجرأ على قتله، والسؤال الأهم الذي طرأ على ذهن الشيشاني: كيف لهم أن يعلموا بهذا اللقاء وقد كان في غاية السرية، لا يعلمه سوى هو وبعض قادة الجولاني، هل منهم من يعمل مع البغدادي؟!!.

ألف سؤال دار بعقل الشيشاني، كان شعور الرعب هو المسيطر وقتها عليه، حتى فوجئ بأحد الجنود يقتحم عليه خلوته، قائلا: يا سيدي لقد نفذنا أمرك بالذهاب لموقع التفجيرات التي سمعناها صباحا.

- وماذا وجدتم؟
- وجدناهم يا سيدي قتلى ما عدا واحد وجدناه لا زال حيا يثعب في دمائه، وقد أحضرناه معنا.
- ومن يكون هذا؟
- قد أخبرنا يا سيدي أنه أبو إياس وقبل أن يفقد الوعي قال: إنه يريد أن يقابل البغدادي شخصيًا.

لمعت عينا الشيشاني، فهو يعلم من يكون أبو إياس ومكانته في جبهة النصرة، قد تيقن الشيشاني أن نجاته في يد هذا الشاب.

قال الشيشاني للجندي: اذهبوا به إلى مشفى الجند، وأمر الأطباء هناك أن يهتموا بحالته، و...

رن هاتف الشيشاني، وما إن رأى اسم المتصل حتى صعقته المفاجأة فقد كان البغدادي نفسه.

الفصل العاشر

مهمات

في نسيم الفجر، وقد بدا الخيط الأبيض من الخيط الأسود، تحلق مجموعة من رجال البدو الملثمين حول جماعات من النوق الرُّبك، وأخذوا يلفوا جسد الجمال بتلك الحبال القوية ثم أرخوا الحبل المحيط بالجمل الأول في تلك الحفرة الواسعة التي كانت بجوارهم، وظلوا على ذلك حتى اهتز الحبل في قوة، فأمر كبيرهم الباقي بأن يحركوا الجمل الأول فما إن تحرك حتى ظل يسحب الحبل وما إن قطع بعض الأمتار، حتى ظهر من الحفرة السامرائي وهو ممسك بذلك الحبل وقد ربط الحبل بحقويه، وما إن خرج حتى كبر الناس، وقد تكررت العملية حتى أخرجوا خمسة من الرجال، وما إن هموا بإرسال الحبل مرة أخرى حتى سمعوا أصوات الإنذار منبعثة من سجن تسفيرات تعلو المنطقة كلها رغم بعدهم أميال عن السجن، وهنا هتف أحدهم علينا بالانصراف قبل أن يتفطنوا لنا.

صرخ السامرائي: وبقية إخواننا الموجودين داخل النفق، سيموتون بلا شك.

رد أحدهم بحدة: كان الله في عونهم علينا الآن بالهروب وبأقصى سرعة، وإلا ستكون نهايتنا جميعا.

أخذ الجميع يستعد للرحيل، وهنا سحب السامرائي أحد الأسلحة المعلقة بخاصرة أحدهم وأمسك بكبير الملثمين ووجه له السلاح وهو يصرخ فيهم: ستكون نهايته إن انصرفنا واصل سحب بقية إخواننا وإلا سأقضي عليه.

قال له كبيرهم: هل فقدت عقلك يا أخي، ما تفعله عواقبه وخيمة، وهل هذا جزاء عملنا طيلة الشهور الماضية.

أعاد السامرائي كلامه مرة أخرى، فما كان من كبيرهم إلا أن أشار لمساعديه باستمرار العمل، وما إن استمروا حتى فترت يد السامرائي من على السلاح، وبصوت خفيض قال: اعذرني يا أخي والله إن فضلكم علينا لكبير، ولكن هؤلاء إخواننا لا نريد أن نفجع فيهم، وربك ستير ينجينا بإذن الله.

لم يجبه الرجل، بل واصل ورجاله العمل والرعب يسري في قلوبهم فقد يكشف أمرهم في أي وقت.

****

لم يصدق حيدر نفسه، وهو يجوب إحدى الشوارع التي تتوسط الجانب الشرقي لمدينة بغداد في تلك السيارة العسكرية، المتجهة ناحية المنزل الذي اتخذه قائد السجن لوالدته وأخته مسكنًا، وفي وسط هذا الشارع وامام إحدى المنازل الواسعة توقفت السيارة، وصاح السائق: هذا هو البيت يا سيدي.

خفق قلب حيدر وهو يغادر السيارة، ويتجه لبوابة المنزل، مارا بحديقته الصغيرة، وما إن اقترب من الباب حتى سمع صوت فاطمة من أعلى سطح المنزل وهي تصرخ باسمه، فرفع رأسه في فرح إليها، فلم يجد سوى مغادرة ظلها للمكان، فهمّ بطرق الباب، إلا أنه وجد أمه قد سبقته بفتح الباب، فلما رآها لم تتمالك الدموع من الصمود الطويل، فانهمرت من كليهما، وعاجله شوقه لذلك الحضن الذي طالت غربته عنه، فارتمى فيه وهو يشاركها نحيبها، وكانت قبلاته تتسابق بين كفها ورأسها، وكذلك قبلاتها لولدها،

أبعدت رأسه قليلا عن حضنها لتتأمله عيناها التي افتقدت لمدة طلعته، زفرت قائلة: أوه يا حيدر، ما فعلت الأيام بملامحك يا ولدي.

حاول حيدر الجواب أو النطق بأي كلمة إلا أنه لم يقدر، فقد كان البكاء هو المسيطر على المشهد، وفجأة برزت من خلفها فاطمة وهي تقول: يا أماه أليس لي في حيدر نصيب.

وما إن التفت إليها حيدر حتى رمت بنفسها عليه بقوة كاد يسقط إثرها، واحتضنته بلهفة وهي تقول: اشتقت لك يا أخي، لا بارك الله في هذه الدنيا دونك.

ابتسم حيدر في حزن لشقيقته، وهو يتفحص ملامحها إلا أن قلبه كان يتكلم وبقوة: لقد نضجت ملامحها ونظرتها أصبحت أكثر حدة، وأمه قد رفع الهم راياته على وجهها، لا يهم فهو أخيرا قد التقى أسرته بعد هذا الغياب الذي طال، رائحة أمه ودفء حضنها، ابتسامة شقيقته التي تنبعث معها الحياة، كل هذا اشتاق له كل تفصيلة معهما يشتاق إليها، لم ينقص هذا المشهد إلا وجود والده.

توسط حيدر أمه وأخته وقد طوقهما بذراعيه، ثم دخلا البيت وأغلقوا الباب، ومعه أغلقوا صفحة الفراق.

****

جلس آسر أمام وزير الإعلام في مكتبه، منتظرا في ملل انتهاء الأمير من قراءة الملف الذي سلمه إياه منذ قليل، وكان الوزير يقرأه في حماس لم يتوقعه آسر، وما إن فرغ من القراءة، حتى تنهد في ارتياح قائلا: أحسنت يا آسر، الفكرة جميلة توكل على الله.

في اندهاش قال آسر: بهذه البساطة.

ضحك الأمير وهو يقول: لسنا هنا في مصر يا آسر، لا يوجد هنا تعقيدات إدارية كل أمر هنا في منتهى البساطة، طلبك بصناعة وتصوير أفلام عن الحياة اليومية في دولتنا والتقدم الاقتصادي والاجتماعي فيها لجدير بتيسير إجراءات الموافقة على تنفيذه.

ثم استطرد قائلا: تركك للجهاد في المعارك وتوثيقك لها لخسارة كبيرة، خصوصا مع مدح أبي دجانة لعملك، ولكن فكرتك تستحق ذلك.

ابتسم آسر، قائلا في حماس: ولكن يا سيدي الأمر سيحتاج فريق عمل كبير من معدين ومخرجين ومصورين، وغالبهم يعمل على إخراج المعارك والانتصارات و...

قاطعه الوزير قائلا في حزم: اختر الفريق الذي تريده، وأنا موافق عليه.

في فرحة عارمة، استأذن آسر وانصرف من مكتب وزارة الإعلام، فلما خرج استقبله بعض من أصدقائه الذين كانوا ينتظرونه بالخارج، فقال أحدهم: هل وافق الوزير على تركك الجهاد وعكوفك على صنع أفلام عن يوميات الدولة؟

ابتسم آسر قائلا: بالفعل وعلى غير المتوقع وافق.

فقال آخر: وهل وافق على صناعة أفلام تعليمية وثقافية موجهة لأهل الدولة التي حدثتنا بالأمس عنها.

قال آسر: من الخطأ أن أحدثه في مثل هذا الأمر الآن، ولكن سيكون فيما بعد، فلا أظن أنه من السهل الآن قبول فكرة مثل هذه، ونحن طوال الوقت في حرب، والمسائل التي أريد أن أتناولها في هذه الأفلام ستولد خلافات، وفي الحرب وحدة الصف وتأليف القلوب خير من فرقتها.

قال الأول: ولكنك لا تتوقف قط عن جدال بعض إخواننا ومحاولة تغيير بعض أفكارهم المتشددة.

تنهد آسر ثم قال: البعض فقط ممن ألتمس فيه الخير والبحث عن الحق.

قال أحدهم: لا ننكر صدمتنا مثلك من بعض المناهج المنحرفة المتفشية في عقول الكثير من جنود الدولة، ولولا مقتنا للمناهج الأخرى كالعلمانية وأخواتها والحرب ضد الرافضة والنصيرية ما كنا لنستمر في القتال معهم حتى يصفو نهجهم.

قال آسر وهو يلتفت يمنة ويسرى في توجس: صه، يا أخي لا يُتحدث في مثل هذا هنا، ولكن أبشر سيكون ما نريد قريبا.

تساءل : وكيف ذلك يا آسر؟

فأجاب آسر: قبل قدومي إلى هنا وأنا أعرف أن هذه الأفكار متفشية ورغم مقتي لها قدمت، أتدري لماذا؟

لم يمهل آسر صديقه في الإجابة وواصل كلامه: لأن ما أقيمت خلافة إلا على الدماء والبطش في البداية.

ثم استطرد قائلا: سوى الخلافة الراشدة طبعا، الخلافة الأموية قامت فوق دماء الصحابة، الخلافة العباسية قامت فوق دماء الأمويين، وغيرها من الممالك والدول، تبدأ عهدها ببطش وقتل ثم عند التمكين والأمن يتبدل الحال، ودولتنا نفس الشيء.

قال الأول: ولكن المفترض إقامة دولة على منهاج النبوة وليست على غرار الأموية أو العباسية.

ابتسم آسر وهو يقول: ما لا يدرك كله لا يترك جله، توحيد الدول المتفرقة ولو على الدماء أولى من تلك الفرقة مع السلامة، هذا إن كانت ثمة سلامة.

قالا صديقاه في صوت واحد: الله المستعان.

وردد آسر قولهما : الله المستعان.

وواصلا سيرهما، وأثناء ذلك كان عقل آسر يرسم كيف يكون له دور في تبدل الحال.

****

- سيدي لقد وصلتنا رسالة عن طريق الفيس بوك من العميل أ- 100.

في لهفة بالغة قال مدير المخابرات: وهل فك الخبراء شفرة الرسالة.

- نعم يا سيدي، وها هي.

تناول مدير المخابرات الظرف وفضه بسرعة وتناول الورقة بين يديه، وفي اهتمام بدأ في القراءة:

من أ-100 إلى ن

لقد تم كشفي من الهدف، عن طريق بعض رجالهم الذين زرعوا داخل الجهاز، ولقد عرضوا علي أن أعمل لصالحهم وأسندوا إلي بعض المهام مقابل الإبقاء على حياتي، وإعطاءهم معلومات عن الجهاز الذي كنت أعمل به، فما هي الأوامر؟

أنهى مدير المخابرات الرسالة، ثم أعاد قراءتها مرة أخرى، وما إن انتهى حتى التفت إلى من يجاوره قائلا: أرسلوا الرد اليه بأن يستجيب لطلباتهم ويتعاون معهم حتى يصير موضع ثقتهم.

استأذن أحدهم بالكلام فما إن أذن له حتى قال: يا سيدي، ولكنهم يطلبون معلومات عن جهاز أمن خطير في البلد لا يدري عنه أحد شيئا فكيف لنا أن نمدهم بما يريدون؟

ابتسم مدير المخابرات قائلا: وهل تعتقد أنهم لا يعلمون شيئا عن هذا الجهاز، مجرد كشفهم لأمير وهو من الشخصيات الرائدة في هذا الجهاز لا يعني سوى شيئا واحدا أنهم قد اخترقوا هذا الجهاز وما طلبهم هذا إلا اختبار لأمير، ولا بد أن ينجح فيه.

صمت قليلا ثم زفر في حنق وهو يقول: ما كنت لأحسب أن هذا التنظيم بهذه القوة قط.

ثم شبك أصابعه وضغطهما في قوة وأردف قائلا: لو لم يقضى على مثل هذا التنظيم في أسرع وقت ستكون النهاية للعالم كله.

****

تعالت ضحكات الشيشاني وأبي إياد في مجلس الطعام الذي كان يجمعهما، كانا يفترشان الأرض ومن شدة الضحك اتكأ أبو إياد على الوسادة التي كانت خلفه، في حين قال الشيشاني: وهل انطلت عليهم الرسالة التي بعث بها المصري؟

أجاب أبو إياد: بل بعثوا له برسالة تأمره بمواصلة عمله معنا أملا في اختراق دولتنا.

قال الشيشاني: لا أدري كيف تثق في هذا المصري؟ وأنت أنت.

تناول أبو إياد بعض الطعام قبل أن يجيب: بُعد النظر يا شيشاني.

بدأ على ملامح الشيشاني علامات عدم الفهم، ابتسم على إثرها أبو إياد وهو يردف: لا عليك يا أخي، ولكن اعلم أننا سنحتاجه يوما، وتذكر كلامي هذا جيدا.

هز الشيشاني رأسه، في حين تناول أبو إياد بعض حبات العنب من أمامه وتناولها دفعة واحدة ثم سأل الشيشاني: كيف حال أبو إياس هذا؟

أجاب الشيشاني: لا أدري، فمنذ أن قمت بترحيله للبغدادي لا أدري عنه شيئا.

قال أبو إياد: قل لي يا أخي، من أين جاء أبو إياس هذا؟ وما أصله وما بلده؟ فأنا لا أدري عنه سوى حسن بلائه مع الجولاني.

قال الشيشاني: لا يدري أحد عنه الكثير، سوى أنه كان أحد جنود الجولاني؛ فقدّمه على غيره لما رأى فيه من حدة ذكاءه وتفوقه على أقرانه.

عقد أبو إياد جبينه في دهشة ثم تساءل: أليس من الغريب أن أبا إياس هذا يصل لما وصل إليه دون أن نعلم حتى اسمه أو نسبه.

أجاب الشيشاني: لقد حاول القحطاني أن يحصل على أي معلومات بخصوصه لكنه فشل، ولعل هذا ما جعل البغدادي يدبر في تجنيده لصالحه قبل أن يأتيه هو بنفسه.

قال أبو إياد: يا شيشاني وراء هذا الفتى أمر مريب.

هز رأسه الشيشاني نافيا وهو يقول: لقد بالغت يا أبا إياد، ولا أظن البغدادي سيضع ثقته في شخص غير مؤتمن.

ابتسم أبو إياد وهو يقول: لم أقل أن ريبه على البغدادي.

تساءل الشيشاني: فعلى من إذا؟

اجاب أبو إياد: بل علينا نحن، أو بمعنى أدق عليك أنت.

قال الشيشاني في دهشة: وكيف؟

قال أبو إياد: لا أظن البغدادي يريده سوى ليستبدلك به، فهو أدرى بالأمر في الشام والأعلم بأحوال جند الجولاني، وهو أشد نقمة عليه من أي أحد بعد تدبير قتله كما أشيع، ولا أستبعد أن يرسله البغدادي قريبا إلى هنا ليكون مستشارا لك حتى إذا وعى الأمر هنا لم يلبث حتى ينتظر الوقت المناسب للانقضاض على سلطانك هنا، ويصير هو قائد جند البغدادي على الشام.

بدا الاضطراب والقلق على ملامح الشيشاني، فما قاله أبو إياد منطقي جدا فلا يزال في قلب البغدادي منه شيء، نظر الشيشاني لأبي إياد في ضعف قائلا: أنا من استعجلت بهلاكي بإرسال أبو إياس هذا إليه، يا ليتني أجهزت عليه حين وجده جندي، وقد ظننت أن في ارساله للبغدادي شيء اتقرب به إليه وأفر به من سخطه.

في مكر ابتسم أبو إياد وهو يقول: لا تجزع أخي، فكلها مجرد ظنون واحتمالات، ولو كان ما نخشى فلا يزال ثمة ورقة بأيدينا وورقة قوية جدا يجب علينا استخدامها من الآن لصالحنا.

قال الشيشاني في لهفة : ما هي تلك الورقة.

قال أبو إياد: المصري يا أخي...

ثم بدأ في شرح خطته للشيشاني، والذي أثناء استماعه قد تبدل خوفه لنظرة ماكرة وابتسامة مطمئنة؛ فقد كان ما يقوله أبو إياد قائد جنده فيه بالفعل خلاصه من كيد البغدادي.

****

ابتدر البغدادي أبا أياس بالسلام وهم إليه حين دلف الأخير إلى مجلسه، ثم قال: قدمت أهلا ونزلت سهلا يا أبا إياس، وأحسن الله عزاءك وعزاءنا في الشيخ أبي خالد السوري.

قال أبو إياس في فتور: رحمه الله، هذا ظننا بك يا خليفة المسلمين.

انتفخت أوداج البغدادي فلم يتوقع نعت أبو إياس له بذلك، أشار البغدادي لأبي إياس بالجلوس بالقرب منه، وما إن جلسا حتى قال البغدادي: قد احتبست عنك ثلاثة أيام، فهي عادة العرب قديما إذا قدم عليهم الضيف، أن يحسنوا إليه ثلاثة أيام ثم يرون حاجته، وأرجو أن تكون قد وجدت راحتك في جوارنا.

قال أبو إياس مبتسما: نعم الجوار جواركم، وجزاكم الله عني خيرا.

قال البغدادي: والآن، أرجو أنك تعلم براءتنا من دم أبي خالد، وكذب تلك الشائعات التي روجها الجولاني.

قال أبو إياس في حزم: كلانا يا سيدي يعلم من هو القاتل، ولهذا أردت مقابلتكم.

ابتسم البغدادي قائلا: وماذا تريد يا أبا إياس، سل تعطه.

قال أبو إياس: أعرض عليكم بيعتي ونفسي وعقلي وهمتي.

قال البغدادي: ونعم العرض هو، وما المقابل؟

قال أبو إياس: لا شيء سوى الأمان أولًا، وقبول النصح ثانيًا، وأخيرا ألا أُجبر على ما لا أحب.

قال البغدادي: لك يا أخي ما تحب وإنك لدي مكين أمين.

قال أبو إياس: ابسط يدك يا سيدي أبايعك على السمع والطاعة في المنشط والمكره.

ثم أطرق رأسه قليلا ثم أردف: وعلى الإجهاز على أعدائك وأولهم الجولاني.

فمد أبو إياس يده للبغدادي، إلا أن البغدادي قبض يده عن مصافحة أبي إياس والذي تطلع إليه في دهشة وأدها البغدادي قائلا: وأولهم الشيشاني، ثم صاحبك.

ابتسم أبو إياس وهز رأسه بالموافقة فمد البغدادي يده وصافحه، بل واحتضنه قائلا: قد تتوافق الغايات ومعها تتوافق الأنفس، وإن الخلافة لفي أمسّ الحاجة لأمثالك يا أبا إياس.

ابتسم في قلق أبو إياس، فقد كان يعلم أن المعركة القادمة في منتهى الشراسة.

****

في ساحة واسعة شرقي مدينة سامراء، اجتمع خلق كثير من إحدى العشائر بالمدينة، وكانت الموائد تطوف على الرجال الذين تحلقوا حلقا في تلك الساحة، كانت زغاريد النساء لا تتوقف ولا تنافسها سوى الطلقات النارية الاحتفالية، هدأ هذا كله عندما قام أحد مشايخ العشيرة خطيبا في الناس ومهنئا هروب السامرائي من سجن الرافضة، أما السامرائي فكان ذهنه شاردا وإن بدا للجميع أنه منشغل باستقبال عشيرته له، كان الألم يعتصر قلبه وهو يسترجع ذكرياته في سجن الرافضة وكيف دبر للهروب منه، حتى كانت نجاته ونجاة من معه، تذكّر كيف جعل الله بين أيدي الحرس سدًا ومن أمامهم سدّا فلم يتنبهوا لهم، وكيف استطاع المرور على عدد من كمائن الرافضة حتى وصل إلى عشيرته وأهله، كانت فرحته لا توصف بنعمة الله له بالخروج من ذلك الجحيم، إلا أنها تلاشت منذ أن علم بمقتل أخيه على أيدي مجاهدي الدولة، لم يكن حزنه ومقته سوى على شقيقه الذي علم الجميع بتآمره على بعض المجاهدين الملتحقين بدولة الإسلام لصالح الرافضة والأمريكان الذين أذاقوا عشيرته

وقومه سوء العذاب، قد لحق العار بأسرته بسبب شقيقه الذي بات في أذهان الجميع أنه خائنا للعشيرة، بل العار الأكبر هو ما كان من أسر زوجة أخيه وأولاده في سجون الرافضة لا يعلم أحد عنهم شيئا، والآن وقد صار كبير العشيرة فيجب عليه أن يستعيد مكانتها وعزتها التي أهانها أخاه من قبل، وقد بدأ فعلا بتجديد البيعة للبغدادي وإرسال بعض أبناء العشيرة ليقاتلوا في صفوف جند الدولة، وثانيها بالتقصي عن مكان أسرة شقيقه.

اخترق أحد الرجال الملثمين المجلس واتجه صوب السامرائي وقد لفت انتباه الجميع فشرعوا في مراقبته، وقد مال إلى أذن السامرائي وقد أسر له بكلام، على إثره علت ابتسامة وجه السامرائي ولم يقل سوى كلمة واحدة: والآن حان وقت سداد الدين يا حيدر.

حتى الرجل الملثم اندهش من رد فعل السامرائي إثر إبلاغه: بأنه علم بأن أسرة شقيقه تحت الحراسة المشددة في إحدى الشقق المملوكة للشيخ جعفر أحد قادة جيش الحشد الشعبي الجديد وزوج ابنة مرجع كربلاء.

****

انتفض حيدر من نومه فجأة، فإذا الظلام يحيط به والعرق يتصبب من وجهه ظل برهة من الوقت حتى استوعب أنه في بيت أهله الجديد، قام من على فراشه واتجه لساحة المنزل فإذا أمه جالسة تصفف شعر اخته فاطمة، فرسم على وجهه ابتسامة هادئة وقال: أمستيقظات لهذا الوقت ؟!!!

اعتدلت أخته من نومتها، وقالت مبتسمة: فرحتنا بلم شملنا أذهب عنا النوم.

جلس حيدر بجوارهما، ثم توسد حجر أمه، والتي بدأت تداعب خصلات شعره، في حب، فقالت فاطمة : ها قد عاد حبيبك يا أمي، وحان وقت نسياني.

قالت آمنة: لا زلت لا أصدق أن حيدر هنا وكأني أحلم.

اعتدل حيدر من نومته وقال: أنا هنا ولن نفترق يا أماه مرة أخرى بإذن الله، وستكتمل فرحتنا بوجود أبي بيننا، وبانتقامنا ممن شتتوا شملنا وفرقونا.

قالت آمنة: يا حيدر، مالنا ومالهم، سامحهم الله، دعك منهم فأنا لا أطيق أن افقدك مرة أخرى.

وهنا تساقطت دمعات آمنة تبعتها دمعات فاطمة، في حين قال حيدر وقد انخلع قلبه لبكائهما: لا تخافي يا أمي سيحفظني الله من كل سوء، المهم رضائك عني ودعائك لي.

قالت أمه وهي تكفكف دموعها: لطالما دعوت آل البيت أن يشملوك ببركتهم.

قال حيدر في حدة: لا تدع إلا الله، ما دمر حاتنا إلا هذا المذهب الضال.

تطلعت إليه أمه في حيرة، وهمت بالجواب إلا أنها لاذت بالصمت، في حين واصل حيدر كلامه قائلا: خلال أيام إن شاء الله ستسافرين لمدينة سامراء، هناك صديق لي سيرعاكما.

خبطت آمنة يدها على صدرها، وهي تتأوه وتقول: وما لنا وسامراء يا حيدر، ألا تعلم أنها في يد الدواعش.

قال حيدر : أعلم يا أمي، وهناك آمن مكان يمكنكما البقاء فيه من أي بطش، وقريبا سأجد أبي وسألحقه بكم.

قالت فاطمة في استنكار: هل سنترك هذا المنزل الواسع يا حيدر ونذهب لنعيش عند صديقك.

أجابها في حدة: هناك أبرك وأفضل، وهذا أمر لا مشورة، أنا أدرى بالصالح.

تطلعت آمنة لابنها في دهشة، لم يكن هذا حيدر الذي تعرفه قد بدا اقوى وأحد طباعا، هل نفوذه الآن هو ما منحه هذه الشخصية، أم تراها الحياة والمصائب التي مر بها قد صنعت منه هذا الشخص، أيما كان فمن أمامها الآن يختلف عن حيدر.

****

الفصل الحادي عشر
مهمة مستحيلة

- يا أمير أتدري لم قمت بمنع قتلك؟

قبل أن يجيب أمير أبا إياد الأمريكي، واصل أبو إياد كلامه: لقد أعجبني التقرير الذي قرأته عن ذكاءك وفطنتك، وعملك لا يقتصر فقط عندي على مجرد إرسال بعض الأخبار المغلوطة لقيادتك السابقة بمصر، بل عملك عندي يوافق إمكانياتك.

قال أمير: انا رهن إشارتك يا سيدي.

ربت على كتف أمير وهو يقول: رائع، ولكن قل لي أولا بعد مخالطتك لجنود الدولة هنا ما تقييمك لهم.

قال أمير في حماس: يا سيدي أنا منبهر بحق، فلقد خالطت قبلهم الكثير من أبناء التيارات الإسلامية بمصر، ولقد وجدتهم مشتتين بين مشايخهم، منشغلين بمسائل علمية فرعية غرست عن قصد على أرضهم، لا هدف ولا غاية سوى التي في أفكار مشايخهم، والذين نعرف عنهم ما لا يحسن قوله الآن، وقد من الله علي

بالتوبة، أما هنا فلا أجد سوى روح الإسلام؛ من حب في الله ومساواة وبذل، أناس صدقوا ما عاهدوا الله عليه رهبان ليل وفرسان نهار، أصفى الناس قلوبا وأنقاهم سريرة، ولقد تشرفت بصحبتهم وبخلطتهم، فنزع الله مني وساوس الشياطين، وهذه منة هي في النهاية لك يا سيدي.

ابتسم أبو إياد وهو يقول: لله المنة من قبل ومن بعد، أبشر يا أمير فلقد اقترحت اسمك في تنفيذ مهمة لو نجحت لسدتَ بها وسدتُ أنا معك، وكان لنا في هذه الدولة شأن عظيم نحن أحق به من غيرنا.

في دهشة تساءل أمير: وكيف هذا يا سيدي؟

قال أبو إياد: مطار الطبقة ما معلوماتك عنه؟

قال أمير: كل ما أعلمه أنه أقوى مطار للجيش السوري، وبه مخزن أسلحة كبير، ومنه تنطلق الطائرات التي تقوم بالقذف على المواطنين، ولقد صعب علينا وعلى غيرنا اقتحامه رغم المحاولات الكثيرة، فهو مؤمّن على أعلى درجة، ورغم إحكام سيطرتنا على الرقة إلا أن هذا المطار وما حوله لا يزال خارج نطاق سيطرتنا.

قال أبو إياد في حزم: لا بد أن تعرف أن هذا المطار يشكل خط الإمداد الرئيسي لكل معاقل النظام السوري في المنطقة؛ حيث يقع المطار بالقرب من مدينة الطبقة بريف الرقة الغربي، ويبعد عنها سبعة كيلومترات فقط، كما يبعد عنا بخمسين كيلومترا فقط، كما يجب أن تعرف أن هذا المطار يعتبر رابع أقوى مطارات النظام السوري، حيث يحتوي على سربين من الطيران الحربي من نوع "ميغ 21"، و"ميغ 23"، بالإضافة إلى خمس مروحيات قتالية، وخمسة مدافع ميدانية، وعدد من الدبابات والآليات، ومدافع الـ57، والرشاشات الثقيلة، وأكثر من تسعمائة عنصر من النظام، إضافة إلى ثلاثمائة عنصر هربوا أثناء "تحرير" اللواء 17.

صمت قليلا ثم قال: هل وعيت ما قلت؟

في حماس أجاب أمير: نعم يا سيدي عن ظهر قلب.

فقال أبو إياد في حزم: مهمتك اقتحامه يا أمير، فهل تستطيع عمل المستحيل.

أجاب أمير في حزم: بكل تأكيد يا سيدي.

كان قلب أمير يخفق في قوة رغم ما بدا عليه من تماسك فهو يعلم أن مطار الطبقة هو مطار الموت نفسه.

****

أدى حيدر التحية العسكرية أمام الشيخ جعفر والذي كان يطالع بعض الأوراق التي أمامه، مرت دقائق وحيدر واقف في ثبات في حين أن الشيخ جعفر كان منشغلا بقراءة الملف الذي أمامه، وما إن انتهى حتى ألقى بالملف فوق المكتب، ثم أخذ يتطلع لحيدر إلى أن قال: من مسجون.. إلى جندي في سجن تسفيرات.. إلى عملية هروب كبيرة للسجن.. ثم التحاقك بقوات الحشد الشيعي، بم تفسر هذا؟

أجاب حيدر في هدوء وثقة: أما عن سجني فهي مكيدة دُبرت لي، وقد علم مدير السجن بإخلاصي فأحسن لي، واعتبر إنقاذي له من يد أحد النواصب وتلقي الضربة عنه جميل يحمله في عنقه فأكرمني وأخرجني من السجن وعينني جنديًا به، أما عن عملية الهروب فكان في يوم إجازة قد منحني إياها مدير السجن دون حتى طلب مني، وأما عن التحاقي بقوات الحشد الشيعي فهذا واجبي الموت فداء آل البيت عليهم صلوات الله وسلامه.

انعقد حاجبا الشيخ جعفر في شده، وتطلع لحيدر بإعجاب قائلا: أحسنت الجواب، وبعد إيقاف مدير السجن عن العمل وهو صديق لي، أرسل إلي أن أحسن إليك، وهو يرى فيك أشياء متشوق أن أراها أنا أيضا.

صمت قليلا ثم قال في هدوء : من اليوم عملك معي هنا، في جيش الحشد الشعبي الشيعي، والأمر هنا جد خطير، أريد منك ثلاثة أشياء اعقلها جيدا: الوفاء، والفطنة، والتكتم.

قال حيدر بثبات وحماس: لن أخيب ظنك يا سيدي.

قال الشيخ جعفر في برودة: لا يسعك أن تخيب ظني، ولو كان فاعلم أنها نهايتك.

ابتلع حيدر ريقه بصعوبة، ثم أومأ برأسه إيجابا، وأدى التحية العسكرية، فأذن له الشيخ بالانصراف، وقبل مغادرة حيدر المكتب، قال الشيخ جعفر: أعلم ما فعله الإمام المرجع بأسرتك.

توقفت خطوات حيدر، عندما أردف الشيخ جعفر وهو يقول: حماي الإمام المرجع، فأنا زوج ابنته زهراء.

فانخلع قلب حيدر.

****

وقف أمير في وسط بعض قادة الدولة في زيه العسكري، وقد تقلبت النظرات اتجاهه بين معجب ومتفاجئ، كيف لهذا الشاب الذي لم يمر على التحاقه بهم سوى أشهر معدودة أن يقود مثل هذه العملية الضخمة؟!.

أشار أمير لتلك الخريطة المرسومة بدقة لهيكل مطار الطبقة وهو يقول: يظل هذا المطار هي نقطة سوداء في إمارة الشام، فرغم إحكام سيطرتنا على الرقة كلها لا يزال هذا المطار وما حوله خارج السيطرة.

قال أحد القادة: يا أمير، لقد بذل إخواننا وسعهم إلا أنك تعلم أن نقطة ضعفنا هو التعامل مع الطائرات العسكرية، وهذا المطار مؤمن عن طريق الغطاء الجوي والبري، ومن المستحيل أن ...

قاطعه أمير في حدة: لا مستحيل هنا، هذا المصطلح يجب عليكم نسيانه من الآن.

تطلع إليه الجميع في تعجب لحدته في الجواب، لم يتوقعوا هذه الحدة منه وهو بعد شاب، استعاد أمير هدوءه وقال: أعلم أن المهمة صعبة جدا، ولكن لو التزم الجميع

بالخطة التي سأقولها لكم الآن سيكون النصر حليفنا بإذن الله.

- وما خطتك يا أمير؟

قال أمير وقد تطلع إليه الجميع في إنصات وكأن على رءوسهم الطير:

الخطة ستكون على النقاط الآتية:

1- الميقات: سيكون هجومنا على المطار ليلا، ولن ننسحب حتى يحل النهار، وبذلك نرهق العدو طيلة الليل.

2- المقدمات: ثلاث فرق، سيتناوبون الهجمات، وستكون مهمتهم استشهادية في المقام الأول، فتهجم في ليلة ولا تتوقف حتى الصباح، ولو كان الاستشهاد سبيلها لذلك، والغرض منها إنهاك القدرات العسكرية للمطار.

3- الأسلحة المطلوبة: كل أنواع الأسلحة الثقيلة سنستخدمها في هذه الحرب من المدفعية والدبابات وصواريخ غراد، سنقصف بها المطار بشكل كثيف

جدا ليلا، لتدمير مقراته وقدراته العسكرية قبل الهجوم الأخير.

هذا ما سأكلفكم به الآن وسنبدأ بإذن الله بعد ثلاثة أيام تصطفون فيه جنودكم.

قال أحدهم: ولكن يا أمير ماذا عن الهجوم الأخير؟.

رد أمير بلا مبالاة: الهجوم الأخير ومتطلباته سأنبئكم به قبله.

بعد شرح أمير لخطته وجوابه الأخير علموا أنهم أمام قائد عسكري داهية وليس مجرد شاب حدث.

****

- أبو إياد وصنيعته أمير أفذاذ بحق.

قال هذه الكلمات البغدادي وهو يتوسط بعض أصحابه ومستشاريه، في حين قال أحدهم: يا خليفة المسلمين، إنه لفتح عظيم من الله قد منّ على دولتنا به، فلله الحمد والمنة.

ابتسم البغدادي وهو يقول: ومن منة الله علينا أن وهبنا أمثال أبي إياد وهذا المصري، فلن ننسى فضلهم، ولا ينكر الفضل لذوي الفضل إلا جاحد.

- أمير المؤمنين، أهل للمكرمات.

التفت البغدادي لأبي إياس قائلا: ما رأيك يا أبا إياس بهذا النصر وبصنيع أبي إياد والمصري.

تنحنح أبو إياس ثم قال في هدوء: نصر عظيم، ولكنه كلفنا الكثير من الجند والخسائر، ولكنه في كل الأحوال يسمى نصرًا عظيمًا.

قال البغدادي في تعجب: أفصح يا أبا إياس عما تكنه في صدرك.

قال أبو إياس: يا سيدي، لو نظرنا للنصر مجردا مما لحق به من دماء أبنائنا وإخواننا لهو نصر عظيم بحق وسابقة أتمنى أن يكون لها لاحقة، ولكن انظر لكم الدماء التي سالت من أجل فتح هذا المطار إنها المئات.

قال البغدادي: نحسبهم جميعا شهداء، والأمر كان يحتاج فعلا أن تُبذل له الدماء، وبهذا حفظنا دماء الكثير من المسلمين؛ أطفالًا ونساءً وعجزة من قذف بشار ليل نهار لهم بالكيماويات، والآن هم في مأمن، وقد آلت مدينة الرقة كلها صافية لنا نحكم فيها بما أنزل الله، وهي سبيلنا لمدينة حمص، خصوصا وأننا

سنرسل معك للشيشاني برسالة بدخول حمص عن طريق مدينة السلمية في ريف حماة؛ فإنها الآن مذللة لنا إن شاء الله، وهي أُولى خطواتنا لفتح حمص.

قال أبو إياس في تعجب: سترسل معي أنا؟!!!

أجاب البغدادي: نعم، فأنت رجلي منذ اليوم في الشام.

تفاجأ الجميع بقرار البغدادي، في حين ابتسم أبو إياس فإن الأمر يسير كما يشتهي.

****

- لم يذهب اعتدادك بذلك المصري سدى.

قالها الشيشاني لأبي إياد والذي ابتسم وقد انتفخت أوداجه: وهل كنت تشك في بعد نظري يا شيشاني، هذا الثعلب المصري لداهية بحق.

قال الشيشاني: إن خطته في فتح مطار الطبقة لا زالت حديث الجند، في أقل من اسبوع انهى معركة يأسنا من الانتصار فيها.

قال أبو إياد في زهو: خطته كانت عبقرية بحق، تقسيم الفرق، ثم اخفاء وقت الهجوم الأخير، والذي كان بكل قوة وشراسة، ثم الإمدادات التي أمد بها الجنود فكانت الحاسمة لفتح المطار.

قال الشيشاني: ولا تنسى الأفراد ذوي البشرة السمراء الذين كلفهم أثناء العمليات الاستشهادية الاولى بالتخفي بظلمة الليل وظلمة ثيابهم، والاقتراب من سور المطار وحفر خنادق هناك أثناء انشغال الجميع بالقذف، واختبائهم في هذه الخنادق لمدة ثلاث ليالي مع قلة ما معهم من طعام، ثم دخولهم المطار في يوم الهجوم الأخير والقتال من الداخل، لهو من أهم أسباب النصر.

صمت الشيشاني قليلا ثم تساءل: من اسم ذلك النوبي الذي جعله أمير قائدا لهم؟

قال أبو إياد متأسفا: أبو إسحاق، وقد استشهد في هذه العملية تقبله الله.

هز رأسه الشيشاني مكررًا في حزن: رحمه الله.

ابتسم أبو إياد محاولا التخفيف عن الشيشاني وهو يقول: ولكن لا تنسى دوري، فلولا أن سخرت للمعركة عددا كبيرا من المدافع الثقيلة عيار 130 مع ندرتها، والدبابات وراجمات الصواريخ، بالإضافة إلى مئات المقاتلين.

استطرد عليه الشيشاني: المقاتلين المهاجرين، غير الشاميين، كما اقترحت عليك، فهم الأشد بأسا.

قال أبو إياد: النصر كله منسوب لك يا قائدنا، والأهم الآن أننا قد أنهينا اسطورة هذا المطار، وغنمنا منه الكثير من الأسلحة والطائرات التي ستكون عتادنا وقوتنا في المرحلة القادمة.

قال الشيشاني: وكيف سنكافئ صديقك المصري؟.

لم يجب أبو إياد، بل اكتفى بابتسامة هادئة، بادلها إياه الشيشاني وقد أوجس منه خيفة.

****

انطلقت الحافلة تشق شوارع مدينة الموصل، كانت الحافلة تقل مجموعة كبيرة من الطالبات الملتحقات بجامعة المدينة النسوية، كانت الطالبات جالسات في وقار وقد تلفحن

بالسواد، لا تسمع منهم سوى بعض الهمهمات وبعض الضحكات المكتومة إثر الأحاديث الجانبية بينهن، وكانت من بينهن (مرام) لا تكاد تميزها من بينهن بمجرد النظر، ولكن تستطيع تمييزها بتلك الهالة التي تحيطها من احتفاء مَنْ حولها بها، ليس فقط لأنها ابنة أحد قادة الحرب للدولة، أو كون نسبها ينتهي للحسين بن علي رضي الله عنه، وليس فقط لجمالها المشرق الهادئ الموروث من والدتها، بل لكونها ذات خلق عال وتواضع جم مع الجميع، مع كونها عزيزة المرام، كانت بشهادة الجميع ذات عقل وحكمة وحدة ذكاء، وأنفة موروثة من والدها، كانت هذه صفاتها التي يعرفها كل من خالطها، ولذا كان يتوافد على أبيها الخطاب، من أبناء كبار رجال الدولة، ولا زالت متمنعة متعللة بدراستها وطموحاتها المستقبلية، إلا أن السبب الرئيسي لتمنعها هي صورة من الخيال عاودت زيارة أحلامها الفينة بعد الفينة، صورة لذلك الفارس الذي يمتطي فرسه فيواجه كل الصعاب والأخطار والأهوال ليحوذها، رغم أنها ترى طفولية الحلم إلا أنها ظلت أيامها متمسكة به آملة أن يتحقق، وما يعيبها أن أرادت أن تُحِب وتُحَب، ألم يشفع

رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما لمغيث عند بريرة وقد تمكن هواها من قلبه، ولم ينكر عليه ذلك أو يزجره وتأخير البيان عن وقت الحاجة لا يجوز، ألم يقل رسول الله صلى الله عليه وسلم: لا أجد للمتحابين سوى النكاح، هكذا هي وهكذا قلبها، كان والداها يكثران اللوم على أنفسهما من أنهما تركاها تكثر من قراءة الروايات في صغرها، وقد كانا يرجعان أمر خيالاتها وعزفها عن الزواج إلى ذلك، ولكنهما رغم ذلك فقد كانا فخورين بابنتهما وبتربيتها على هذا النحو، وها هو أول يوم لها في كلية الطب التي افتتحتها الدولة.

أسندت مرام رأسها على الكرسي وأغمضت عينيها، وقد بدأ هواء جهاز التكييف في ملامسة جسدها المتعب فأحست بخدر لذيذ يجتاحها، فاستسلمت له دون مقاومة، كان كل شيء هادئًا في طريق العودة للمنزل، إلا أن الرياح تأتي بما لا تشتهي السفن، انتفضت مرام في فزع على صوت انفجار يليه صوت صرخات الفتيات، حاولت تمييز ما يحدث إلا أن الدخان والأتربة حالوا دون ذلك، كانت الصرخات شديدة، لم تعقل ما يحدث إلا بعد أن سمعت صوت طلقات الرصاص

تخترق الحافلة من كل الاتجاهات، فهتفت في صوت عال: اخفضن رءوسكن، أسفل المقاعد.
فاستجاب الجميع لندائها سوى السائق الذي كان يسبح في دمه، وما إن توقفت طلقات الرصاص، وهدأت الجلبة سمعن وقع أقدام تقتحم الحافلة، وسمعن صوت أجش يأمرهن أن يهبطن من الحافلة فورا وإلا كان مصيرهن القتل.
فكانت مرام أول من رفع رأسها، وأمرت الجميع بالنزول، وما إن هبطوا من الحافلة، حتى وجدوا أمامهم مجموعة من جنود من الحشد الشعبي الشيعي وقد أحاطوا بالمكان، وإذا بقائدهم يتجه إليهن وهو يهتف في حزم: هيا أيتها العاهرات، اصعدن هذه السيارة الكبيرة.
فقالت له مرام في حدة: اتق الله يا هذا، نحن نساء فكيف تعاملنا على هذا النحو.
مشى الرجل إليها وما إن اقترب حتى رأى حدة نظراتها إليه فأمسك ببندقيته ثم رطم بها رأس مرام، والتي سقطت غائبة عن الوعي.
****

استقبل الشيشاني وأبو إياد، أبا إياس في حفاوة بالغة، وأشار الشيشاني لهما بالجلوس فجلسا، فابتدر الشيشاني الكلام قائلا: لقد وصلتني رسالة من أبي بكر البغدادي خليفة المسلمين توصيني بك خيرا، وأنه قد عينك مستشارا له بدلا من مستشاره السابق، فمبارك عليك المنصب.

قال أبو إياس : إن خليفة المسلمين حسن الظن بي، وإنه والله لتكليف لا تشريف، إلا أن أفضل ما في الأمر أنني سأعمل تحت قيادتكم، وإنه لشرف لي عظيم، خاصة على ما كان بيننا من الود القديم في محاولة الصلح بين المجاهدين ووقف الدماء، ولعل غايتنا تتحقق الآن ونحن نعمل في معسكر واحد.

تساءل أبو إياد: ماذا تقصد يا أبا إياس؟

أجاب أبو إياس: أقصد أنني أحارب مع الشيشاني في نفس الجهة وهي درء دماء المجاهدين وحفظ أرواحه وتوحيد الصف، و...

قال الشيشاني في لهفة: وماذا؟

ترددت نظرات أبو إياس بين الشيشاني وأبي إياد ففهم الأخير أنه متحرج من الكلام لوجوده فقام وقد بدا الضجر في ملامحه ثم قال: أستأذنك يا شيشاني فلدي عمل هام الآن.

هز الشيشاني رأسه بإذنه بالانصراف، وما إن اختفى ظله حتى قال الشيشاني : ها قد انصرف أبو إياد، فما الذي تريد قوله؟!

قال أبو إياس في صوت منخفض: لقد كانت آخر مهمة موكلة لي مع الشيخ أبي خالد السوري تقبله الله من الشهداء هي القدوم عليك والتنسيق فيما بيننا على بيعتك إماما هنا على جبهة النصرة ومع قواتك، وبذلك نوحد صف المجاهدين في الشام، حتى نالتنا يد الغدر والله شهيد على هذا.

صمت أبو إياس ليرى أثر كلامه في نفس الشيشاني ثم واصل قائلا: الحلم لا زال قائما، وسنحققه سويا، سنحاول جمع صف المجاهدين تحت راية واحدة وإمام واحد وهو أنت، والقيادة في القاعدة مؤيدة جدا لذلك، ولهذا لم أخبر البغدادي بما كان بيننا من تعاون سابق، ولقد علمت أنه هو ناقم عليك لاتهامك في قتل حجي بكر، وأعلم يقينا أنه

ما أرسلني هنا إلا لضربك بي، ظانا منه أنني أطمع بما في يدك، قد خاب وخسر ظنه، إنما أنا سيفك ومستشارك لجمع الصف وتوحيد الكلمة.

تفاجأ الشيشاني بما قاله أبو إياس، لقد أذهب كل تخوف كان منه اتجاهه، فقد شعر في لهجته الصدق وحسن الغاية؛ ولذا قال في لهفة: وكيف يا أبا إياس نستطيع أن نحقق هذا الحلم وهناك قوتان تحولان بيننا وبينه: البغدادي من جهة، والجولاني من جهة أخرى.

أجاب أبو إياس وقد علته ابتسامة: هذا ما أخذت أقلبه في عقلي طول طريقي من العراق إلى هنا، فما وجدت سوى حلا واحدا.

قال الشيشاني : وما هو؟!

قال أبو إياس: لا سبيل لنا الآن سوى رفع ذكرك بين الجند هنا حتى لا تكون ثمة مهمة مستحيلة إلا خضتها أنت بنفسك فبهذا سيشتد ارتباط الجند بك، ويعلو شأنك في الدولة كلها.

في اندهاش قال الشيشاني: وما الغرض من هذا؟

قال أبو إياس: الدولة يا سيدي ليست البغدادي فقط، هناك مفاصل كثيرة بالدولة رفع ذكرك وسط هؤلاء سيحرج

البغدادي جدا لو حاول تأخيرك أو قام بإيقافك، وهو المطلوب ولو لفترة .

قال الشيشاني وقد بدت الفكرة تروقه: هذا جانب الدولة، وجانب الجبهة؟

قال أبو إياس: كما قلت لك يا سيدي القاعدة كلها مع توليك الأمر هنا، أما الجولاني وجنده فدع الأمر لي فإن لي معهم شأن آخر.

تنهد الشيشاني في حيرة ثم قال: والآن من أين نبدأ؟

أجاب أبو إياس: أولا لقد أرسل لي البغدادي برسالة أحببت أن أؤجل إبلاغك بها، لقد أصدر أمرا بالتحاق أبي إياد بمجلس الحرب.

- أبو إياد؟!!!!!

قالها الشيشاني في تعجب، في حين قال أبو إياس في حزم: وذلك لتعلم القريب منك من البعيد، لقد نما لعلمي إن فتح مطار الطبقة الذي قام بها ذلك المصري قد عدت من حسنات أبي إياد فهو صنيعته، ولذا رأى الجميع بترقيته ليصير عضو في مجلس حرب الدولة.

قال الشيشاني في حنق: ولكن هذا المجلس لا يدخله إلا من قدم الكثير للدولة، أينضم أبو إياد له لمجرد أنه أبقى على حياة المصري؟!!!

قال أبو إياس: يا سيدي، الواضح أن أبا إياد له علاقة وثيقة بالبغدادي، وإلا فلم قدمه على غيره.

قال الشيشاني: لنا غرم الحرب ولهم غنمه.

قال أبو إياس: لعله خيرًا يا سيدي، فبهذا تعرف من هم رجالك، وهذا يؤكد ما قلته لك منذ قليل من وجوب إحراز انتصارات جديدة تُنسب إليك، لا للرياء أو الرئاسة، بل للصالح العام ولهدفنا.

قال الشيشاني: لك هذا يا أبا إياس، فما البداية من وجهة نظرك؟

- **حمص يا سيدي.**
- **حمص؟! ما الذي تقوله يا أبا إياس، إنه أقوى المناطق التي تحت سيطرة النصيرية.**
- **ولهذا يا سيدي هي بالذات.**

احتقن وجه الشيشاني وهو يتمتم : ما هذه الألغاز؟! جلِّ ما تريد.

قال أبو إياس في خفوت: عندما كنت في جبهة النصرة، كانت حمص هي هدفنا، ضربة موجعة للنظام النصيري، تمحو أي إخفاق سبقه، ويهون للجميع أي مجد سبقه بما فيه مجد فتح مطار الطبقة.

مط الشيشاني شفتيه وقال: ولكن هذا الأمر انتحاري بكل ما تعنيه الكلمة.

صمت قليلا ثم استطرد: ولكن هل المجد يُطلب إلا بكل ما هو انتحاري.

ثم التفت إلى أبي إياس وقال: يا أبا إياس، أحسنت النصيحة، وإن قدومك هنا لفتح عظيم، فجزاك الله عني خيرا.

ابتسم أبو إياس، فقد كان كل شيء يسير حسبما يريد.

****

اجتاح ذلك الصداع الشديد رأس مرام أثناء استعادتها لوعيها، فتأوهت في تعب، وما إن فتحت عيناها في صعوبة بالغة، حتى رأت على رأسها مجموعة من زميلاتها في الكلية قد تحلقن حولها، وبعد أن ظلت لثوانٍ محاولة استيعاب ما حدث، أخذت تقلب وجهها يمنة ويسرى، في تلك

الزنزانة الصغيرة التي امتلأت بالفتيات والنساء، كانت الرائحة عطنة جدا، لدرجة أنها كتمت أنفها بيديها، ولم يكن ثمة صوت سوى صوت نحيب النساء، تساءلت مرام: أين نحن؟

فأجابتها إحدى صديقاتها: نحن هنا في إحدى سجون الرافضة منذ يومين.

- يااااه يومان، هل ظللت أنا على هذا الوضع لمدة يومين.
- نعم يا مرام، ولقد ظننا ذلك الحقير قد قتلك إلا أن الله سلم.

تساءلت مرام : وماذا حدث بعد أن ضربني ذلك الوغد.

قالت صديقتها: قاموا بحملك وألقوك في مقطورة السيارة، وأمرونا بالصعود أيضا، حاولت إحدانا الفرار إلا أن طلقاتهم قد نالتها، فصعدنا مستسلمات، ولو كنا نعلم أن هذا ما سيحدث لكان الموت خيرًا لنا.

انفجرت الفتاة في بكاء شديد تشارك باقي من في تلك الزنزانة، فهدأتها مرام وقالت متسائلة: وما الذي حدث؟! أخبريني رحمك الله.

لم تقو الفتاة على الكلام، بل غطت وجهها واستمرت في البكاء، فنقلت مرام نظرات التساؤل بين الفتيات حتى جمعت إحداهن قوتها وقالت دافعة بكاءها: لقد اغتصبونا يا مرام، لقد اغتصبونا واحدة تلو الأخرى.

لم تتحمل الكلمات ثم عادت للبكاء مرة أخرى، أما مرام فقد فغرت فاها، لم تتمالك نفسها من الصدمة، خصوصا بعد ملاحظتها تلك البقعة الداكنة من الدماء التي لطخت ثوبهن الأسود.

وفجأة سمعت صوت أزيز الباب الموصد وهو يفتح، فقالت إحداهن لها آمرة: لو علموا أنك استعدت وعيك فسيكون مصيرك نفس مصيرنا، فعليك بادعاء الإغماء حتى يخرجوا.

فاستجابت مرام، واستلقت على الأرض، وقد أرخت جفونها إلا قليلا، لترى ما يحدث، فإذا بخمسة رجال ضخام يدخلون الزنزانة وقد تعروا من ملابسهم تماما، لم يعبئوا بصرخات الفتيات والتوسلات، بل قال أحدهم: من عليها الدور اليوم.

صمت وهو يقلب عينيه حتى وقع بصره على إحداهن، فقال: أنت لم أذق عسلك البارحة، سترين اليوم مني ما سيبهرك.

ثم عمد إليها فدفعته عنها بكل قوتها والتي سرعان ما وهنت وفترت أمام فتوته وقوته ثم مارس ما جاء له، ولم يكن منها سوى الدموع ودعاء الله بكشف الكرب، وقد كان من أصحابه ما كان منه، حتى إذا فرغوا دخل غيرهم وكان منهم ما كان من سابقيهم، كانت ليلة لا يعلوا فيها سوى صوت الصرخات والتوسلات، ولهث أنفاس الشهوة وقطرات العرق المنصب، ورائحة دماء العذارى، ودموع مرام التي كانت تراقب كل هذا.

****

دلف أمير إلى غرفة أبي إياد الذي استقبله في حفاوة اندهش منها أمير، فقال أمير في دهشة: ما الأمر يا سيدي، لم أعهد مثل هذه الحفاوة.

ابتسم أبو إياد وقال: وكيف لا أحتفي بك وأنت سبب سعدي.

لم تزل دهشة أمير وهو يقول: أنا ؟! كيف؟!

قال أبو إياد وهو يربت على كتف أمير: نجاحك في مهمة فتح مطار الطبقة، دل أمام الجميع على حسن تدبيري في الإبقاء عليك؛ ولذا قرروا ترقيتي لألتحق بالمجلس العسكري للدولة.

رفع أمير حاجباه في دهشة وقال: لا أظن أن هذا هو السبب الوحيد لذلك يا سيدي، فكما علمت أن المجلس العسكري للدولة لا يلتحق بها إلا من حصل على ثقة البغدادي.

رمقه أبو إياد في غضب مصطنع قائلا: أتظن أني لا أستحق ثقة البغدادي.

هز أمير رأسه نافيا ثم قال: يا سيدي ما هذا عنيت، ولكن...

ضحك أبو إياد قائلا: أعلم ما تقصده، إنك لذكي جدا، لا أنكر أن هناك أسباب أخرى ضمنت لي مقعدي في المجلس العسكري.

تطلع إليه أمير في تساؤل، فقال أبو إياد: لا تتعجل يا صديقي، فأنت تدري أنه من الخطأ في عالمنا كشف كل الأوراق، ولكن كي أريح بعض فضولك، فقد كُلِّفت بمهمة التحاق أبي إياس بالدولة، ونجحتُ في ذلك.

اتسعت عينا أمير في دهشة شديدة وتلجم لسانه في حلقه فلم يستطع النطق إثر المفاجأة، فقد أدرك أنّ أبا إياد هذا هو أخطر رجال الدولة وأشدهم مكرًا.

قاطع أفكاره أبو إياد وهو يقول: سأسافر للعراق اليوم بإذن اللّه، استعد أنت أيضا للسفر.

قال أمير في تعجب: أنا؟!

قال أبو إياد في لا مبالاة: نعم فإن البغدادي قد كلفك بمهمة عظيمة هناك.

ساد الصمت للحظة قبل أن يردف أبو إياد: لقد بتنا يا صديقي أهم رجلين في الدولة الآن، وهذا سييسر سبيلنا لحلمنا.

****

- {أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ (39) الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (40) الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ (41)} قد صدقنا الله وعده، ونشهد الله أننا قد أعددنا ما تيسر لنا من العدة، وننتظر موعود الله لنا بالنصر، فما النصر إلا من عنده، فتوبوا إلى الله جميعا أيها المسلمون، فنحن قادمون على إحدى الحسنيين إما

النصر وإما الشهادة، نسأل الله أن يتقبل منا أنفسنا وأموالنا.

أمّن الجميع أمام كلمات الجولاني الحماسية، وقد التف الجند حوله، كانت معركته لهيب العاصفة كما أسماها هي المعركة الفاصلة له في فتح على الجانب الشرقي من ريف حمص، وبهذا يعيد سلسلة الانتصارات التي توقفت منذ زمن، وبها يعيد أمجاد جبهته التي كادت تُنسى.

كبر الجنود، واصطفوا في مجموعات كما أُمروا، منتظرين إشارة الهجوم، وأخذ الجولاني ومساعديه يمرون على الصفوف يُلهبون من حماسهم، المتّقد منذ البداية، فمشاركة الجولاني لهم في هذه المعركة كانت كافية لعلو همتهم واتقاد رغبتهم في النصر.

رفع الجولاني يده معلنا بدء الهجوم، فكبر الجند، وانطلقت المجموعات كما أمرت في حركات مدروسة، اتجاه المعسكر السوري المتواجد على أطراف المدينة، وبدأت الحرب، كانت حربًا بكل ما تعنيه الكلمة، تبادل الطرفان إطلاق النيران، وكانت قوات الجولاني تتقدم اتجاه المعسكر، وما إن صارت على بُعد أمتار وكشفت الحرب

عن ساقها، أمسك الجولاني بجهاز اللاسلكي، قائلا: فرقة المدفعية تتقدم.

كان من المتوقع أن تطلق المدفعية قذائفها لتوقف تقدم الجيش المعادي فور تلقيهم الأمر من الجولاني، إلا أن شيئا لم يحدث، كرر الجولاني أمره مرة واثنتين وثلاثة ولا شيء، حتى فوجئ الجولاني بصرخة أحد جنوده: خياااااااااااانة.

حتى علم أن فرقة المدفعية قد تركت مواقعها وأنه الآن صار وجنده لقمة سائغة لجنود بشار، وأنها النهاية.

إلا أنه صرخ في جنده قائلا في حماسة: أبشروا بجنة عرضها السموات والأرض، قاتلوا قتال يائس من الدنيا، مقبل للقاء ربه.

وبدأ القتال غير المتكافئ.

****

أخذ أبو جندل يتطلع إلى أمير الذي كان ممتثلا أمامه في ثبات، وقد لمح تلك التساؤلات التي كانت على محيا أمير، فاعتدل أبو جندل وهو يقول: يا أمير، لقد زكى الجميع لي

ذكاءك وفطنتك وإقدامك، وإن سابقتك معنا في فتح مطار الطبقة، لجعلاني أختارك في هذه المهمة الصعبة.

قال أمير: وأنا رهن إشارتك يا سيدي.

ظهر الحزن على ملامح أبو جندل وهو يقول: لقد أسر هؤلاء الأنجاس مجموعة كبيرة من فتياتنا، ومنهم ابنتي مرام، أتدري ما معنى هذا.

قال أمير: نعم يا سيدي، إنها لطعنة كبيرة لدولتنا، ولا بد لنا من الإسراع في تحريرهن.

قال أبو جندل في قهر: المشكلة أننا لا نعرف حتى الآن أين احتجزوهم، حاول رجالنا معرفة أماكنهم ولكنهم فشلوا في ذلك.

عقد أمير حاجباه في دهشة، ثم قال: وطبعا عامل الوقت هو ما يلعب عليه الرافضة، والله أعلم ما حال فتياتنا وهن بين أيديهم.

هز رأسه أبو جندل في أسى قائلا: صدقت يا أمير، فما الحل من وجهة نظرك، إني أعول على حدة ذكائك وفطنتك.

ظل أمير صامتا يفكر، وأبو جندل يراقبه في صمت، حتى قال أمير في حماس: يا سيدي، سمعت عن هروب بعض مساجين سجن تسفيرات.

قال أبو جندل في لا مبالاة: وما في هذا، هل تظن أنهم قد أخذوهم لسجن تسفيرات.

قال أمير: لا يا سيدي، ولكن كيف لهؤلاء أن يهربوا من سجن تسفيرات مع الحراسة المشددة عليه على حسب ما علمت.

قال أبو جندل: يقال أنه قد أعانهم على هذا أحد الجنود، ليس لدي معرفة بتفاصيل ما حدث هناك.

قال أمير: فلنبدأ بالوصول لهذا الجندي فأظن أنه الوحيد القادر على مساعدتنا.

بدأ الأمل يتسلل لنفس أبي جندل والذي قال في حماس: سأصل إليه اليوم إن شاء الله قبل الغد.

ثم أمسك بهاتفه قائلا لمساعده: استدعي لي السامرائي الهارب من سجن تسفيرات فورا.

ثم أغلق هاتفه ونظر إلى أمير وقد تغيرت ملامحه أثر الفرح قائلا: إن نجح هذا الخيط في إيصالنا لمكان الفتيات سيكون لي شأن آخر معك يا أمير.

قال أمير في ثبات: إن شاء الله سيقودنا هذا الخيط لهن، ولو شرفتني بقيادة حملة تحريرهن أكن لك من الشاكرين.

قال أبو جندل: سيكون ما أردت، سينالك خير عظيم معنا هنا في العراق إن شاء الله.

ابتسم أمير في ثقة، فقد كانت مكانته في الدولة تزداد ثباتا يوما بعد يوم.

****

أخذ السامرائي يقلب عينيه في أركان بيت حيدر، وقد ملكته الدهشة والإعجاب، ثم التفت لحيدر الذي كان يراقبه وقال: وأخيرا يا حيدر، قد من الله عليك بالخير، ألم أقل لك في ذلك الوقت، إنها محنة وستزول.

قال حيدر: أمي وأختي كيف حالهما.

قال السامرائي: هم في أمان وخير، عهدت لإحدى زوجتي بالقيام بشئونهما، والإحسان إليهما وعهدت

للأخرى بدعوتهما لمذهب السنة، والتحقت فاطمة بإحدى المدارس عندنا لتواصل تعليمها.

ربت السامرائي على كتف حيدر وهو يقول: لا تقلق يا صديقي، فإنهما في أماننا وهن الآن من حرماتنا.

ابتسم حيدر، ثم قال: لعل تكلفك عناء الطريق ومصاعبه، والإتيان إلى هنا مع خطورة ذلك عليك وعلي، ليستحق كل هذا.

قال السامرائي: جئتك لثلاث:

أما الأولى، فعن مكان النساء اللاتي اختُطفن، عجزت الدولة عن استيضاح المكان الذي اختطفن فيه.

رد حيدر في سرعة: ما علمته الآن أنهن في سجن الكاظمية.

ابتسم السامرائي وهو يقول: جيد جدا، وأما الثانية فعن الشيخ جعفر وجون الأمريكي، فقد علمت من قريب أن هؤلاء قتلة أخي، ومختطفي زوجته وأولاده.

رجع حيدر للوراء وقال في دهشة: الشيخ جعفر، قائد الحشد الشعبي الشيعي.

قال السامرائي: هو بعينه، أريد رأسه يا حيدر ومعه ذلك الأمريكي الحقير.

قال حيدر: أنا الآن أعمل تحت قيادته، والأمر ليس بهذه السهولة، الأمر يحتاج لإعداد وحسن تدبير.

قال السامرائي: ولقد نما إلي أنه متزوج من ابنة الإمام المرجع زهراء، أليست هي هي ؟

قال حيدر في أسى: نعم، هي.

ابتسم السامرائي، وهو يقول: أراك لا زلت في ضلالك القديم.

ابتسم حيدر قائلا: قلبي ليس به سوى الانتقام.

قال السامرائي: وأما الثالثة فهي رقيك في مراتب أعلى داخل جيش الحشد الشيعي.

قال حيدر: وكيف؟

وهنا بدأ السامرائي في شرح خطته لحيدر...

****

رن هاتف مكتب أبو جندل وقد رد عليه في سرعة ولهفة، وما إن استمع للطرف الآخر حتى ارتسمت عليه ابتسامة

ظفر، ثم أغلق الهاتف، والتفت لأبي إياد وأمير الذين كانا جالسين معه في مكتبه قائلا:

قد أتانا رد حيدر الجندي العراقي، بأن الفتيات في سجن الكاظمية الآن.

قال أبو إياد في حماس: الحمد لله الذي هدانا لهن.

قال أبو جندل موجها كلامه لأمير: ها قد حانت مهمتك، والله إنك اليوم لدي مكين أمين.

وقف أمير في ثبات قائلا: أنا رهن إشارتك يا سيدي.

تناول أبو جندل ورقة وأخذ يكتب عليها، وما إن انتهى حتى تناول ختمه ودق بها الورقة، ثم ناولها لأمير قائلا: هذا تفويض مني لك باستخدام ما شئت من عدة وعتاد لهذه المهمة، وعليك باصطفاء الجنود من الفرقة (7) فهي الأقوى هنا في ولاية العراق.

ثم وجه كلامه لأبي إياد قائلا: يا أبا إياد، أحسن إعداد أمير وإعداد هذه الحملة، وفقكم الله.

تناول أمير الورقة، واستأذن وأبو إياد وخرجا من المكتب، كانا يسيران في صمت فقطعه أبو إياد قائلا: أحسنت يا أمير، لا زالت تفاجئني أنا فخور بك.

قال أمير: أنا صنيعتك يا سيدي، وأي نجاح أحققه هو منسوب لأعمالك.

ربت أبو إياد على كتف أمير قائلا: جيد جدا، ولكن لا يزال أمامنا عمل آخر شاق يجب البذل لتحقيقه.

لم يفهم أمير مراد أبي إياد ولم يحاول الفهم أو الاستفهام، بل اكتفى بابتسامة مصطنعة، فقد كان عقله يدبر في هذا التوقيت طريقة تحرير الفتيات من هذا السجن.

الفصل الثاني عشر

مواقف أخرى

جلست زهراء أمام المرآة وهي تتزين، وقد كانت ترمق انعكاس صورة زوجها الممدد خلفها من المرآة الفينة بعد الفينة في اشمئزاز، لم يمر سوى بضعة شهور على زواجها من القائد الشيخ جعفر، كان الجميع يحسدها وقتها على هذا الزواج، هي نفسها كانت في منتهى السعادة، إلا أنها كانت سعادة زائفة، من أول ليلة كانت بينهما حتى اكتشفت أنها قد تزوجت شخصًا لا يمت للإنسانية بصلة، فقسوته، وجفاؤه، وأنانيته، وشذوذه، كل شيء لا يدعوها سوى للنفور منه، قد وأد من أول لقاء بينهما كل أحلامها وأمانيها، ولم يقتصر الأمر على هذا، بل عودته كل ليلة مخمورا، تملأ ملابسه روائح نسائية، أمر جعل حياتها معه مستحيلة، حاولت طلب الطلاق منه إلا أن كل من تعرف وقف حيال ذلك، والكل اتهمها بالجنون كيف لها أن تطلق من رجل كهذا، أما هو

فكان دفاعه عن نفسه حين واجهته أنها لا تشبع رغباته؛ لبرودها فلذا يلتمس ذلك عند غيرها.

كانت حياتها أشبه بالكابوس، الوقت يمر ببطء فيها، ولا تستطيع أن تستيقظ.

– حيدر

رددت اسمه في نفسها، لعل ما يحدث معها عقوبة لما فعلته به، هذا الشاب الذي كان والها بحبها، أمينًا عليها، لم يمسها بسوء حينما أتيحت له الفرصة، بل ردها مصونة لبيتها، وتحمل مغبة ذلك، خفق قلبها وهي تتذكره، هل يا ترى أحبته، أم تجد في ذكراه سلوى لما هي فيه الآن.

هيا يا زهراء ألن تأتي للنوم.

قالها الشيخ جعفر وهو يرمقها رمقة شهوانية، قامت على فورها من مكانها وتحركت نحوه وكأنها تُساق إلى الموت، وما إن تمددت بجواره، حتى أغمضت عينيها أثناء ممارسته لطقوسه اليومية بجسدها.

****

- أحسنتم فعلا وأجدتم ... هذا هو خير انتقام لدماء أبي خالد السوري.

قالها أبو إياس، وهو جالس مع بعض الفلول من جيش الجولاني كما بدا ذلك من ملابسهم العسكرية التي تحمل شعار جبهة النصرة.

قال كبيرهم: يا أبا إياس، والله ما فعلنا ما فعلناه خيانة لصحبنا من جبهة النصرة فهم خير الجنود دينا وخلقا وإقداما، ولكن إحراجا للجولاني وتنبيها له من تلك الأعمال التي نمت إلى أسماعنا من قتل أبي خالد السوري، والشروع في قتلك، ثم إلصاق التهمة بدولة البغدادي، ثم تمييزه بين جنود الشام وباقي الجنسيات الأخرى، والله إنها لدعوى الجاهلية ليست من الإسلام في شيء.

قال آخر: يا أبا إياس، وأكثر ما أوغل الصدور هو تعاونه مع بقية فصائل الجيش الحر من الليبراليين والعلمانيين وغيرهم، ونحن لم نهاجر من بلادنا لذلك؛ بل لإقامة شرع الله عز وجل، وهذا لم يكن في أي مدينة فتحها الله علينا، بل القوانين كما هي قوانين وضعية.

قال ثالث: يا أبا إياس، تصريحه الأخير كان كالقشة التي قصمت ظهر البعير، حيث قال: إن قتالنا ومهمتنا تنتهي بسقوط بشار.

سبحان الله!!! نسقط بشار وليتمكن من أراد... نقدم نحورنا ودماءنا وأموالنا فقط ليسقط بشار، لا والله لن يكون ما أراد.

قال أبو إياس : وما رأيكم في دعوة الإسلام بالوحدة لا تفرقة حزبية أو عرقية، ما رأيكم في غاية توحيد أمة الإسلام تحت راية: لا إله إلا الله محمد رسول الله، ورؤية واضحة لتحكيم شرع الله عز وجل، وقوةٍ يخشاها الجميع تمهد لذلك، و............

قاطعه كبيرهم قائلا: يا أبا إياس لعلك تقصد دولة البغدادي؟!.

قال أبو إياس في حزم : بل دولة الإسلام.

قال كبيرهم: والله يا أبا إياس، إن في القلب منها شيء، وإن كان فيها ما قلت إلا أنك لم تذكر بعض مساوئها، ولا أظنك غافلا عنها : تكفيرهم مَنْ يعارضهم، قتلهم الناس

والبطش بهم بالشبهة، قتالهم لإخوانهم المجاهدين، وغير ذلك مما لا يخفى على أحد.

أخذ أبو إياس يفكر مليا ثم قال: يا أخي بارك الله فيك، لم أنس ما قلت والله إنه لحق عندي، ولكن هل أذنتم لي بتوضيح بعض الأمور.

أومأ الجميع رءوسهم بالموافقة، فقال أبو إياس: والله يا إخوة إنها السنن، سنن السابقين في صنع ممالكهم ودولهم، هل تتذكرون بني أمية كيف قامت دولتهم؟ لقد قامت على دماء خير البشر بعد الأنبياء دماء الصحب الكرام، وهل تتذكرون بني العباس، السفاح، وأبا مسلم الخرساني، كيف بطشوا ببني أمية وسفكوا الدماء بالشبهة، ثم أقاموا دولتهم على دماء بني أمية، هكذا الدول تبدأ شرسة قوية؛ إرهابا لأعدائها، فالخائف مخوف، حتى إذا تمكنت واستتب لها الأمر وقضيت على مخالفيها، بدأت في صناعة الدولة الحقيقية، وكما قيل: الآمن مؤمن.

تفحص أبو إياس وجوه القوم، ثم واصل كلامه : ولعل قائلًا يقول: وما لنا وبني أمية وبني العباس وهم على غير منهاج النبوة؟

وجوابي: أن الأمر الآن مختلف، فكل هؤلاء قد أقاموا دولهم على خلافة تسبقهم، أما الدولة الإسلامية فعلى من تقوم، على أمة متفرقة متشرذمة يحكمها الغرب كما أراد، وقد تفشى الظلم في جنباتها ونُحيت الشريعة، واحتُلّت أراضيها، وتفشى القتل والقهر بين أفرادها.

أليس كل هذا شفيع لبعض التجاوزات التي تحدث الآن.

وقبل أن يتلقى جوابًا منهم أردف قائلا: وأما عن التكفير، نعم منهج التكفير وعدم العذر بالجهل منهج متفشٍ في صفوف جنود الدولة، ولكني أُشهد الله أن البغدادي ليس منهم، وأن سكوته عن أمثالهم الآن لتوحيد الصف وجمع الكلمة، ولقد علمت من البغدادي أنه قد أمر بتنحيتهم عن أي منصب من مناصب الدولة الكبار، وهم مجرد سيف في يده يضرب به أعداء الدولة، وهم على كل حال خير من العلمانية واليسارية وغيرها من المناهج المحاربة للإسلام.

وقع كلام أبي إياس في نفس الجميع ووافق ميل قلوبهم، ولذا أشاد الجميع بكلام أبي إياس، حتى قال أحدهم : نحن معك، وسنبايع من تبايع.

ابتسم أبو إياس وقال: وهذا ظني بكم، واعلموا يا إخواني أن ما ذكرتموه من مسالب للدولة سأجنب نفسي وإياكم منها ما وسعنا الأمر لذلك، وسنجتهد ما وسعنا الله أن نصلح ما فسد من أمرهم، والله على ما أقول شهيد.

قام الجميع واتجهوا لأبي إياس مبايعين البغدادي كخليفة للمسلمين وما إن انتهوا، حتى قال أحدهم: والشيشاني أين هو، فإنا مشتاقون لرؤيته.

أجاب أبو إياس بلا مبالاة: هو الآن في ساحات قتال، أعانه الله.

أمّن الجميع على دعاء أبي إياس، وقد بدا للجميع أن أبا إياس صار أمير ولاية الشام الآن، وأن مقاليد الأمور صارت بين يديه.

وقبل أن ينصرفوا سألهم أبو إياس: وكيف حال الجولاني الآن بعد انسحاب الكثير من جنوده.

قال أحدهم: لقد نجا بأعجوبة هو وبعض من معه، وأما الباقي فأسأل الله أن يتقبلهم من الشهداء.

وأمّن الجميع، وانصرفوا.

****

ـ إنها تدعي الإغماء هي في كامل وعيها.

قال طبيب سجن الكاظمية هذه الكلمات، ثم بادر بالخروج من الغرفة، وهنا اتجه أحد الجنود حيث تستلقي مرام، فلطم وجهها في قوة، فصرخت من فرط الألم، فصرخ فيها الجندي: أيتها البغي هل ظننت أنك ستخدعيننا، اليوم سيتناوب عليك كل الجنود هنا، حتى تفقدي الحياة.

ثم ظل يضربها في كل أنحاء جسدها، حتى سقطت أرضا، فتناوب وبعض الجنود ركلها.

كانت صرخاتها وسبها لهم يزيد من فعلهم، وأثناء انشغال الجميع بضربها تنحى أحد الجنود وقام بخلع ملابسه وهو يقول: وسأكون أنا البادئ بك، فللعذارى متعة لا يضاهيها متعة.

أفسح له الجميع وما إن رأته مرام الغارقة في دماءها حتى حاولت القيام والفرار، إلا أن بعضهم أوقفها وأمسك بها، حاولت التنصل إلا أنهم قد قاموا بتكتيف أطرافها الأربع، ليهيئوها لصديقهم، ولكنها لم تفتر عن نفض جسدها ومحاولة الإفلات، حتى نالتها لكمة قوية في رأسها فبدأت الدنيا بالدوار من حولها، ولان جسدها، فمد الرجل يده لينزع

ثيابها، إلا أنه دوى انفجار هائل ارتج له المكان، وعلى إثره سقط الجنود المحيطون بمرام بجانبها، وقبل أن يستوعبوا الموقف تلاه انفجار آخر هائل اهتزت له الأرض، تعالى الصراخ من كل مكان، واستعاد الجنود انتباههم وتناولوا أسلحتهم ناحية الصوت حتى الجندي العاري فعل ما فعلوا، ولم يبق في الغرفة سوى مرام، والتي أغمضت عيناها ولسانها يلهج بحمد الله، كانت صوت طلقات الرصاص ودوي الانفجارات هي ما تسمعه، ورغم ذلك تماسكت وقامت مسرعة لتغادر المكان، وما إن فتحت الباب حتى وجدت الجحيم بعينه أمامها، كانت النيران مشتعلة وآثار الحطام والدخان تملآن المكان، فتقهقرت للوراء، وفي رعب أغلقت الباب.

- إذا فالوقت مناسب للهروب.

هكذا حدثت نفسها، ولكن كيف لها أن تعبر وسط طلقات الرصاص مع ضبابية الرؤية، أخذت تبحث حولها يمنة ويسرى، فوجدت عمودًا حديديًا قصيرًا فتناولته، كان صوت أنفاسها عاليا وقرع قلبها ينافس صوت الرصاص خارج الغرفة، اقتربت من الباب، ازداد صوت أنفاسها

وزادت دقات قلبها وهي تُخرج رأسها لتتطلع إلى ما يحدث للخارج، وفجأة اصطدمت بذلك الشاب، ولا إراديا وجهت ضربة قوية بالعمود الحديدي لوجه الشاب، كانت الضربة قوية لدرجة أنها أسقطته أرضا، وقد تأوه في ألم شديد، همت بالهروب من فوق جثته الملقاة أرضا، إلا أنه أمسك بقدمها فأوقعها أرضا، ثم نهض في سرعة وخفة، وتطلع إليها في دهشة، قائلا: ألست ابنة قائد الجناح العسكري بالدولة.

نظرت إليه في دهشة، وقالت وهي تحاول النهوض: من أنت؟

قال: جئنا لإنقاذك.

حاول مساعدتها على النهوض، بإمساك يدها إلا أنها لم تمد يدها إليه بل نهضت بنفسها، وقالت: ولكن كيف عرفتني؟!.

لم يجبها بل سحب يدها وهو يجري في سرعة، خارج المكان، وقد اعترضه أحد الجنود محاولا إيقافه فلكمه بقوة، فسقط الجندي غائبًا عن الوعي، وأكملا العدو رغم كل ما يدور حولهما حتى صارا خارج حدود السجن، في حين كانت

معركة ناشبة بين قوات الحشد الشيعي وقوات الدولة التي اقتحمت السجن، وصل الاثنان إلى مكان آمن في جانب قوات الدولة، حتى قال أحد جنود الدولة للشاب: هل أصابك أحدهم في وجهك يا أمير.

ابتسم الشاب الذي لم يكن سوى أمير وهو يتطلع لمرام قائلا: إصابة صديق.

أما مرام فكانت منشغلة بستر وجهها بتلك الخرقة التي ناوله إياها أحد الجنود، وهنا همّ أمير بالعودة داخل مقر السجن.

فهتفت مرام قائلة: يا هذا، آسفة لما حدث لوجهك، وأسأل الله النصر لكم.

لم يجب أمير الذي ولاها ظهره، متجها للسجن لاستكمال مهمته في تحرير نساء السجن.

أما مرام فقد ابتسمت وهي تقول لنفسها: أمير ... إنه اسم جميل كصاحبه.

****

سار الشيشاني وبعض من معه يتفقدون الجند في معسكرهم بمدينة حمص في ملل وسآمة، فقد طال حصارهم

لمدينة تدمر دون إحراز أي تقدم، خصوصا وأن مدينة تلبيسة التي فتحوها من قبل، قد استعادها جنود الجيش السوري، فصاروا بين المدينتين، محاصِرين ومحاصَرين، وقد أعياهم هذا مع تلك الهجمات التي تُشن عليهم ليل نهار.

قال أحد الجنود: يا سيدي، شهور ونحن على هذه الحال، أليس لهذا الأمر من آخر.

قال الشيشاني: آخره نصر إن شاء الله، ولكنكم تستعجلون.

قال الجندي: يا سيدي، ألا ترى أننا قد أخطأنا في تقدير معركة كهذه، فقد انقطعت الأخبار بيننا وبين ولاية الشام، بل بيننا وبين الخلافة، وغالبنا يرى أنه ليس ثمة مخرج من هنا، خصوصا مع انقطاع الإمدادات، وأين أبو إياس هذا ألا يأتي لنجدتنا.

قال الشيشاني في حزم: اسكت يا هذا، وانشر بين الجند أن من أراد النكوص على عقبيه والتولي عن الجهاد فهو كما أراد، فليس هنا مكان للخوّارين.

ما إن انتهى الشيشاني من كلامه حتى ولى ظهره لرفقائه، وسار منفردا، بل مع أفكار تلازمه طوال الوقت، لقد

صدق الجندي لقد أخطأنا في تقدير هذه المعركة أو بمعنى أدق لقد غرر بهم في هذه الحرب، الإمدادات انقطعت، والجند في ضعف، ولا يوجد أي إمداد عسكري من أبي إياس، أترى قد غرر به أبا إياس والبغدادي لينحوه عن جنده بالشام.

قال الشيشاني بصوت مسموع لنفسه: أيما كان فليس لي سبيل من الخروج من هذا سوى النصر والنجاح، أو موت الرجال والشهادة.

قالها وواصل تفقده للجند بمفرده.

****

- لقد أفرطّتِ في مدح الشاب يا مرام، ألا تملين من كثرة الحديث عنه.

ارتسمت علامات الخجل على وجه مرام لكلمات أمها، ولاذت بالصمت, فابتسمت أمها واحتضنتها في حب، وقالت في حنو: الحقيقة... لك الحق في مدحه لم يبت أحد في الدولة إلا وهو يذكر حسن صنيعه بتحرير فتيات الدولة، ليس لذلك فقط، بل لأسر عدد كبير من جنود الرافضة، والإتيان بهم لحدود دولة الإسلام ثم القصاص

منهم بالذبح وتقطيع أجسادهم على أيدي الفتيات اللاتي تم اغتصابهن، وبهذا شفى غليل أهلهن.

قالتها وهي تحتضن ابنتها في قوة ثم أردفت: الحمد لله لذي حفظك وحفظ بذلك عرضنا.

قالت مرام وهي تكتم دموعها: الحمد لله.. لقد أنقذنا أمير في الوقت المناسب.

ابتسمت الأم قائلة: أمير مرة أخرى.

قالت مرام: مصري هو أليس كذلك؟!

قالت الأم: هذا ما سمعته، وأيضا علمت أنه كان ضابط مصري في جهة سرية هناك، وقد أُرسل هنا للتجسس لصالح بلده، ولكن سرعان ما تحول ولاؤه للدولة، وكان له الدور الأكبر في تحرير مطار الطبقة في الشام.

- وماذا أيضا يا أمي.

قالت الأم في دهشة: ماذا ؟

قالت مرام التي توسدت ما بين نحر أمها وسحرها: ماذا تعرفين عنه أيضا.

ضحكت الأم قائلة: أرى أن الشاب قد سلب لبك.

لم تُجب مرام، واكتفت بابتسامة خجلة، فقد كان كلام أمها صحيحًا، إلا أنه لم يسلب لبها فقط بل سلب كيانها كله.

****

جلس الجولاني في مجلسه ومعه بعض من مستشاريه، وكان الحزن قد خيم على المكان، ولم يجرؤ أحد على النطق فقد كانت ثمة غصة في أحلاقهم ليست من الهزيمة التي نالوها في آخر معاركهم بحمص، بل وعلى الثلة من الجند الذين انسحبوا من جبهتهم ليلتحقوا بدولة البغدادي، كان المصاب عظيمًا على الجميع لا سيما الجولاني الذي بدا حلمه في التبخر، استجمع الجولاني كلماته وقال: قدر الله وما شاء فعل، والحرب دول، هُزمنا في معركة وسننتصر بإذن الله في معارك أخرى.

قال أحدهم: يا سيدي ليس الأمر مقتصرًا على الهزيمة فحسب، إنها الخيانة في وسط المعركة، هذا الأمر إن تكرر فعلى جبهتنا السلام.

قال الجولاني في أسى: صدقت يا أخي، ألا لعنة الله على أبي إياس، فقد فرق جمعنا، ولقد صدق من قال: (سمِّن كلبك يأكلك).

- وما الحل يا سيدي؟

أجاب الجولاني: إنه الكي، وهو مع كراهته من الأدوية وفيه الشفاء الأمة.

- ماذا تقصد يا سيدي؟

- أقصد ان الحل الذي تراءى لي بعد انسحاب الكثير من الجند ذوي الجنسيات المختلفة، أنه: لن يتم تجنيد أي شخص في جبهة النصرة سوى أهل الشام، وهذا لضمان ولائهم ووحدة الغاية بيننا، فليس أولى من انقاذ أهل الشام من بطش بشار وجنوده وهو أولى الأولويات، وأولى من جلب حرب ضد العالم كله، لسنا الآن مؤهلين لها، كما تفعل داعش.

- نِعْمَ الحل يا سيدي، ولكن ما رأي تنظيم القاعدة؟

- قد شاورتهم في الأمر ولقد استحسنوه.

- على بركة الله، من اليوم نكتب للجند هذا، ونوضح لهم ما وضحته لنا، فمن أراد الاستمرار استمر ومن أراد الفراق فهو وشأنه.

قال الجولاني في حزم: بل من أراد الفراق، فليس له سوى القتل، لن ندعهم فينضموا لعدونا فيصيروا علينا بعد أن كانوا لنا.
كانت كلمات الجولاني مفزعة لمن حوله، فلم يكن هو نفسه الجولاني الذي قد عرفوه من قبل، قد بدأ أكثر دموية وقوة وشراسة، ولعلها متطلبات المرحلة الجديدة.

****

استقبل أبو جندل أميرًا في ترحاب شديد وقد ابتدره بالمعانقة، قائلا له في حفاوة: أهلا ببطل دولة الإسلام الجديد.
ثم أشار له بالجلوس، اتخذ أمير مقعدا له، وجلس أبو جندل بجواره في ألفة وود، قائلًا وهو يشير إلى الجرح الذي على وجه أمير : ألم تختف آثار هذا الجرح بعد.
تحسس الجرح أمير قائلا: يا سيدي، لعلها تبقى كتأريخ لما حدث في هذا اليوم.
قال أبو جندل :

لا أدري كيف أجازيك عما فعلته، لقد كنت سببا في إيجاد مكان اختطافهن، وكنت سببا في تحريرهنّ، وكنت سببا في حفظ عرضي، وانتقمت خير انتقام من هؤلاء الأوغاد، وفي الحديث : إذا قال الرجل لأخيه جزاك الله خيرا فقد أبلغ في الثناء، فجزاك الله عني وعن الأمة الخير.

قال أمير: وخيرا جزاك، لم أفعل إلا واجبي يا سيدي.

قال أبو جندل: وسنكافئك على واجبك ذلك، فبعد فتح مطار الطبقة وتحريرك لنساء المسلمين، استشارني خليفة المسلمين على مكافآتك.

صمت أبو جندل وهو يقرأ اللهفة على وجه أمير، فابتسم وأردف: فأشرت له أن يوليك ولاية مدينة الموصل.

بدأ الاغتمام على وجه أمير فقال: يا سيدي ولكني لا أرضى أن استبدل بالجهاد أي شيء مهما كان.

شبك أبو جندل أصابعه، وقال: يا أمير الولاية أيضا جهاد، فالجهاد ليس مقتصرا على ساحات القتال، كما إن الله من حكمته نوع المواهب ووهبها خلقه لتستقيم الدنيا، ومن حكمة البشر وضع كل شيء موضعه، وقد وهبك الله عقلا في التخطيط للحرب، ووهب غيرك البأس والشدة، وليس

من الحكمة أن نفقد مثل عقلك هذا في المعارك، بل تقديره حق قدره أن يحوز مثل هذا المنصب.

قال أمير: بارك الله لك يا سيدي في حسن ظنك بي، ولكن وإن كان لابد، فعملي في الجيش لا يوازيه شيء.

أخذ أبو جندل يفكر قليلا ثم قال: يصعب مراجعة الخليفة في أوامره، ولكن ما رأيك في العمل كمستشار عسكري لي مع ولاية الموصل، هل تستطيع أن تجمع بين العملين.

قال أمير في حماس: إن شاء الله يا سيدي، سأكون عند حسن ظنكم.

تردد أبو جندل قليلا في الكلام إلا أنه استجمع شجاعته وقال: يا أمير، هل كنت متزوجا في مصر.

ما إن قالها حتى خفق قلب أمير في قوة فقد تذكر رؤى، وما كان بينهما، إلا انه استبعد صورتها التي ارتسمت بذهنه وأجاب بحزم: لا يا سيدي، لم أكن متزوجا يوما.

قال أبو جندل: الله المستعان، فما رأيك في أن نزوجك أيضا.

نظر أمير لأبي جندل في دهشة قائلا: تزوجوني.

قال أبو جندل في حرج: يا أمير، قد خبرنا فطنتك وإخلاصك للدولة، ولقد عزمت أن أعرض عليك ابنتي مرام، ولقد رأيتَها من قبل وحدث ما حدث بينكما، ولقد كثر خطّابها، إلا أنها كانت تأبى أن تتزوج، إلا أنني وجدت ميلا منها لك، أنت حقيق به، فما رأيك.

ذهل أمير من جرأة أبي جندل على هذا الحديث، فلاذ بالصمت، فقال أبو جندل: والله ما أرخصت ابنتي قط، فهي العزيزة الحصان الرزان، و.0..

قاطعه أمير قائلا: لا والله ما سكوتي لهذا يا سيدي، ولكن ذهلتني المفاجأة، خصوصا وانكم لا تدرون عني شيئا: أصلي ونسبي ومكانتي الاجتماعية في بلادي.

ولقد علمت أنكم من الأشراف وأن نسبكم ينتهي للحسين بن علي رضي الله عنه، وأنا ...

أشار أبو جندل له بالسكوت قائلا: لعنة الله على الجاهلية ما لنا ولأًصلك ونسبك، ما عرفناه عنك الآن يكفينا، رجل ذو حمية، وهمة متطلعة، وحدة ذكاء وجرأة.

بهت أمير لكلمات أبي جندل، ومر بذاكرته صوت نديم وهو يذكره بأصله وبأسرته، والآن أحد الأشراف وقائد

عسكري كبير يطلبه لزواج ابنته، ابتسم أمير ثم تطلع لأبي جندل قائلا: بالتأكيد موافق يا سيدي، وإنه لشرف لي عظيم.

تنهد أبو جندل في ارتياح قائلا: بارك الله لكما وجمع بينكما على الخير، إذا فما رأيك أن يكون الزواج خلال ثلاثة أيام، حتى يهيأ منزلكما، وتعد العروس للزواج.

هز أمير رأسه بالموافقة، إلا أن قلبه كان لا يذكر إلا شيئا واحدا، رؤى.

****

- من هذا الشاب الوسيم الذي يطيل النظر إليك يا رؤى.

قالتها إحدى صديقات رؤى، في حين قهقهت الأخرى قائلة: الواضح أنه متيم بك ومن النظرة الأولى.

رمت رؤى ببصرها شذرا ناحية الشاب الجالس على الطاولة المقابلة في المطعم، فبدا لها وسيما وقد احمر وجهه وظهر عليه الاضطراب لما تلاقت عيونهما، فأشاحت ببصرها عنه، في حين تعالت ضحكات صديقاتها، لما حل بالشاب، مما زاد من خجله فقام مسرعا ليختفي عن أنظارهنّ، أما رؤى فقد اعتصر الألم قلبها، ورفت من عيناها دمعة، فقامت مسرعة

إلى الحمام، وما إن دخلت حتى أغلقت الباب بإحكام، ووقفت أمام المرآة تنظر لوجهها، ولم تلبث حتى انفجرت باكية في هستيريا وبصوت عال، لم تكن تدري ما هذا الشعور ولماذا انتابها الآن، كل ما تدريه الآن أنها فقدت أميرًا للأبد.

كتمت دموعها بيديها، واستجمعت قوتها، وقد تطلعت لحقيبتها لوهلة، ثم نفضت محتوياتها، حتى أخرجت مقصا صغيرا، وأمسكته بيمينها وهي تتطلع لدموعها المنهمرة، وزينتها التي أفسدتها الدموع، ترددت للحظة قبل أن تغرس المقص في شرايين يسراها، صرخت متألمة ثم سقطت فاقدة للوعي.

****

ابتسم الشيخ جعفر في زهو، في حين تجرع جون الكأس الذي أمامه دفعة واحدة، ثم قال: حيدر هذا أعجوبة بكل المقاييس، فلم يمر عليه معنا كبير وقت، حتى كان الفتح على يديه، انتصارات متتالية على داعش في محافظة صلاح وغيرها.

قال جعفر: لا تنس أنه اكتشافي يا جون، وأحد جنودي.

ضحك جون قائلا: طبعا يا صديقي، وكل فضل له ينسب إليك، وقد رأت القيادة بترقية حيدر في رتبته، وإيكال مهام أعظم له.

قال جعفر: هو أهل لهذا، فلم أر منه سوى حسن الطاعة، والولاء التام لنا ولآل البيت عليهم الصلاة والسلام.

مال جون لجعفر وقال هامسا: والمهم أن يكون هذا الولاء لنا أيضا يا عزيزي.

ابتسم جعفر، وقال: عند عودته من مهمته تلك، سأبلغه بهذه الترقية، وبمهامه الجديدة.

أمسك جون بزجاجة النبيذ وملأ كأسه وكأس جعفر، وقبل أن يتجرعا الكأس دوى انفجار هائل بالمكان، ولم يتبق فيه إلا أشلاء جثتهما.

****

اصطف الناس في أكبر ساحة بالرقة ملبيين نداء المنادي لمشاهدة إقامة الحد على أحد الناس، فخرج الناس أفواجا، وقد تعددت مآربهم في ذلك، فمنهم من خرج بدافع الفضول، ومنهم من خرج بدافع نصرة تطبيق الشريعة، ومنهم من

استهواه مشهد الجلد والرجم، لكل أناس مأربهم، وكذلك توقعاتهم، فالبعض قال إن ما سيقام حد السرقة، ومنهم من قال بل حد الزنا، ومنهم من قال بل حد القتل، وكانوا يتساءلون من ذا الذي يجرؤ الان على ارتكاب هذه الجرائم الآن، فقد ظنوا أنها قد انتهت تحت ولاية داعش لبلادهم.

ظلت أعينهم مترقبة، خروج القاضي ومعه منفذين الحد ووراءهم الجاني مخذولا منكس الرأس كما ألفوا، ولكن هذه المرة وجدوا أبا إياس أمير جند الشام هو من يدخل وخلفه منكس الرأس والي مدينة الرقة، وما إن وصلوا إلى منتصف الساحة، حتى قال أبو إياس بصوت عال: الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وبعد : يا أيها الناس، قد مضى عهد الظلم، والناس هنا سواسية من وقع عليه الظلم من أي إنسان مهما كان حاله، ولو كنت أنا، فليتقدم بمظلمته للقاضي الشرعي وحقه سيأخذه بإذن الله، وقد تنامت إلي شكاوي خاصة بوالي الخليفة البغدادي على الرقة، من ظلم وجبي الأموال قهرا، سفك بعض دماء الأبرياء شبهة ودون الرجوع للقاضي الشرعي، ولذا وبأمر

أمير المؤمنين البغدادي فقد صدر أمر، بتطبيق حد الحرابة على والي مدينة الرقة.

وما إن سمع والي الرقة كلمات أبي إياس حتى جثا على ركبتيه، وأخذ يتوسل لأبي إياس بالعفو والمسامحة، ويذكّره الأخوة في الدين.

إلا أن أبا إياس لم يعره اهتماما، وأشار بيديه لأحد الملثمين، ثم غادر الساحة، فبرز رجل ملثم عاري الصدر مفتول العضلات، ممسك بسيفه وتبعه بعض الجنود وقد اتجهوا لإحدى العواميد وعليها صلبوا والي الرقة غير عابئين بصراخه وتوسلاته، وما إن أحكم ربطه حتى رفع الملثم سيفه وقام بقطع الذراع الأيسر ثم القدم اليمنى، كانت صرخات والي الرقة قد هزت قلوب الناس، وما إن انتهى الملثم حتى حسم جرح الوالي بالزيت، ثم قام برفع العمود المصلوب عليه، في وسط الساحة، وقد ظهر خلفه شاب ملتحٍ والذي قال بصوت جهوري: وقد أمر أمير جند الشام بصلب والي الرقة لمدة يوم وليلة ليكون عبرة لجنود دولة الإسلام أولا،{ولكم في القصاص حياة}، أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم.

لم يكن الناس وحدهم من أفزعهم المشهد، بل حتى جنود دولة الإسلام وكانوا بين معجب بالأمر معظم له، وبين خائف متوجس من أن يناله مثل هذا ولو بالخطأ.

استقل أبو إياس سيارته، وتبعه بعض حرسه، وقبل أن ينطلق موكبه، اعترضهم رجل كبير في السن، فهمّ بعض الجنود لإبعاده، إلا أن أبا إياس هبط من سيارته وأوقفهم، ثم اقترب من الرجل قائلا: ماذا تريد يا أبت؟!.

قال المسن بصوت مرتجف: يا أبا إياس، إني سمعت عن عدلك وإني رجل مسيحي أو نصراني كما تقولون عنا، وقد ثقل أداء الجزية التي فرضتموها علينا فالمبلغ كبير، و....

قاطعه أبو إياس قائلا: هل لك من ولد؟

أجاب الرجل : كان يا سيدي وقتله جنودكم من زمن.

قال أبو إياس: ليس لك ولد وفرضوا عليك الجزية، نعوذ بالله.

ثم التفت لأحد الجنود قائلا: اتصل بوالينا الجديد على الرقة وكل ولاتنا على الشام، وأخبرهم أن الجزية لا تفرض إلا على القادر من الناس، وهي ساقطة عن كل معاق أو رجل

مسن، وكذلك هي ساقطة على النساء والضعاف، ومن جاء بشكوى مثل هذه الشكوى فإن مآله مآل والي الرقة القديم.

ثم التفت للرجل المسن قائلا: ارجع لبيتك وسأرسل لك اليوم معونة لك ولأهلك، وأسأل الله لك الهداية للإسلام.

انفجرت دموع الرجل، وأخذ يدعو لأبي إياس، أما الأخير فقد علته ابتسامة نصر، فالآن فقط بدأت غايته في التحقق.

****

الفصل الثالث عشر

الحرب

في ذلك المكان المجهول، وتلك القاعة المظلمة جلس ذوي المناصب العليا، لا يرافقهم سوى سحب الدخان المنبعث من سيجار كل فرد منهم.

- آخر تقرير لـ (ش) من هناك ينذر بشر قادم علينا وعلى كل ما صنعناه وآباءنا، نهضة اقتصادية فجائية بعد ضرب عملات الذهب والفضة تلك، وتحطيم الحدود التي صنعناها من قبل بين المسلمين، هذا إلى أن شعبية هؤلاء وسط أبناء المسلمين في تزايد رهيب، تقرير أقل ما يوصف به أنه مرعب.

- ولكن يا سيدي، هذا يخالف النتائج التي بعث بها (ص) بعد التحاقه بداعش، فقد وصل لأعلى المراتب في داعش، والآن بين أيدينا ملف كامل عن غالب الشخصيات المنتمية لداعش، وغالب مشاريعهم وأفكارهم، بل كما عهدنا له فقد قام بضرب بعضهم

ببعض فالآن سلطة البغدادي على ولاته وأمرائه في أضعف حال، وهذا لصالحنا بلا شك.

- يا (ع) كلامك صحيح، ولكن لا تفرط في الفرح، فلو بقي الأمر على ما هو عليه، لن نخرج بشيء، بل لا بد لنا من التحرك وفورًا.
- وكيف ذلك يا سيدي.
- وصلتنا معلومة أن هناك بعض الأسرى الصحفيين مختلفي الجنسيات في أيدي داعش سواء في سوريا أو العراق، و (ص) يعمل الآن على توجيه الرأي هناك لذبحهم، وبذلك نجد مبرر دولي قوي لشن حرب على هؤلاء، تقتلع نبتتهم قبل بدوها.
- حرب؟!!! وما الدول التي ستوافق على شن حرب عسكرية على هؤلاء الآن، وأنت أدرى بحالة الدول العظمى اقتصاديا وعسكريا.
- ومن قال أن هذه الدول هي التي ستشنها عسكريا، لا نريد منها سوى القذف الجوي لمواقع داعش، بل ستكون إيران والدول العربية هي بطل تلك الحرب.

- إذا فكل ترتيباتنا القديمة مع إيران سنكشف عن أوراقها الآن؟

- قد حان موعد صنيعتنا الآن.

رفع أحد الموجودين كأسه قائلا في زهو: نخب الحرب في القضاء على الإرهاب الإسلامي.

رفع الجميع كؤوسهم قائلين في نفس واحد: نخب الحرب ضد الإرهاب الإسلامي.

****

كان يوم إشهار زواج أمير ومرام ليوم عظيم بحق، فقد حضر فيه جميع قيادات الدولة بما فيهم أبو إياس، وكيف لا يكون والبغدادي خليفتهم بنفسه قد حضر هذا اليوم، كان علماء الشريعة يتعاقبون الكلمات، وكانت الولائم أيضا تتعاقب، وصوت الدف يخرج من المكان المخصص للنساء، الجميع كان فرح وسعيد بهذا اليوم، إلا أمير فقد بدا عليه التوتر والقلق، وقد أخفاهم في ابتسامة مصطنعة رسمها على وجهه، وفي منتصف الليل انفض الجمع بعد كلمة البغدادي التي كانت في الختام، وأخذ أمير زوجه المنتقبة بنقاب أبيض وانطلق بها لمنزلهما الجديد

بالموصل، وما إن دخلا منزلهما، واختلا ببعضهما بغرفة النوم، حتى قام امير برفع النقاب عنها، وفاجآه إشراقة وجهها، كانت جميلة ورقيقة، كانت زينتها البسيطة ورسمة عيونها بالإثمد قد زادها حسن فوق حسن وإشراقة فوق إشراقة، ظل أمير يتأمل وجهها في ذهول من جمال لم يتوقعه قط، نعم قد رآها من قبل واستحسن صورتها، لكن ما يراه اليوم كان مختلف تماما، بياض وجنتيها مع حمرة الخجل البادية عليه الآن، عيونها العسلية المتقلبة بين الغض والنظر، وتلك الرائحة التي أنعشت مشاعره، أمسك بكفيها المخضبتان قائلا لها بحب: مبارك يا مرام، هل انت سعيدة.

فنظرت إليه نظرة مطولة انخلع لها قلبه، ثم أجابت في خفوت: وكيف لا أسعد وقد ملك كل منا الآخر.

تفاجأ أمير بجوابها فلم يتوقعه، ثم وفي خفة نزع خمارها وقد انسدل منه شعر أسود كالليل، طويل كالنخل، ليكمل تلك الصورة الفنية التي أبدعها البارئ، فقال في ذهول وبراءة: أنت كيف هكذا؟

قالت في حياء : وكيف ماذا؟

قال أمير: كيف تكونين بهذا القدر من الجمال.
قالت: كيف ولقد سمعت أن المصريات أجمل النساء.
قال والذهول لم يغادر ملامحه: خدعوك فقالوا؟
انطلقت ضحكاتها المتقطعة، تتبعها ضحكاته، مال إليها ليلثم منها ما يروي ظمأه، إلا أنها أزاحته عنها في غنج، وهي تقول: ليس قبل أن أعرفك وتعرفني، فأنت لا تعلم عني شيئا ولا أعلم عنك إلا القليل.
ابتعد عنها أمير ليجلس بجوارها وهو يقول: وما الذي تريد أن تعرفه الأميرة عني؟
قالت: من أنت؟
ابتسم أمير وهو يقول: لو جلسنا نتحدث عن هذا لظللنا الليل بأكمله، ولدينا الأيام نملأها بالحديث عني، ولكن طالما كنت البادئة فلتحدثيني عن نفسك.
قالت في أداء مسرحي: أنا يا سيدي، فتاة نشأت في بيت لأحد ضباط البعث العراقي، مال وثراء فاحش، ثم أتى الاحتلال الأمريكي وسقط النظام البعثي، واعتقل أبي سنوات تشردت فيها أسرتنا، هذا ما قص علي وإلا فأنا لا أتذكر عن هذه الفترة الا اللمم فقد كنت صغيرة حينها، ثم

خرج أبي ليلتحق بنا عند عشيرتنا، ثم صار انتماؤه للدولة، اما أنا وامي ظللنا عند العشيرة، وبها كبرت وترعرعت.

قال أمير: ولكنك تختلفين عنهن.

قالت: عن من؟

قال: عن نساء الدولة.

التفت يمنة ويسرى ثم اقترب من أذنه وكأنها ستقول له سرا: أنا أكره هذه الدولة.

راع أمير ما قالته فانتفض ورجع للوراء، ثم قال لها: ماذا تقولين تكرهين ماذا.

قالت ولكن بجرأة هذه المرة: أكره هذه الدولة ورجالها.

قال: والدك منها وكذلك أنا، فكيف تقولين هذا؟

قالت: والدي لا ينتمي لها وليس مثلهم، وما انضم لهم إلا لأنهم خير عنده من الرافضة الانجاس، أما أنت.

صمتت قليلا، ثم قالت: أنت مختلف.

قال في تعجب: مختلف كيف هذا؟

قالت: أنت لا تنتمي لهذا المكان، كلماتك، ملامحك، ذلك الحزن الساكن بعينيك، كل هذا يدل أنك لا تنتمي لهذا المكان.

قال أمير في سخرية: وأين تظنين يكون انتمائي؟

قالت: من وجهة نظري ليس لك انتماء لأحد، وهذا بسبب أمر من الماضي أود أن تقصه علي، فأنا زوجك الآن.

لامس كلامها شغاف قلبه، هذه الفتاة التي بين يديه، أذكى مما كان يتوقع، أم هي حاسة الزوجات، و...

قالت في دلال: كل شيء ستغير من الآن وسيكون ولاؤك لشيء واحد.

تساءل في تعجب: وما هذا الشيء.

قالت وهي تطبع قبلة على جبينه: أنا.

ثم كان منهما ما كان

****

- لقد بدأت الحرب علينا، إن العالم كله أعلن التحالف للإجهاز علينا.

قالها القحطاني مقتحما مكتب البغدادي، والذي كان جالسا يقرأ القرآن، فنظر إليه البغدادي في تعجب قائلا: ماذا تقول؟

كرر القحطاني كلماته، فقال البغدادي: ادع الآن لاجتماع طارئ لمجلس شورى الدولة وكل قادتها.

انصرف في سرعة القحطاني، أما البغدادي فعاد لمصحفه في هدوء وكأنه لم يحدث أي شيء، وبعد تجاوزه لآية توقف عن القراءة، ثم قال لنفسه: إنها المعركة الأخيرة، نكون أو لا نكون.

ثم واصل قراءته حتى وصل لآية: { الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ }.

وأخذ يكرر: حسبنا الله ونعم الوكيل.

****

جلس حيدر في توتر بالغ داخل مكتب رئاسة وزراء الجمهورية العراقية، لم يخطر بباله يوما أن يقترب حتى على بعض أمتار منه، وما أن أذن له بالدخول على مكتب رئيس الوزراء العراقي، حتى دخل مؤديا

للتحية العسكرية في ثبات، فأشار له رئيس الوزراء بالجلوس ثم قال: لقد سبقتك أخبارك إلي يا حيدر، وما توقعتك بهذا العمر فأنت لا زلت شاب صغير.

تنحنح حيدر في حرج، ثم قال: يا سيدي، وهل نصر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا بالشباب.

قال رئيس الوزراء: صدقت، ولقد علمت بمجهودك الكبير في هزيمة داعش في أكثر من معركة وإعلاء علم العراق وراية آل البيت عليهم السلام، ولقد فقدنا منذ أيام قائد من أهم قاداتنا العسكريين الشيخ جعفر رحمه الله على يد هؤلاء المجرمين، وقد كان رحمه الله كثير الإشادة بك وبمجهوداتك، دولتنا الآن في حاجة لمجهوداتك، ولقد اصدرت قرارا بترقيتك لتحل محل الشيخ جعفر، وتكمل مهمته.

ابتسم حيدر في ثقة قائلا: هذا شرف كبير لي يا سيدي، ولن أخذلك إن شاء الله.

قال رئيس الوزراء: القائد العسكري الأمريكي المكلف بتدريبات القوات سيأتي خلال أيام، أود منك استقباله والتنسيق معه لإكمال ما بدأه الشيخ جعفر وجون.

قال حيدر في حماس: إن شاء الله يا سيدي.

قال رئيس الوزراء: وهناك أمر آخر، أود استشارتك فيه، زرع قنبلة مثل هذه في منزل جون، وانفجارها في توقيت وجود الشيخ جعفر في نفس المكان، ألا ترى شيئا فيه.

قال حيدر: هناك خائن يا سيدي بلا شك وراء هذا.

ابتسم رئيس الوزراء قائلا: أصبت، وهو من نبحث عنه، وأول ما تكلف به هو كشفه حيا كان أو ميتا.

سأله حيدر: كان من كان يا سيدي.

أجاب رئيس الوزراء في حزم: كان من كان يا حيدر، هذا تفويض كامل لك.

****

اكتسى علامات الهم والحزن على كل الموجودين في تلك القاعة المعدة لاجتماع قادة دولة الإسلام، كان الجميع موجودين بما فيهم أبو إياس الذي لم يغادر بعد ولاية العراق، ابتدأ البغدادي الكلام قائلا: الكل يعلم وصف الحال الآن، فما مقترحاتكم للخروج من هذا.

وعلى غير المتوقع تكلم أبي إياس، وقد تهللت أسارير البغدادي عندما تكلم أبو إياس الذي قال: يا سيدي، لن أتكلم كثيرا عن أسباب الهجوم العالمي المفاجئ، ولكن لا بد أن تعرف أن سبب ذلك هي الاستفزازات التي قامت بها دولتنا من قتل صحافيين لدول كثيرة دون أي داع، سوى تهييج الدنيا كلها علينا.

قال أبو إياد مقاطعا لأبي إياس: يا أبا إياس كنا مضطرين وقتها لذلك، فقد كانت هجمات الرافضة والأمريكان علينا لا تتوقف وأردنا قذف الرعب في قلوبهم وقد حدث هذا بالفعل.

واصل أبو إياس كلماته غير مبالي بكلام أبي إياد: أما وقد حدث ما حدث فلن نبكي على أخطاء الماضي، الآن نحن نواجه العالم كله، في حين أن إمكانياتنا وأعدادنا لن تقدر على الصمود أمام العالم، ولكن ما يمكننا فعله الآن من وجهة نظري هو الإثخان فيمن تطوله أيدينا منهم، وإظهار الوحشية في تصفيته.

قال أحد الموجودين: أراك متناقض يا أبا إياس كيف تنتقد طرق قتلنا وفي الوقت نفسه تأمرنا بالإثخان فيهم؟

قال أبو إياس: الأمر مختلف الآن نحن الآن في حالة حرب ضد العالم كله، ونصرتنا لن تأتي بقوتنا، بل بالرعب، غالب جنود أعداءنا يفتقدون العقيدة القتالية، فلو رأوا من جنودنا البأس والشدة قذف في قلوبهم الرعب.

قال البغدادي : احسنت يا أبا إياس.

قال أبو إياس: كما أنه لا بد لنا في هذه الفترة تقديم أصحاب المناهج التكفيرية في الرتب والقيادة، فهم أقسى قلوبا وأشدهم بأسا فلا ترق قلوبهم لكثرة الدماء.

تنهد أبو إياس ثم قال: وأخيرا لا بد من تأمين الناس في بلادنا، فليس لهم ذنب في تلك الحرب.

استأذن أبو إياد بالكلام، فلما أذن له قال: أوافق أبا إياس على مقترحه، كما أنه يجب علينا تفعيل الجانب الإعلامي أكثر، ودعوة شباب العالم للانضمام لنا، فنحن في حاجة للكثير من الجند.

قال القحطاني: وأنا سأقوم بتكثيف العمل في جهاز مخابرات الدولة، وجمع أكبر قدر من المعلومات من جانب عملائنا في كل الدول.

قال أبو جندل: ما يدهشني مشاركة غالب الدول الإسلامية في هذه الحرب، رغم ما هم فيه من مشاكل ضخمة!

قال البغدادي: يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره.

قال أبو إياس: لا بد من رفع حالة الطوارئ في كل أنحاء دولة الإسلام، كما أنصح بعقد بعض الهدنات مع بقية الفصائل الجهادية، لعلها تقف بجوارنا أثناء هذه الحرب، وتوطيد العلاقة بالعشائر العراقية.

أخذ البغدادي يفكر قليلا ثم قال: رائع جدا، هل من رأي آخر.

تفاجأ الجميع بأمير يرفع يده استئذانا بالكلام، فأشار إليه البغدادي قائلا: العريس الجديد يريد أن يتكلم، عسى يكون الزواج قد أفاد قريحتك.

ضحك الجميع عدا أمير الذي قال بجدية: يا سيدي خير وسيلة للدفاع الهجوم، كل ما قاله الإخوة أمر رائع، ولكنه يجعلنا في موقف المدافع فقط، وأنتم تعرفون أن كل هذه الاقتراحات تؤخر نصر العدو لحين فقط، ولذا فالرأي يا

سيدي أن نقوم بهجمات متتالية تجبر التحالف على الدفاع فقط، بل وتشتيتهم حتى يكونوا رد فعل لأفعالنا لا العكس.

قال البغدادي مستوضحا: وكيف ذلك يا مصري.

قال أمير في حماس: نوجه ضربات جديدة غير متوقعة، نشتت بها قوات التحالف تلك، مثلا إقليم الأكراد على حدود تركيا، لماذا لا نصنع حربًا وهمية هناك، حدث مثل هذا سينشغل العالم كله به، وسينشغلون بتحريرها من قبضتنا، وبهذا نأمن على ما في أيدينا من بلاد، وكذلك لو وجهنا بعض الضربات في جنوب إيران، ذلك بالتوازي مع تفجيرات واغتيالات في أماكن حيوية في البلاد العربية المشاركة في الحرب، فنشغلهم بمصائبهم عنا.

بدا الإعجاب بالفكرة على وجه البغدادي والذي صرح قائلا: أحسنت يا مصري، لا فض فوك.

ثم توجه بنظره إلى أبي إياد قائلا: بارك الله فيك على إبقائك لهذا الداهية.

ضحك أبو إياد قائلا في زهو: لم أفعل سوى واجبي يا سيدي.

أما أبو جندل فقد كان يجلس في زهو وفخر فرحا بصهره الجديد، وأما أبو إياس فنظر لأمير في غبطة وإعجاب، ثم اقترب منه قائلا: أحسنت يا صديقي، وكم كنت لأتمنى أن تكون معي في الشام.

ابتسم له أمير، قائلا: إنه لفخر لي يا أبا إياس، ولكن الآن وطني هنا فكما يقال وطن الرجل وطن زوجته.

تراجع أبو إياس للوراء وهو يقول: وطن الرجل نفسه يا صديقي تذكر هذا.

لم يفهم أمير مراد أبو إياس، ولذا صرف بصره للبغدادي، والذي كان يتلو أهم القرارات المتخذة بخصوص قوات التحالف.

ولقد جمع البغدادي بين اقتراحاته واقتراحات أبي إياس وأبي إياد وزاد عليها أيضا من عنده، كانت الأحداث في حياته تسير بسرعة عجيبة، من تهديد بالقتل إلى أن صار رئيسًا لإحدى أكبر مدن الدولة، لزواجه ببنت أكبر قادة البغدادي، وماذا بعد يا أمير؟!، بهذا حدّث أمير نفسه، فقد كان يعلم أنه ما طار طير وارتفع إلا كما طار وقع.

****

فتحت رؤى عيناها في بطء، وما إن اتضحت الرؤية أمامها حتى اكتشفت أنها في إحدى المستشفيات، وأن جسدها متصل ببعض الأنابيب والأسلاك الطبية.

– حمدًا لله على سلامتك يا آنسة رؤى.

حولت رأسها اتجاه الصوت، ثم علت عليها الدهشة وهي تقول لصاحب الصوت: أنت.

ابتسم وقد اقترب منها وهو يراقب الأجهزة الموصولة بجسدها، ثم أمسك بمعصمها كي يقيس نبضها وهو يقول: من حسن حظك وجودي في نفس المكان حينما وجدوكِ غارقة في دماءك.

تطلعت إليه في دهشة، فقال: أحب أن أعرفك بنفسي، الدكتور محمد فوزي.

رغما عنها ابتسمت بمجرد ما سمعت اسمه، فقال لها: كل من يسمع اسمي ترتسم على وجهه نفس الابتسامة.

لم تتكلم رؤى، فواصل عمله وهو يقول: كيف لإنسانة في رقتك وجمالك تقدم على التخلص من حياتها التي قد تكون سببا لسعادة البعض.

لم تجب رؤى وظلّت صامتة، فقال: ستمكثين معنا هنا لفترة، لعلها كافية لتخبري محمد فوزي بما أهمك.
عادت ابتسامتها مرة أخرى، فضحك على إثرها، فضحكت هي الأخرى.
****
أمسك أمير بيد زوجته وهما يسيران في إحدى الحدائق في هدوء وصمت فقطعت هي الصمت قائلة: ما رأيك يا حبيبي في اقتراح يقتل هذا الصمت.
قال مبتسما: وما هو اقتراحك يا زوجتي العبقرية.
قالت له متوعدة: لن أعلق على سخريتك هذه، اقتراحي هو أن يعترف كل منا بسر يخصه لم يخبر به الآخر من قبل.
مط أمير شفتيه ممتعضا ثم قال: وهل لزوجتي أسرار قد أخفتها عني.
قالت ساخرة: طبعا يا أستاذ، لكل شخص أسراره.
قال: ما هي إسرارك أيتها الغامضة.
قالت: ليس قبل أن تتعهد أنت أيضا بالاعتراف.
هز أمير رأسه قائلا: أتعهد، هيا أخبريني ما الذي تخفيه.

قالت هامسة: لقد كنت في الخفاء أقرأ بعض الروايات الغربية الفاضحة، وأشاهد الأفلام الأجنبية وكذلك المسلسلات التركية.

قهقه أمير بصوت عال، وظل يضحك وهي تلكزه بيدها برفق طالبة منه السكوت وعدم السخرية منها، وما إن سكت وهدأ حتى قالت : دورك في الاعتراف.

تحولت ابتسامة أمير إلى حزن قد ظهر جليا على وجهه، فقالت مرام مازحة: إنه لسر عظيم.

قال أمير: ما رأيك بأن أقص لك قصتي كلها حتى قدمت إلى هنا، على شرط.

قالت: وما هو؟

قال: أن تكتمي عني.

قالت: أنت زوجي وحبيبي وملكي، وأنا سرك وأنت سري.

وبدأ أمير في قص كل شيء لزوجته، التي أصابتها الصدمة مع تلك التفاصيل التي كان يرويها أمير، فقد كان ما يحكيه بشعا بكل ما تعنيه الكلمة.

****

- لا بد لنا من أخذ كل احتياطات الأمان للمواطنين أثناء قذف قوى التحالف، لأراضينا.

قال أبو إياس هذه الكلمات للقادة العسكريين المحاط بهم، لمناقشة الوضع بعد ضرب قوات التحالف لبعض مواقعهم.

وأثناء الاجتماع اقتحم أحد الجنود المجلس قائلا في حماس:

- الحمد لله الذي من علينا بنصر قد يئسنا حدوثه، قد تم بفضل الله وبحمده فتح مدينة السخنة ثم مدينة تدمر، وبعدها حقول حزل للنفط، كلها من ريف حمص، وبذلك فلم يتبق على سقوط حمص إلا قليل ثم تصبح في أيدي المجاهدين.

كبر القادة المحيطون بأبي إياس، وأخفى أبو إياس صدمته في ابتسامة هادئة : إذا فقد انتصر الشيشاني في معركته المستحيلة وماذا بعد؟ هل يأتي له بهذا النصر فيأخذ كل ما صنعه من تقدم، ويقف حائلا أمام حلمه.

بهذا حدّث أبو إياس نفسه، وما قطع حديثه هذا إلا صوت جلبة خارج المكان فأمر أبو إياس أحد الجنود ليستطلع له

ما يحدث، فغاب الجندي قليلا ثم عاد قائلا في حماس: إنه الشيشاني وجنوده قد عادوا يا سيدي.

هرول أبو إياس إلى الخارج، وقبل أن يتخطى الباب وجد الشيشاني واقفا أمامه وقد علته ابتسامة نصر، هوى قلب أبو إياس محله، بعد أن قال الشيشاني: ألا ترحب يا أبا إياس بأمير ولاية الشام بعد هذا النصر العظيم.

كانت مقولة الشيشاني تعني أن كل شيء له انتهى في الشام.

****

الفصل الرابع عشر
آل كبلال

نجاحات وانتصارات هائلة متتالية للدولة فرض السيطرة على كوباني، في الوقت نفسه ضربات متوالية على بغداد، وتحرير سامراء بالكامل، فرض السيطرة على جزء كبير من سيناء، وفتح تدمر وغالب ريف حمص على يد الشيشاني، والمجاهدون في ليبيا في تقدم هائل، وقوات التحالف مشتتة لا تعرف أين تكون ضربتنا التالية.

في حماس هائل قال القحطاني هذه الكلمات للبغدادي، والذي اكتفى بابتسامة رضا مع سماع تلك الكلمات، ثم قال في هدوء: هذا نصر الله وفضله ومنته.

قال القحطاني: هذا المصري عبقري، بحق.

قال البغدادي: صدقت، ومثله حق علينا تقديمه على غيره، فمع كل هذه الضربات قام بعمله كرئيس لمدينة الموصل على أكمل وجه، فطورها، وهيأ طرقها، وفرض الأمن فيها والنظام، صارت أجمل مدينة في كل ولاياتنا، هذا غير كفالته للفقراء والمساكين، الجميع هناك يشهد له

بالخير، لقد من الله على الدولة بأمثاله وأمثال أبي إياس وأبي إياد وغيرهم، أناس ذوي مواهب كبيرة وعظيمة بخس حقها في بلادها، اعطاء أمثالهم الريادة في دولتنا سيجذب غيرهم من الشباب وأصحاب المواهب لدولتنا ليكونوا درعا للدولة وسيفا على أعدائها.

قاطع صوتهم رنين هاتف مكتب البغدادي، والذي أجاب، وبعد قليل سمع القحطاني البغدادي يقول: الحمد لله على نعمائه، هذا فضل من الله ونعمة.

ثم أغلق الهاتف، ونظر للقحطاني مبتسما قائلا: لقد قضى جنودنا بقيادة أبي إياد على البيشمركة في سنجار، وعلى بعض البلاد التي تحيط بكوباني، جنودنا الآن يعسكرون على الحدود التركية.

كبر القطحاني، ثم قال: ولكن هذا سيحفز أردوغان علينا، وأنت تعلم دوره الكبير في إعانتنا على ppk.

قال البغدادي: فعل هذا لدولته، فأنت تعرف الصراع القديم بينه وبينهم، ونحن أيضا نعمل لصالحنا، وبلاده كغيرها هدف لنا.

ثم استطرد قائلا: ولكن على كل حال صدامنا مع أردوغان لم يحن وقته بعد، فلم نر منه سوءا حتى الآن، ولسنا في سعة لكي نبدأه بالعداء.

قال القحطاني ساخرا: يسمونه خليفة المسلمين، لأعماله الخيرية ونصرة المسلمين على حد قولهم.

قال البغدادي: الناس رأت فيه العدل الذي فقدوه من حكامهم، وتناسوا حكمه العلماني الذي لا يختلف عن حكم حكامهم بل لعل بعض البلاد العربية أقرب للإسلام من بلاده، تناسوا ذلك لتعطشهم للعدل، أردوغان حاكم ذكي، وقد نهض نهضة عظيمة ببلاده، وصنع لنفسه شعبية كبيرة، إلا أنه للأسف لم يصنع سوى مجد شخصي لنفسه، وسينتهي العدل وستتوقف تلك النهضة بمجرد رحيله، وهذا الفرق بين حكمه وحكمنا، نحن نصنع حضارة إسلامية باقية مع اختلاف الاشخاص، وهو يصنع مجد شخصيًا فحسب.

قال القحطاني: صدقت يا سيدي، صدقت.

تنهد البغدادي في ارتياح وهو يتطلع من نافذة مكتبه قائلا: طريق طويل جدا في سبيل تحقيق الحلم، وفي

سبيله بذلت دماء أقرب الناس لي: الأنباري، وحجي وقبلهم أبو عمر وأبو مصعب وأبو المهاجر، فهل سيكون النجاح من نصيبنا يا قحطاني؟!.

قال القحطاني: إن شاء الله يا سيدي، لا نعلم من يقطف الثمرة، ولكن في كل الأحوال ستنبت الثمار، وسنكون وأسلافنا الذين ذكرتهم شارك في زرعها.

قال البغدادي : صدقت، لا يهم من يقطف الثمار، ولا وقت بدو صلاحها، المهم أننا سنكون شاركنا في زرعها.

****

جلس أمير في مكتبه وجلس أمامه أبو جندل، قال أبو جندل: كيف حال ابنتي مرام، وكيف حال حفيدي مسلم، لقد مرت فترة طويلة منذ آخر زيارة لهم.

قال أمير: مرام بخير بفضل الله، ومسلم كعادته طفل في غاية الإزعاج، لا يتوقف عن الصراخ والبكاء.

ضحك أبو جندل ثم قال: حفيدي طباعه تشبه أمه كثيرا، أما ملامحه فهو نسخة مصغرة منك.

ابتسم أمير وهو يقول: بارك الله لي فيهما، لقد وهبتني يا سيدي كنزا لا أدري كيف أجازيك عليه.

قال أبو جندل: بل أنت الكنز يا أمير، فدائما أنت محل فخري وعزتي، أنت الولد الذي طالما تمنيته وقد من الله علي بك.

ساد الصمت قليلا حتى قال أمير: يا سيدي، كيف الأمر الآن في ساحات القتال.

قال أبو جندل: كر وفر يا بني، وبسبب فكرتك العبقرية تلك، يظل الكر والفر في مواقع لا تمثل لنا أي أهمية، يفرحون هم باسترداد بعض تلك الأراضي، ولا نخسر نحن بفقدها.

قال أمير: وقد سمعت أن المتطوعين يتوافدون علينا زرافات ووحدانا.

قال أبو جندل : بالتأكيد، صار الجميع يتطلع للالتحاق بدولتنا، والفضل يعود في هذا للجهاز الإعلامي القوي للدولة، ولكن لا ننكر أيضا أن من أسباب بقاء الدولة حتى الآن عزوف قوات التحالف عن الحرب بريا والاكتفاء بالضربات الجوية.

قال أمير: لا أوافقك الرأي يا أبا جندل، فعزوفهم هذا ليس اختيارا بل إجبارا، فأمريكا وأخواتها في وضع

اقتصادي لا تحسد عليه، ودخولها العراق بقوات برية خسارة لها اقتصادية وأيضا عسكرية، ما يحدث الآن هو الأصوب لهم، تدريبهم للقوات العراقية وقوات الحشد الشعبي، وإعانة إيران وبشار في حربهم ضدنا بريا، وهم أشد الناس في الحرب لقتالهم بعقيدة مثلنا على عكس جنودهم، ثم هي استغلت نقطة ضعفنا ألا وهي السماء، لو صار لدينا قوة جوية فلن يقف أمامنا جنود الأرض.

قال أبو جندل: صدقت يا صهري، وأحسنت وصف الحال.

ثم نهض أبو جندل فسأله أمير: إلى أين ستذهب يا أبا جندل.

فأجاب: لن أقوم بتعطيلك عن أعمالك، كما أني مفتقد لحفيدي مسلم ولابنتي سأذهب لزيارتهم الآن، وقد سبقتني زوجتي إليهم.

ابتسم أمير، ثم صافح أبا جندل قبل انصرافه، وبعد مغادرة أبي جندل، ظل أمير يطالع بعض الأوراق في اهتمام شديد، حتى طرق بابه فقال: تفضل، يا أبا حسام.

دلف المكتب مساعد أمير أبو حسام السوري، قائلا: يا سيدي، هناك أحد المواطنين يريد أن يقابلك، ويقول إنه أمر ملح، وعندما حاولت الاستفسار منه عن الموضوع قال: إن أمر شخصي.

رفع أمير عينه من على الأوراق، ونظر نظرة مطولة لأبي حسام، ثم ابتسم ابتسامة ساخرة قائلا: أمر شخصي، عجيب.

ثم أشار لأبي حسام بالانصراف وهو يقول: دعه يدخل.

تطلع أمير على الشخص الذي دخل مكتبه، كان رجلًا قصير القامة ليس ببدين إلا أن لديه كرش كبير، جعله يبدو كأنه شدة البدانة، حاول أمير تذكر وجه هذا الرجل إلا أنه عجز عن ذلك.

أشار أمير للرجل بالجلوس، فلما اتخذ الرجل له مجلسا، قال أمير: أخبرني أبو حسام، أنك تريدني لأمر شخصي، فما هو؟

جلس الرجل صامتا يراقب أميرًا برهة من الوقت، مما استفز أميرًا الذي قال: يا أخي لدي وقت لا أريد أن أضيعه، ماذا تريد مني؟!.

قال الرجل: لدي رسالتان لك من القيادة.

تطلع إليه أمير في شك: أي قيادة؟

واصل الرجل كلامه وكأنه لم يسمع أمير: أما الرسالة الأولى فهي شخصية بالفعل، لقد توفي زكي بك في حادثة سيارة.

انتفض أمير من مكانه قائلا: ماذا تقول يا هذا؟!.

لم يعر الرجل كلمات أمير اهتماما، وأخرج مظروفًا ناوله لأمير وهو يقول: وهذه الرسالة الثانية.

في دهشة تناول أمير المظروف، وفضه فأخرج الرسالة الورقية، وما إن تطلع عليها حتى ارتسمت الدهشة على وجهه، كانت الرسالة من المخابرات العامة المصرية، الشفرات والرموز هذه هي ما اتفق عليها معهم قبل سفره، إذا فقد بدأت مهمته الفعلية، أخذ أمير يقرأ الرسالة وقد دب الفزع والرعب في قلبه، مع كل سطر يقرأه من الرسالة، وما إن انتهى منها، حتى نظر للرجل قائلا له: هذا مستحيل.

قال له الرجل في لا مبالاة: لا أدري ما تحويه الرسالة، وليس لك حق في أن تروي ما فيها لأي شخص مهما كان.

قام الرجل مستأذنا، وقبل أن يغادر الغرفة التفت لأمير قائلا: ولا تنس التخلص منها.

وانصرف الرجل، أما أمير فقد قال : هل يعجلون بنهايتي، إنهم ليعلمون إنه أمر دونه خرط القتاد.

****

أسند البغدادي ظهره على أريكته، وفي تواضع مدد جسده وقد أسند عصاه بجانبه، ثم وجه وجهه للقحطاني –الذي كان جالسا أسفل الأريكة محتبيًا- قائلا: هل بعثت بأوامرنا الجديدة على الشام.

هز القحطاني رأسه بالإيجاب، قائلا: أجل يا سيدي بكل تأكيد.

ثم تساءل قائلا: ولكن يا خليفة المسلمين، لا أدري سر إبقائك للشيشاني كقائد عسكري في الشام، وقد كان من السهل القضاء عليه فور عودته.

ابتسم البغدادي قائلا: صالح المسلمين يا قحطاني، إن الشيشاني قائد مغوار، وقد أثبت ذلك بانتصاره الأخير، فلن أغلّب انتقامي منه على ما فيه صلاح للأمة ولدولتنا، وقد احترزنا من شطوطه بتعيين أبي أياس واليًا مدنيًا على الشام، لا يقطع أحدهما أمرا إلا بإذن الآخر، وبهذا أمنت جانب الشيشاني، وجانب أبي إياس.

قال القحطاني في دهشة: وهل بدا لك من الأخير شيئًا تنكره؟

هز البغدادي رأسه نافيا، ثم قال: ولكن لا يؤمن أحد إذا صار السلطان بيده أن يتمرد، خاصة وأن الله قد كتم عنا السرائر،

وما الجولاني والشيشاني عنا ببعيد، وأبو إياس وإن كان قد لم نعلم عليه من سوء فخفاء ماضيه عنا لهو مدعاة للشك والريبة، نضرب كل واحد بالآخر ونأمن جانب الاثنين.

ابتسم القحطاني قائلا: خليفة المسلمين أعلم وأحكم.

****

أخذ آسر يدور بعدسة الكاميرا في شوارع سامراء، كانت الأبنية القديمة والشوارع العتيقة قد أسرت لبه، قسمات وجوه الناس، ما يرتدونه من ملابس.. كل هذا كان باعثًا ليؤدي عمله في حماس شديد، وأثناء سيره لفتَ نظره ربوة خضرة على بعد أمتار منه، فسارع الخطوات لعله يجد في تلك الربوة ما يستحق أن تسجله عدسته، فلما اقترب فإذا به بفتاة جالسة أسفل شجرة، وقد صوبت عيناها للسماء، ركز عدسته إليها وأخذ يقترب منها حتى شعرت بوجوده فالتفت نحوه، فما إن رأى وجهها والتقت عيناهما، حتى سقطت الكاميرا من يديه، وتحجر جسده كالصنم دون أن يتفوه بأي كلمة، أما هي فقد سارعت بتغطية شعرها المنسدل بغطاء الرأس، وقالت: ماذا تريد يا هذا؟

لم يجب، بل ظل ينظر إليها في جمود، أما قلبه فقد كان يخفق في قوة واضطراب، فأوجست منه خيفة، وهمت بالانصراف، إلا أنه جاهد لسانه على النطق فقال: فاطمة.

ما إن سمعت اسمها حتى جمدت مكانها، ونظرت إليه نظرة مطولة، وفي دهشة سألته: وهل تعرفني يا هذا؟!

قال في عذوبة وقد أطال النظر لعينيها: بالتأكيد أعرفك فقد تقابلنا من قبل.

قالت متعجبة: وأين هذا؟

أشار إلى رأسه: هنا.

نظرت إليه باستنكار، وتعجب، أما هو فواصل كلامه: هنا في عالم الأحلام والخيال، وما كنت أظنك قبل اليوم واقع.

تأملته في دهشة، في حين قال: فاطمة، أنا أحبك.

كسى وجهها حمرة الخجل، ثم سارعت في العدو مبتدعة عنه، أما هو فوقف قليلا مفكرا، ثم انطلق خلفها في سرعة، تاركا خلفه الكاميرا.

****

ظل أمير يتقلب على فراشه تقلب المحموم، وبعد ساعة قام لفناء المنزل حتى لا يزعج أرقه أهله ويوقظهم، ولكنه لم

يدري أن الأرق لم يكن من نصيبه وحده، فقد شاركته إياه زوجه، إلا أنها اصطنعت النوم، وقد علمت أن زوجها قد استسر بخبر ما، وأنه بسببه في هم شديد، ولكنها لم تشأ أن تتنسم الخبر، حتى ينميه هو، فظلت مستقرة في سريرها، أما هو فكان منشغلا بتلك الرسالة التي قرأها، وهذا الشخص الذي قابله، يراجع تفاصيل المقابلة وتفاصيل الرسالة، كان محتوى الرسالة هو أمر بإرسال تفاصيل عن مواقع عناصر بيت المقدس في سيناء، وإرسال تقريرًا كاملًا عن مخططات عناصر بيت المقدس سواء داخل مصر أو في سيناء أو مخططاتها ضد إسرائيل.

بدأ التنازع في نفس أمير، بين عقله وقلبه، فهو لم يحاول منذ ظهور نجمه في هذه الدولة أن يكاشف نفسه أو يحدثها، لم يكن يريد حتى أن يعرف هل ما هو عليه صواب أم خطأ، كان يستلذ بالنجاح ويستلذ بالمكانة التي وصل إليها في كنف هذه الدولة، قد نال فيها كل ما حُرمه في حياته.. تقدير لمواهبه.. مكانة كبيرة.. ومركز مرموق.. مصاهرة يفخر بها، أما مصر فما نال منها؟ اليتم.. الفقر.. القهر.. والفضيحة، كان يعلم جيدا أن المقارنة دائما في صالح

الدولة، ولكن ما لقلبه يعتصر ألما كلما سمع عن مقتل جندي مصري على يد رجال بيت المقدس؟! ولماذا كان دائما يتجنب المشاركة في أي ترتيب أو تخطيط لولاية سيناء، لماذا ينتفض قلبه رعبا كلما تخيل حربا تخوضها الدولة على مصر.

أطلق زفرة أخرج معه تلك النار المتأججة في صدره، يعلم أن عصيانه الأمر لا يعني سوى أمر واحد وهو الخيانة، وأن طاعته للأمر قد تعصف بكل ما بلغه.

- كم أشتاق لسيجارة الآن.

قالها أمير هامسا، وأفزعه صوت زوجته الذي أتاه من خلفه يقول:

- السيجارة ليست الحل، ومن غيرها استطاع عقلك في عمل المستحيل.

التفت أمير لزوجته وهو يقول: ما الذي أيقظك يا مرام؟

أجابته وقد طوقته من ظهره بذراعيها: وكيف لي أن أنام وزوجي تعصف به الهموم.

قال أمير وهو يتأمل السماء: لقد أتتني رسالة من مصر بموت زكي بك في حادث سيارة.

قالت مرام: إذا فقد انتقم الله لك، وفي الآخرة ينتظره العقاب الأكبر.

قال أمير: لقد أفلت من انتقام كنت أعده له.

قالت مرام: وما الخبر الذي جاءك من مصر فأهمك.

نظر لها أمير في دهشة قائلا: وما الذي جعلك تعتقدين أن هناك خبرا آخر.

قالت مرام: إحساس، وما كنت لأخبرك به أو استفهم عنه، ولك الخيار في إخباري من عدمه، ولعله يخص عملك القديم، وهو من الأسرار التي لا يباح لك كشفها.

قال أمير وقد تطلع لزوجته في إعجاب: كان المفترض لك العمل معنا، ذكاؤك مخيف.

فقالت في دلال: إلا أنه مسخر لك لا عليك.

تنهد أمير ثم قال: مهمة قد كلفوني بها.

قالت: من المخابرات المصرية.

هز أمير رأسه بالإيجاب، ثم قال: يريدون أن يعرفوا مواقع لبيت المقدس ومخططاتهم القادمة اتجاه مصر وسيناء وإسرائيل.

قالت مرام، وقد فاجئها ما قالها أمير: يا إلهي إن الأمر جلل، ماذا الذي تنوي فعله؟!

قال امير: لا أدري يا مرام، لا أدري أين أضع ولائي وانتمائي، ولمن اعمل: {مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء}.

لا أنكر فضل الدولة عليّ، فقد نلت منهم ما لو عشت الدهر كله ما بلغت عُشره في بلدي، وآخر منة منها كانت أنت، ولكني مصري، انتماء عجيب لم أكن أتوقعه في نفسي، أسبها ألعنها وأحيانا أكرهها، حتى إذا جاء وقت الموازنة بينها وبين غيرها، لا أجد نفسي إلا واله بها لا يماثلها في قلبي شيء.

قالت في حدة: شيء!!.

استطرد أمير مبتسما: أنت لا تقارنين بشيء لأنك كل شيء.

أظهرت عدم اقتناعها إلا أنها أشارت له بمواصلة الكلام فقال: كنت دائما أسخر ممن يتكلم عن أنها أم الدنيا وأنها وأنها...، وكنت أقول كلام إنشاء لا وجود له، حتى حدث ما حدث معي.

ابتسمت مرام وقالت: إذا فقلبك مع تنفيذ المهمة.

قال أمير: ولكن عقلي يأبى ذلك.

قالت مرام في حزم: أطع قلبك يا أمير، ولا تعجب من كلامي فولائي لم يكن يوما للدولة، وقد صار انتمائي لك ولولدنا.

ساد الصمت قليلا حتى استطردت قائلة: ولكني أعيذك أن تكون من الخائنين، بيت المقدس أولا وآخرا تنظيم مبايع للدولة وليس منها، وغالبهم من التكفيرين فالقلب لا يميل إليهم، فإبلاغك عن بعض مخططاتهم القادمة، وكشف مواقعهم وهي في جبال سيناء لأمر لا أرى فيه خيانة للدولة، خاصة وأنهم أتقن من جيش بلادك في معرفة الجبال والحرب فيها، ولكن إياك إياك أن ترسل أي معلومة خاصة بالدولة في ولاية العراق أو الشام تعين بها قوات التحالف علينا، فلو فعلت ذلك كنت خائنا لله ولرسوله وللمجاهدين.

قال أمير: أحسنت النصيحة يا مرام، واطمئني فمصر لا ولن تعبأ بتلك الحرب، وإن أعلن غير ذلك.

قالت المرام: إذا فقل لي كيف ستحصل على ما تريد من معلومات.

نظر أمير نظرة مطولة لمرام، اندهشت لها مرام ثم هزت رأسها نافية قائلة: لا أظنك تقصد ما يدور في خلدي؟

قال أمير: ليس هناك وسيلة أخرى غير ذلك.

قالت : لا تورط أبي في الأمر يا أمير ... رجاءً أبعد أبي عن هذا الأمر.

قال: أي وسيلة غير ذلك بها خطورة كبيرة.

قالت : ولكن يا أمير إنه والدي.

قال أمير وهو يحتضنها: ووالدي أيضا يا مرام، يعلم الله أني أجد والدي في طيبته، ولكنها أأمن طريقة، كما أنه لا ضرر عليه في ذلك.

تطلعت مرام لأمير في قلق، إلا أنه ضمها إليه قائلا: لا تقلقي يا حبيبتي، فعمري فداء لك ولأسرتنا كلها.

لم تطمئنها كلمات أمير، ولكنها أغرقت نفسها في حضنه متلمسة للأمان فيه، ولكن إحساسها الذي لا يخطئ أعلماها أن الآتي لا يحمل سوى الخطر والدم.

****

- وصلتنا رسالة أمير وقد أرسلها عميلنا بالموصل.
قال ذلك أحد الضباط، وهو يناول رئيس المخابرات الرسالة، ففضها ثم شرع في قراءتها بتمهل شديد: ثم التفت للضابط قائلا في حماس: رائع صلني بوزير الدفاع حالا.
أدى الضابط التحية العسكرية ثم انصرف، في حين التفت رئيس المخابرات للمحيطين به قائلا: المعلومات التي أرسلها أمير في غاية الأهمية، فقد أرسل تقريرًا كاملًا عن مواقع جنود أنصار بيت المقدس، في سيناء والقاهرة بالتفصيل، كما أرسل تقريرًا كاملًا عن ضرباتهم القادمة خلال عام كامل.
قال أحد الرتب الموجودة بجانب رئيس المخابرات: لقد كانت فكرة زراعته هناك فكرة عبقرية بحق، ولعلنا الجهاز الوحيد الذي اخترق داعش حتى الآن، وقد نبيع بعض هذه المعلومات لبعض الدول الأخرى.
رد رئيس المخابرات في حدة: نحن لسنا مأجورين يا هذا، وعملنا فقط لخدمة هذه البلد.

فتطلع إليه الرجل في اندهاش قائلا: إذا فما وجه الاستفادة من إرساله لهناك، وكان من الأيسر إرساله لسيناء فهي ما يهمنا.

أجاب رئيس المخابرات: كان الغرض من إرسال أمير لهناك، هي دراسة هذا التنظيم الوليد، ومعرفة مدى خطورته علينا وعلى المنطقة ككل، ومعرفة من وراءهم تمويلا وتنظيما، أما تقلد أمير هناك للمناصب فلم يكن في الحسبان، وقد ساعدنا طول الفترة الماضية في حسم بعض المواقف ومنها الإحجام عن المشاركة في هذا التحالف و....

قاطع كلامه رن الهاتف، فأمر الجميع بالانصراف، وتناول السماعة وهو يقول: يا سيادة الوزير لدينا أخبار عظيمة بخصوص سيناء.

****

الفصل الخامس عشر
آخر الأوراق

تطلع أبو إياد لأمير طويلا في صمت، مما بث القلق في نفس أمير، ومما زاد من قلقه تلك النظرة والابتسامة الساخرة التي كانت على محيا أبي إياد، قال أمير بنفاذ صبر: هل من خطب يا سيدي.

اعتدل أبو إياد مصطنعا الجدية ثم قال: بالتأكيد يا أمير، أتتذكر أول لقاء لنا؟

بدأ الشك يلامس قلب أمير في انكشاف أمره، إلا أنه أجاب في ثبات: بالتأكيد يا سيدي.

قال أبو إياد: رائع، وقتها وجدتك شخصا أهلا للثقة خصوصا بعد علمنا بما حدث معك في مصر.

زاد الشك في قلب أمير، واكتفى بابتسامة، فواصل أبو إياد قائلا: وأظنك لا تنسى نديم بك، وتلك الملفات التي تخصك وقد ابتزك بها.

قال أمير في دهشة: نعم يا سيدي.

قال أبو إياد: لقد تم إعدام تلك الملفات كلها، عند تدمير المبنى الذي يعمل فيه بالكامل، عن طريق جنود ولاية سيناء منذ قليل.

ألجمت المفاجأة أمير، والذي تطلع باندهاش لأبي إياد، والذي ابتسم وهو يقول: بالتأكيد عرضك وسمعتك من سمعتنا يا أمير وهذه هدية بسيطة نكافئك بها على ما تقدمه للدولة من نهضة وعلو.

قال أمير في فرحة: جزاكم الله عني الخير، وهذا المنة الثانية التي تطوق عنقي بها، أولها حياتي والآن عرضي، ولا أدري كيف أرد لك صنيعك بي يا سيدي.

قال أبو إياد: المنة كلها لله، أما عن رد الجميل، فسيكون بلا شك، ولكنه في وقته.

رن هاتف مكتب أبي إياد، فالتقط السماعة، وأخذ يستمع لمحدثه في اهتمام حتى انتفض من مكانه فجأة، قائلا: إنا لله وإنا إليه راجعون.

وما إن أغلق السماعة حتى نظر لأمير قائلا: طائرات قوات التحالف قامت بتفجير إحدى القاعات السرية المعدة لاجتماع

قادة الحرب، وقد استشهد سبعة من قادة الحرب، منهم حماك أبو جندل رحمه الله.

****

احتضن أمير زوجته قائلا في مرارة : إنا لله وإنا إليه راجعون لله ما أخذ ولله ما أعطى وكل شيء عنده بقدر، لقد مرت ثلاث ليال منذ استشهاد عمي، ولا تكفين عن البكاء.

قالت مرام وهي تحاول أن تغالب دموعها: ولن يبرد صدري حتى أعلم من الخائن الذي وراء هذا الحادث، من الذي أبلغهم عن موقع أبي ؟

التفتت لأمير قائلة: أنت الوحيد القادر على معرفته يا أمير.

عقد أمير حاجباه وهو يقول في دهشة: ماذا تقصدين بأني الوحيد القادر على معرفته.

قالت وهي تمسح دموعها بكفيها: لا أقصد ما نما إليك، فأنت زوجي وحبيبي وثقتي، ولكني أقصد أنك القادر على الاتيان بهذا الخائن.

قال أمير: ما أعلمه الآن أن أجهزة الدولة في حالة تأهب قصوى في التحقيق في الأمر، إنه لمصاب كبير للدولة أن تفقد سبعة من قادة الحرب، وما علمته أنه ثمة شكوك

تساور الدولة اتجاه بعض القيادات فيها، فهذا المكان لم يكن يعلم بوجوده إلا قلة، وأظن أن الشكوك تحيط بهم الآن .

نظرت مرام لأمير نظرة مطولة قبل أن تقول: لم تخبرني كيف حصلت على الأوراق التي كانت مطلوبة منك من قِبَل جهاز المخابرات، هل أخذتها من مكتب أبي؟!.

وبمجرد ذكرها لأبيها انفجرت دموعها، إلا أن أميرًا ضمها لصدره وهو يقول: لم آخذه من مكتب أبيك رحمه الله، بل من مكان آخر.

نظرت إليه في تساؤل، فهمّ أن يجيب، إلا أن صوت قرع الباب الشديد قطع حديثهم، فهرول أمير لفتح الباب، فإذا به بعدد كبير من الجند قد أحاطوا بالمكان، وقبل أن ينطق أمير أزاحه أحد الجنود جانبا، واقتحموا المنزل، فقال أحدهم: هناك أمر من خليفة المسلمين بالقبض عليك الآن وإرسالك له، فاذهب وارتد ثيابك فورا.

فاستجاب أمير وعلى الفور دخل غرفته وقد علا صوت بكاء صغيره، وقامت إليه زوجته في رعب وهي تسأله: ما الذي يحدث في الخارج؟

قال أمير في عجلة: يا مرام، استمعي لما سأقوله جيدا، لو حدث لي أي مكروه فهناك بعض الأوراق الهامة وقد وضعتها في جيب سترة عرسنا.

قالت في حنق: وما الذي من الممكن أن يحدث لك، وما في هذه الأوراق.

قال أمير : ستعلمين وستحسنين التصرف أنا واثق بك.

وقبل أن تنطق ضمها لصدره وقبّل جبينها، جاء طرق من الخارج يتعجله، فارتدى ثيابه بسرعة، وقبل أن يخرج احتضن ابنه وقبله، ثم خرج مستسلما للجنود، وفي لهفة ومرارة تابعتهم عيون مرام وصرخات مسلم.

****

- لماذا تم القبض عليّ يا أبا إياد، ما الجرم الذي اقترفته كي أعامل هكذا.

ابتسم أبو إياد في سخرية قائلا: لقد كُشف كل شيء يا أمير، أتراك تظننا غافلين عنك أيها الخائن.

قال أمير في غضب: عن أي خيانة تتحدث؟! لا أفهم ما ترمي إليه.

التقط أبو إياد من جيبه ظرفًا ثم ألقاه على أمير قائلا: هذا دليل خيانتك.

تناول أمير الظرف مرتجفا وما إن فتحه ونظر للصور التي فيه، حتى ارتسم الرعب على وجهه، وغمغم: ولكن... كيف؟

قال أبو إياد في تهكم: كيف، ليس السؤال المناسب، فلا يهم كيف، المهم الآن أنه قد تم اكتشاف الخائن الذي وراء ما حدث، أهذا هو رد الجميل يا أمير، حفظت لك حياتك وعرضك، أيكون هذا جزائي منك؟!.

نكس أمير رأسه في حين واصل أبو إياد كلامه: لأول مرة يخطئ حدسي باختيارك، إنها لمرارة تعتصر قلبي لفشلي الأول في حياتي كلها، وأنت السبب فيها، خليفة المسلمين ما إن علم بالأمر ووصلته الصور بل التقارير التي أرسلتها مع ذلك الأحمق للمخابرات المصرية، فقد احتفظ هذا الأحمق بنسخة عنده من بعض التقارير، لا أدري ما كان ينوي أن يفعل بها، على كل بعدما ذبحه الجنود هو الوحيد الذي يعلم الجواب.

صمت قليلا وظل يدق بسبابته المكتب ثم قال: أمر خليفة المسلمين بإقامة حد الحرابة عليك حتى تكون عبرة لكل من سولت له نفسه للخيانة.

لم يتكلم أمير بل ظل منكس الرأس، فقال أبو إياد في غضب: هل أكل الرعب لسانك أيها الوغد، على كل سترسل اليوم لولاية الأنبار فستحاكم هناك في صحرائها، ولتذهب للجحيم.

رفع أمير رأسه وقد علته ابتسامة ساخرة، فاجأت أبا إياد فنظر في دهشة لأمير، الذي قال: لست وحدي من سيذهب للجحيم فلست الخائن الوحيد هنا.

قال أبو إياد في تعجب: ماذا تقصد يا هذا.

قال أمير في حزم: هل أبدأ بالحديث عن أبي عبيدة المغربي محافظ الرقة، أم عن أبي عبد الله الكويتي بدير الزور، أم معمر توحله والي الموصل قبلي.

بكل رعب راح أبو إياد يحدق في وجه أمير، وقد تصبب عرقا، وفي توتر قال: مال هؤلاء وما نحن فيه.

ابتسم أمير قائلا: أنت أدرى.

ثم رفع يده في أداء مسرحي قائلا: أكبر شبكة تجسس تخترق الدولة، قيادي كبير من قادة الحرب، ومعه بعض ولاة ومحافظين الدولة، يا ترى لو سمع البغدادي بهذا ماذا سيكون رد فعله، خصوصا مع الأوراق والمستندات والصور التي في حوزة من أثق به الآن.

ضرب أبو إياد مكتبه بكفه وقال وهو يجز على أسنانه: أيها الوغد الحقير كيف تجرؤ.

قال أمير بثقة: لتعلم أن نهايتكم ترتبط بنهايتي، وأني أسديك معروفا بصمتي حتى الآن عنكم، ولولا يد لك علي لكانت هذه المعلومات في مكتب البغدادي من يوم الحادثة التي استشهد فيها حماي، ولكني لم أغلب انتقامي على وفائي لك، حتى كان ما كان منك الآن، فلو أصبت بشوكة أنا أو أحد من أهلي فاعلم أنها نهايتك يا أبا إياد ونهاية شبكتك كلها.

حاول أبو أياد التماسك فقال: لا سبيل لنا الآن سوى التفاوض.

قال أمير: جيد جدا، وفصل الخطاب: تهريبي وأهلي لمصر، فلا أظنك قادر على تبرئتي الآن.

هز أبو إياد رأسه بالموافقة، إلا أنه قال: وما الضامن لي لصمتك عني.

قال أمير: ليس هناك ضامن، سوى أنني لو شئت إيذاءك لفعلت من البداية.

قال أبو إياد: إذا اتفقنا، سأرسلك للأنبار، وهناك سأقوم بتهريبك.

تطلع إليه أمير في دهشة ثم قال: ولماذا تقوم بتهريبي من هناك، والأمر هنا سيكون أيسر لك.

قال أبو إياد: الشكوك لازالت تحيط بي وبالباقي من قادة الحرب، خاصة وأنا من أبقى بك على قيد الحياة ولن يستبعدوا تعاونا، أما هناك فأنت خارج سيطرتي، ومن السهل تهريبك عبر الصحراء.

قال أمير في حزم: أي تلاعب منك يا أبا إياد، سيكون جزاءه وخيم، فأنا أيضا لدي هنا رجالي.

قال أبو إياد: لا تقلق يا صديقي، ولكن قل لي كيف وصلت لهذه المعلومات.

ضحك أمير وهو يقول بخبث: هي نفسها الطريقة التي توصلتم بها لي في المرة الأولى.

لم يتكلم أبو إياد واكتفى باستدعاء الحارس قائلا: يرحل الآن لولاية الأنبار.

وما إن سحب الحارس أميرًا، حتى جز أبو إياد أسنانه في حنق، قائلا: هزمني هذا الوغد.

ثم قهقه فجأة في عصبية، وهو يقول: ولكن الأمر لم ينته بعد.

****

غمغم مدير المخابرات العامة المصرية: اجتمعت بكم اليوم لنناقش آخر رسالة وصلتنا من العراق.

فقال أحد الضباط: من أمير يا سيدي.

قال المدير في أسى: للأسف بل من زوجته العراقية.

تفاجأ الجميع وقال أحدهم: ماذا، وهل تعلم زوجته بأمره؟

قال المدير: للأسف الشديد أمير متهم هناك بقضية تخابر كبرى، وهي بسبب المعلومات الأخيرة التي أرسلها لنا، وكانت السبب في كشفنا عن بعض الخلايا الإرهابية داخل القاهرة، واقتحام بعض أوكارهم في سيناء وقتل المئات منهم، وقد قاموا بذبح عميلنا هناك في الموصل، وأظن أن أميرًا لا حق به.

قال أحد الضباط: وما الذي تريده بالتحديد.

قال المدير: اللجوء لمصر، هي وابنها المصري.

- الأمر مستحيل يا سيدي، أنت تعلم أن دخول داعش والخروج منها أمر مستحيل الآن.

عقد مدير المخابرات حاجبيه ملتفتا لذلك الضابط ثم قال: أمير فعل المستحيل وقضى فترة ليست بالقصيرة في هذا التنظيم وها هو الآن سيقدم حياته لبلده، فأقل ما نرى أن نفعله هو رعاية أسرته.

وقبل أن يتكلم أحد، قال مدير المخابرات: رئيس الجمهورية بنفسه مهتم بالأمر، وقد صدر أمره: أنه لا يمر أسبوع حتى تكون زوجة أمير وابنه في الأراضي المصرية.

****

وقف جنود الحشد الشعبي الشيعي، في صف وبثبات شديد في حين أخذ حيدر يسير حولهم في بطء، ثم وقف أمامهم قائلا: اليوم تم اكتشاف قاتل قائدنا العسكري الشيخ جعفر، فقد اعترف أحد من تم القبض عليهم من عناصر داعش، بأن من أعانهم على تنفيذ العملية هو

للأسف الشديد الإمام المرجع، انتقاما لابنته ولخلافات كانت قائمة بينهما، رجل باع آخرته بدنياه، خان الله ورسوله وأئمة آل البيت عليهم السلام فما جزاؤه.

قال الجميع في نفس واحد: الموت يا سيدي.

ابتسم حيدر في ثقة، قائلا: أحسنتم، اليوم يوم كربلاء وهو نفسه يوم انتقامنا لأحد جنود الحسين، وكأن الأيام ما توافقت إلا لتوافق النصر إن شاء الله.

قال الجميع في نفس واحد: اللهم صل على محمد، وعلى آل محمد.

قال حيدر: ولقد فوضني رئيس الجمهورية، أن أضرب بيد من حديد على كل من شككت بأمره، فما بالكم بمن تيقنا بخيانته، فلا يكن في قلبكم ضير مما سنقدم عليه، خاصة وقد راجعت أئمتنا الكبار، فأيدوني وباركوا مسعاي، ولولا أن لهذا الخائن ثلة قد ضللها لقبضنا عليه وأتينا به إلى هنا.. ذليلا مخذولا.

صمت حيدر قليلا ثم أردف: سنذهب اليوم في حسينية كربلاء، وستقفون ورائي صفا، لا تشهرون أسلحتكم في وجه شيعي قط، لن نذهب إلا للقضاء على الخائن،

وما إن أجهز عليه حتى تطلقوا رصاصاتكم في السماء كي يسكن الأمر، ولا يكون الهرج.

أدى الجميع تحيتهم العسكرية ثم انطلقوا وحيدر لتنفيذ المهمة.

****

جلس البغدادي يراقب عبر الشاشات محاكمة أمير، وبجانبه القحطاني، وكأن على رءوسهم الطير، كان البغدادي وقتها يسترجع لقاءه الأخير بأمير:

- قد أحسنا إليك أيكون جزاءنا منك، الطعن في ظهورنا.

قال أمير في خفوت: يا سيدي، والله يشهد أنني لست وراء ما حدث، وأنها مكيدة قد دُبرت لي.

قال البغدادي: أعلم أنك لست وراء ما حدث، ولكنك وراء قتل الكثير من رجالنا بمصر.

قال أمير في دهشة: تعلم يا سيدي.

قال البغدادي: كل التقارير والصور تفيد أنك أرسلت بأسماء رجالنا في بيت المقدس، مهماتهم وبعض مواقعهم، لبلادك، وهذا لا علاقة له بما حدث، وأنا أعلم أن بلادك لم تشارك في تلك الحرب فلا ناقة لها فيها ولا

جمل، ولكن ما فعلته أيضا أقل عقوبة له هو حد الحرابة، فهي في كل حال خيانة.

قال أمير: صدقت يا سيدي، ولكن ما يعيب رجلًا قد أخلص لقومه.

قال البغدادي في عصبية: أيها الأحمق، هذه هي الجاهلية، ولاؤك وبراؤك المفترض للإسلام، وليس لعصبتك أو قومك.

قال أمير: ولكن أفعال تلك الجماعة وأسلوبها في قتل جنود لا شأن لهم بما يحدث، أمر لا تطيقه النفس ولا يقبله دين.

غمغم البغدادي: إنها الحرب، الضرورات ونصرة الأمة وإقامة دولة الإسلام تبيح أي محذور، وتذكر أن لولا جنود فرعون ما كان له أن يبطش بموسى.

لم يمهل أمير فرصة للرد، حتى قال: ما أتعجب منه ذلك البلاء الذي أبليته معنا، كان من الممكن أن تقتل في أي معركة من المعارك التي خضتها، في سبيل دولتنا فكيف هذا؟

قال أمير: يا سيدي، يعلم الله أن جزءًا من ولائي لا يزال للدولة التي تريد توحيد المسلمين تحت راية واحدة، والتي تحمي الحرائر والأطفال من بطش الرافضة والنصيرية.. التي يقام العدل الحق فيها.. التي ينصر فيها الضعيف ويؤخذ على يد القوي التي تقدر فيها المواهب.. التي يكفل فيها الفقير وتقام فيها حدود الله.

ولكني أيضا أتبرأ من هذه الدولة التي تبطش بالمدنيين العزل مسلمين أو غير مسلمين وتمثل بالجثث، وتفجر المساجد، ولو كانت للحرب ضرورات فقد حرم الإسلام قتل هؤلاء رغم ضرورة الحرب.

والسيئات هنا تعكر الحسنات يا سيدي، وهو إيذان بنهاية الدولة كلها، فالظلم ظلمات وما جاء نصر بظلم.

قال البغدادي: أنت تعلم أن سيطرتنا على بعض الولايات المبايعة ليست بالقوة التي تمنعنا عن صدهم عن مثل هذا.

قال أمير: وأنا كل ما فعلته أنقذت أهلي من أفعالهم .

ساد الصمت قليلا، حتى قال أمير: ما رأيك يا سيدي في اتفاق نعقده.

قهقه البغدادي ثم قال محاولا وقف ضحكاته: اتفاق، وما هو هذا الاتفاق.

قال أمير: معي أسماء شبكة تجسس كبيرة تعمل داخل الدولة، قد كشفت لي مصادفة.

عقد البغدادي حاجباه في دهشة قائلا: شبكة تجسس.

قال أمير في ثقة: وهي التي كانت وراء ما حدث .

قال البغدادي: وما المقابل.

قال أمير: الأمان لي ولأهلي وإرسالنا إلى بغداد والسفارة المصرية ستتولى أمرنا هناك.

قال البغدادي: موافق بشرط.

تطلع إليه أمير في دهشة قائلا: وما هذا الشرط؟

قال البغدادي: ولاؤك يا أمير هناك.

قال أمير : هناك، لا أفهم يا سيدي.

قال البغدادي: نريدك أن تكون سفيرنا هناك في مصر، ودورك سيحين حينما يأتي الدور على بلادك.

ابتسم أمير قائلا: وما أدراك أني سألتزم بهذا الشرط؟

أجاب البغدادي: ستلتزم به، فإن كنت ذو وفاء لشعبك، فأنت تعلم أن حكمنا هو الأفضل لهم أليس كذلك؟

لم يجب أمير بل اكتفى بالابتسامة.

****

قاطع أفكار البغدادي، ذلك المشهد الذي ظهرت فيه تلك السيارات التي اخترقت الصفوف المحيطة بأمير المصلوب، وقد أطلق أحدهم رصاصات في سرعة ليصيب أقدام الرجل الملثم المكلف بإقامة الحد على أمير، والذي سقط أرضا وهو يتأوه، حاول الجنود المحيطين بالمكان قتال تلك الفئة الملثمة التي تغير عليهم، إلا أن أحد الجنود المغيرين قد أمسك بالقاضي الشرعي وصوب على رأسه سلاحه، آمرا الجنود بإلقاء أسلحتهم فورا، فاستجاب على الفور جنود الدولة، في حين قام بعض هؤلاء الملثمة بإنزال أمير من ذلك العمود الشاهق، وفي مشهد لا يتجاوز الخمس دقائق، اختفى هؤلاء ومعهم أمير، فحمل جنود الدولة اسلحتهم وتوجهوا إلى سياراتهم ليلحقوا بهؤلاء، واختفى المشهد وتوقفت كاميرات التصوير.

فالتفت البغدادي للقحطاني، وقال: قد نجحوا في إنقاذ الفتى في اللحظات الأخيرة، قد احسنت يا قحطاني في اختيار هؤلاء.

ابتسم القحطاني قائلا: بل الفضل لك يا سيدي، في الأمر بإنشاء تلك القوات الخاصة التي لا يعلم عنها سوانا، ندخرها للضرورات.

قال البغدادي: تأكد من دخول أمير لبغداد، ووصوله للسفارة المصرية.

قال القحطاني: ان شاء الله يا سيدي، لا تقلق، وستلحق به زوجه الليلة في السفارة إن شاء الله.

أخذ البغدادي يداعب لحيته، ثم قال بعد تفكير: وما فعلت مع الاسماء التي ذكرها أمير.

قال القحطاني: قبضنا على بعضهم، وأما البعض الآخر فأرى أن نؤخرهم إلى حين حتى نتوصل للجهاز الذي يعملون له، وهل هناك ثمة آخرين، ومن يرأسهم هنا.

قال البغدادي في تعجب: وهل تظن أن هناك من يرأسهم هنا.

قال القحطاني: بالتأكيد يا سيدي، فهؤلاء ليس لهم إدارة شبكة كبيرة كهذه، ولا أظن إلا أنه قد تم تجنيدهم وهم داخل الدولة، فما علمنا عليهم من سوء قبل التحاقهم بنا.

قال البغدادي: الحرب القادمة ليست عسكرية فحسب بل هي حرب مخابراتية وهي أصعب.

هز القحطاني رأسه إيجابا، وقد اصطنع ابتسامة على وجهه، أما قلبه فقد كان متقدا نارا لتلك الثغرات التي وقع فيها جهازه فهو لا يحب الفشل.

****

الفصل السادس عشر

نهاية البداية

كان عرس آسر وفاطمة عرسا مشهودا، فقد حضره كل أهل سامراء تقريبا، وعلت الزغاريد المكان وجلس الرجال متحلقين حلقا تتوسطهم الموائد، أما آسر فقد كان جالسا في كرسي عال يتوسط الساحة المعدة لاستقبال الرجال، وقد توالت الفقرات من قراءة للقرآن، لأنشودة إسلامية، لكلمات قصيرة لبعض دعاة الدولة، كان يتابعها آسر بفرحة عارمة، وحوله مجموعة من أصدقائه، يستقبلون معه الوافدين لتهنئته، كان آسر يرتدي جلبابًا أبيضًا فضفاضًا، تزين أكمامه بعض الخيوط الذهبية، وشماغًا قد غطى به رأسه، وقد ظنه البعض عراقيًا، حتى إذا سمعه يتحدث تيقن أنه مصري، وفي آخر هذه الساحة، كان حيدر والسامرائي متكئين كل منهم على وسادة، وفوق ذلك البساط المفروش، ابتسم حيدر قائلا: الآن فقط يرتاح قلبي.

قال السامرائي: طبعا حق لك قول هذا، قضيت على عدوك، وتزوجت أختك.

قال حيدر وقد ارتسم الحزن في عينيه: لا ينقصنا سوى وجود والدنا في هذه الليلة.

قال السامرائي: ألم أقل لك سنجده إن شاء الله، فلم القلق، رجالنا يبحثون عنه في كل مكان لا تقلق.

ابتسم حيدر قائلا: لا أدري كيف أوفي ما تفعله معي يا أخي.

قال السامرائي: لا دين لك عندي كي توفيه، إلا المودة والحب في الله.

ثم قال مازحا: كما أننا متعادلان يا صديقي، قضيت لي على أعدائي وساعدتك في القضاء على أعدائك، وحفظت لك أهلك حتى عودتك، وأنقذت لي أهلي من قبضة هؤلاء.

قال حيدر مغيرا مجرى الحديث: آسر هذا هل أنت واثق بأخلاقه وطباعه.

قال السامرائي: يا حيدر لقد سألتني هذا السؤال أكثر من مائة مرة، وأجبتك نعم، فقد زكاه من أُحسن الظن به، وهو شاب مصري من أسرة ميسورة بمصر، هاجر هنا ليشهد إقامة دولة الإسلام، وعمله في المجال الإعلامي للدولة، وهو شاب

مثقف جدا، وعلى خلق ودين، اطمئن ففاطمة كابنتي لن أتخير لها إلا الأفضل، كما أنها وافقت عليه، وقد راعى هو ما مرت به من ظروف.

اكتفى حيدر بالابتسامة، ثم ربت على كتف السامرائي في ود، وعاد يتابع فقرات العرس، أما السامرائي فواصل كلامه قائلا: ولكن ما تنوي أن تفعل بخصوص زهراء ومنصبك هناك.

التفت حيدر للسامرائي قائلا: انتهت اللعبة يا أخي، أما زهراء فيكفي ما تعانيه الآن من فقد الزوج والأب، وأما عن منصبي فالأمر صار مستحيل، فما وصلني الآن من بعض من ولاؤه تابع لي، أن رأسي مطلوبة عندهم، فبعد قتل الإمام المرجع، وعلمهم بوجود أسرتي لديكم، واختفائي المفاجئ، لا أظن أن عودتي عندهم ستكون محمودة.

ضحك السامرائي، قائلا: إذا فستستقر معنا هنا في سامراء.

قال حيدر: مؤقتا إن شاء الله.

قال السامرائي: فما وجهتك بعد ذلك يا حيدر.

قال حيدر في ثبات: الانضمام لدولة الإسلام إن شاء الله.

كبر السامرائي، ثم عادا لمتابعة فقرات العرس، وقد علت كلاهما ابتسامة النصر.

****

أراح أمير رأسه على مقعد الطائرة المتجهة لمصر، وهو ممسك بكف زوجته التي كانت محتضنة بيدها الأخرى رضيعهما، وقد تنهد في ارتياح، قائلا: أخيرا مصر.

ابتسمت قائلة: بل أولا مصر.

ابتسم هو الآخر، والتفت للنافذة المجاورة متأملا الأرض، فقالت ساخرة: لا أعلم لماذا قمت بكل هذا، اتفاق مع أبي إياد، ومع البغدادي، ثم جعلتني أتواصل مع جهاز بلادك، أما كان يكفي أحدهما.

التفت إليها أمير قائلا: لم أكن لأعلم أيهما يصدق معي ويسعى لإنقاذي، وإلا فكيف أعرف الصادق منهم من الكاذب، أما أبو إياد، فلم يصنع لنا شيئا، أو بمعنى أصح لم يستطع أن يفعل لنا شيئًا، وأما جهاز بلادي فكنت أدخرهم إذا فشل اتفاقي مع البغدادي أن يخرجوك وابني من هذه الدولة لمصر، ولم يصدُقني سوى البغدادي، كم أنا معجب بهذا

الرجل الصلب، ضربات من الخارج، وخيانة في الداخل، ولا يزال بهذا الثبات العجيب.

قالت مرام: ولكن ما يدهشني أنك أبلغته بكل عملاء أبي إياد، ولكنك لم تخبره شيئا عن أبي إياد، وهو من أوردك كل هذا.

قال أمير: أبو إياد ورقة في يدي أدخرها لباقي الأيام.

لم تفهم مرام مراد أمير، فاكتفت بالابتسامة، ثم قالت: طالما سمعت عن مصر، ولكم تمنيت قديما زيارتها.

قال أمير: ها أنت ستكونين من أهلها، بل من علية أهلها.

قالت مرام: من علية أهلها وكيف ذلك؟! لم تحدثني أنك بهذا الثراء.

قال أمير: لعلي نسيت أن أقول لك، لقد كلمني رئيس الجمهورية بنفسه حينما كنا في السفارة، وقد عرض عليَّ منصبًا كبيرًا في مصر.

ابتسمت مرام في فرح، ثم شرعت في إسكات مسلم الذي صرخ باكيا، أما أمير فعاد يتأمل الأرض من علوه.

****

- قد صرْتَ الآن يا أحمد من خيرة جنود ولاية سيناء، إن لم تكن أفضلهم على الإطلاق، وقد أشاد بك كل القادة هنا،

خصوصا بعد نجاحك في عملية تفجير مديرية أمن المنصورة، ثم اغتيالك لشخصية كزكي أحد المحاربين للتيار الإسلامي ككل، ثم تسللك لمبنى أقوى جهاز مصري وتفجيرك لبعض الأوراق الهامة هناك، ثم قدرتك على الهروب من تلك الشقة التي تفطّن الأمن لوجودكم فيها، كل هذا كان كافيًا لتصبح اليوم قائد من قادة ولاية سيناء.

امتدح بهذه الكلمات والي ولاية سيناء أحمد، الذي وقف في ذهول ودهشة من هذه الترقية المبكرة، وهو لم يمضي الكثير هنا.

أما جميع الحضور فقد علا أصواتهم بالتكبير، وقد نظروا لزميلهم نظرة إعجاب، لتفوقه وبلوغه هذه المرتبة الكبيرة في هذا الوقت القصير.

قال أحمد: يا سيدي، أنا لا أريد أي منصب أو قيادة وليس من أجل هذا جئت إليكم، كل ما أريده هو إعلاء كلمة الله، والقضاء على هؤلاء القتلة.

ربت والي سيناء على كتف أحمد وهو يقول: ولهذا وليناك يا أحمد، فنحن لا نمنحها من طلبها، بل من زهد فيها، وأنت أحق الناس بهذا المنصب.

لاذ أحمد بالصمت، في حين قال والي سيناء بجدية: لقد أرسلت إلينا أوامر من القائد العظيم أبي إياد، باغتيال إحدى الشخصيات التي أدت للكشف عن مكان بعض سرايانا ومهماتنا للأمن المصري، وهذه صورته وهذه بعض التقارير التي أرسلها للأمن المصري عنا.

أخذ يناول الصور وبعض الأوراق لبعض الجالسين، وهو يقول: كان هذا الخائن أحد جواسيس المخابرات المصرية، وقد استطاع الهرب والعودة لمصر، في حماية المخابرات.

ثم التفت لأحمد قائلا: عملية اغتياله كلها بيدك الآن يا أخ أحمد، والله ناصرك.

تطلع أحمد لصورة أمير محاولا حفظها، ثم قال في ثبات: أبشر بالخير، سيكون ما أردت يا سيدي.

وكبر الجميع.

****

في فخر وكبرياء كان نديم يستقبل الضيوف من علية القوم في فرح ابنته على الطبيب محمد فوزي، ووقف بجانبه صلاح، مال صلاح لأذن نديم وهو يقول: لقد عاد يا سيدي.

عقد نديم حاجباه في غضب قائلا: أمير تقصد... لقد علمت بذلك، ما لنا وإياه، قد انقضى الأمر، اليوم تتزوج ابنتي من دكتور كبير كريم النسب، كما أنها هي من اختارته ووافقت عليه، فلا خطورة من وجوده إذا.

قال صلاح هامسا: وكيف حال التحقيقات التي تخضع لها منذ حرق ملفات هامة بإدارتنا.

قال نديم: أهذا وقت مناسب للحديث عن المصائب يا صلاح، على كل لا تقلق لقد مررنا بما هو أصعب من هذا.

ابتسم صلاح، ثم استأذن من نديم ليشارك بعض القادات في إدارتهم الجلوس على إحدى الطاولات، وما إن جلس حتى همس رجل بجواره في أذنه قائلا: هل علم نديم بك بالقرارات الأخيرة.

قال صلاح بخبث: لم أستطع أن أخبره، ولكنه سيعرف على أية حال، والأفضل أن يكون من غيري.

قال الرجل: أظنه سينهار إذا علم، أنه قد أقيل من منصبه بعد الأحداث الأخيرة، وتجاوزاته التي بدت رائحتها تزكم أنف الجميع.

ابتسم صلاح في مكر قائلا: بل سيموت كمدا لو علم بمن عُيّن مكانه في هذا المنصب.

ضحك الرجل قائلا: تقصد أميرًا.

أومأ صلاح برأسه إيجابا، وقد تعالت ضحكاتهم، وهم يتابعون حفلة العرس

****

- نخب انتصارنا الأخير.

رفع الجميع كؤوسهم، وكلهم ردد نفس الكلمة: نخب انتصارنا الأخير.

قال كبيرهم: الآن فقط نستطيع أن يهنئ بعضنا البعض، بعد قطع شوط كبير في هذه الحرب.

قال آخر: يا سيدي إرسال (ص) هناك كان أمرًا في منتهى الذكاء، هو فقط الذي كان قادرا على النجاح في مهمته، فقد تخلص من غالب قادة دولة البغدادي وأهم رجاله، بل وقام بتجنيد الكثير من الرجال بديلا عنهم، حتى صارت دولة البغدادي خاتمًا يستدير بأصابعنا.

قال كبيرهم: وبهذا نثبت أننا خير خلف لسلفنا، قد عادت قوى المسلمين المختلفة تحت سيطرتنا الآن، نضرب هذا

بهذا، وذلك بتلك، فلم يبق للمسلمين سوى ما نطرحه لهم من خيارات، ليبرالية أو اشتراكية أو حتى إسلامية، المهم أنهم لن يخرجوا خارج الإطار الذي رسمناه لهم.

قهقه آخر قائلا: وإن أبوا إلا الخروج عن طاعتنا لم يتبق أمامهم خيار سوى داعش المتوحشة التي تقتل وتسفك وتبطش.

قال أحدهم: ولكن لا يزال هناك البغدادي وبعض فلوله، وهم بلا شك خطر كبير.

قال كبيرهم: لن يمضي الكثير من الوقت حتى تصير أخبارهم أساطير لا تُذكر إلا للتعوذ منها، ستنتهي أسطورة وحلم البغدادي، كما انتهى سلفه، وتصير دولته كلها لنا كأخواتها.

ضحك الجميع ورفعوا كؤوسهم قائلين: نخب دولة البغدادي.

****

- هل ثمة حل يخرجنا من ذلك النفق الذي نحن فيه الآن، الضربات علينا متلاحقة، وهناك اعتراضات من الجنود

على بعض ممارسات التكفيرين، و ... هل أنت معي يا سيدي.

قالها القحطاني، وهو يقف خلف البغدادي والذي كان جالسا في صمت متأملا تحركات أغصان الشجر مع الرياح، ثم لفتت انتباهه تلك الورقة التي سقطت من الشجرة وظلت تتقلب بين أجنحة الرياح حتى استقرت على الأرض وقد دهستها الأقدام.

- يا سيدي، هل أنت معي، يا خليفة المسلمين.

بتلك النداءات أفاق البغدادي من خيالاته، فمط البغدادي شفتيه ثم أشار لموقع الورقة المتحطمة قائلا: أتدري بم يذكرني هذا المشهد؟.

في حيرة ونفاذ صبر قال القحطاني: بماذا يا سيدي؟

قال البغدادي: بأمتنا الإسلامية، كان قدرها أن تظل على غصن شجرة تلامس الرياح ويرويها عروق مأواها، وإذ بالعمر يداعبها فتذبل، وفي خريفها الأول تجد نفسها وحيدة، وحتى رفيقها الرياح انقلب عليها عدوا، فتسقط من مكانها ولعلها أرادت بسقوطها مخالطة عالم مختلف تجد فيه بهجتها وتلحق ما تبقى من عمرها بعد انقطاع

الأسباب عن عالمها، وبعد استقرارها في عالمها الجديد إذ بالأقدام تدوسها فتتهشم وتموت، فلا على أمان مأواها أبقت، ولا حياة جديدة نالت، ولو حظيت بشيء فبنظرة شذرة من السائرين فوقها، هكذا هي أمتنا.

حاول القحطاني فهم المثل الذي ضربه البغدادي، إلا أنه عجز، فكرر كلامه السابق عن وضع الدولة.

فنهض البغدادي، من مكانه والتفت للقحطاني وقال: هون عليك، ستنجلي هذه المحنة إن شاء الله، ألا ترى أن دولتنا قد غزا العالم ذكرها، ولا زالت حتى الآن صامدة أمام قوى العالم، وما يمر علينا الآن من محن إنما هو ابتلاء من عند الله، بسم الله الرحمن الرحيم: {الم (1) أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ (2) وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ}.

دولتنا باقية، وسوف تبقى وتتمدد بحول الله وقدرته، وهي الممهدة لظهور دولة مهدي السنة، وما نحن فيه الآن إرهاصات نهاية الزمان، ولو هزمنا في الآتي، فحتما سننتصر، ولعل أطفالنا الذين نعدهم الآن جسديا وثقافيا

هو جيل التمكين، ولا يهم من سيجني الثمار في النهاية، المهم أنه سيقال في التاريخ أننا من بدأنا الطريق.

شحذت كلمات البغدادي همة القحطاني وهو يقول في حماس: إن شاء الله يا خليفة المسلمين.

فربت البغدادي على كتف القحطاني وهو يقول: يا قحطاني، قد خلقنا أمل إعادة الخلافة الإسلامية واقعا في نفوس الشباب بعد أن كان حلما تسطره الكتب، أو ذكرا تحتقره قوى بني علمان، الجميع علم أن الأمر ممكن، وطالما هو ممكن فسيقع لا محالة، دولة النبي صلى الله عليه وسلم كانت حلما تحول لحقيقة، دولة المرابطين، دولة السلاجقة، دولة ابن عبد الوهاب، أقمنا التوحيد مثلما أقاموا وكفرنا بالطاغوت مثلما كفروا، وسنبقى مثلما بقوا حتى يمكَّن لنا؛ فالفكرة خالدة يا قحطاني لا يقدر أحد على وأدها.

صمت البغدادي وعاد لجلسته الأولى متأملا الأشجار التي تداعبها الرياح في سكون، وهو يسمع وقع أقدام القحطاني وهي تغادر المكان.

ولا زالت الأحداث جارية

صمت البغدادي وعاد لجلسته الأولى متأملا الأشجار التي تداعبها الرياح في سكون، وهو يسمع وقع أقدام القحطاني وهي تغادر المكان.